القرآن والكتاب

The Qur’an and the Book

*

٢ ـ أطوَارُ الدَّعوةِ القُرانيَّة

(القسم الثالث: الفصل الحادي عشر ـ الخاتمة (ص ٨٥٠ ـــ ١٠٨٢)

Book Two: The Stages Of the Qur’anic Mission

(The third part: 11th chapter - The epilogue (pp 850- 1082)

يوسف درة الحداد

Professor Youssef Durrah al-Haddad

www.muhammadanism.org
November 4, 2011

الفصل الحادي عشر

تعليق

(على العهد الأول في المدينة ـ الرابع من الدعوة القرآنية)

تأسيس « الأمة الوسط » دولة دينية

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس »
(بقرة ١٤٢)

نشهد في العهد الأول المدني، ما بين الهجرة وفشل الحملة الثانية على الرسول والمدينة في وقعة الخندق: تأسيس الإسلام « أمّةً وسطاً » ودولة دينية؛ يحميها من خارج بالجهاد والدفاع بالسلاح؛ ويصونهما ويديرهما من داخل بشريعة تنظم الجماعة الجديدة؛ مع دعوة اليهود العسيرة لإتباع « النبي الأمي » وحملة متواصلة لا هوادة فيها على المعارضة « والمنافقين » الذين يتظاهرون بالإسلام، ويظاهرون عليه المشركين واليهود.

*

بحث أول : ما بين القرآنين والدعوتين والرسولين

الظاهرة الأولى والعظمى التي تستطلعنا منذ مطلع العهد المدني الأول، في سورة البقرة، والسور الإحدى عشرة الأخرى التي نزلت فيه، هي في **الفوارق الباهرة** ما بين القرآن المكي والمدني، والدعوة في مكة والمدينة، وشخصية الرسول قبل الهجرة وبعدها. فكأننا أمام قرآنين ودعوتين ورسولَيْن. قال الأستاذ عمر فرّوخ[1]: « كان للهجرة قيمة

---

(١) العرب والإسلام . بيروت ١٩٥٨ ص ٤٢ .

خاصة في تاريخ الإسلام: لقد كان حداً فاصلاً بين عهد كان فيه الإسلام **دعوة دينية**، يحميها نفر قليلون مستضعفون، وبين عهد أصبح الإسلام فيه **دولة** قوية مرهوبة ». وقال حسين هيكل في (حياة محمد[1]): « هنا يبدأ الدور السياسي ... وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول ... يصير فيه الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح ».

فالإسلام في القرآن المكي هو التوحيد الكتابي الواحد من موسى إلى عيسى إلى محمد؛ والإسلام في القرآن المدني هو الحنيفية الإبراهيمية الكتابية، في القومية العربية: « ما كان إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً، ولكن كان حنيفاً مسلماً؛ وما كان من المشركين » (آل عمران ٦٧). وتصير هذه الحنيفية الكتابية الإبراهيمية العربية أفضل مِلَل التوحيد المنزل: « ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه الله، وهو محسن، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً؛ واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (نساء ١٢٤).

كانت الدعوة القرآنية في مكة إلى « **أمة واحدة** » في التوراة والإنجيل والقرآن (مؤمنون ٥١ أنبياء ٩١)؛ فصارت في المدينة إلى « **أمة وسط** » بين أهل التوراة وأهل الإنجيل (بقرة ١٤٢).

كان النبي يدعو في مكة إلى **الإيمان بالله واليوم الآخر**، بعيداً عن ضوضاء الجسد والسياسة والدنيا؛ فصار في المدينة رسول **دولة دينية** تُبنى **لليوم الحاضر**، في معارك الجسد والسياسة والدنيا.

*

في الجلاء البابلي عند اليهود، تطور التوحيد التوراتي من روح العقيدة إلى روح الشريعة، من حياة الإيمان، إلى حياة « الشرع ».

وكذلك، بهجرة النبي إلى المدينة، تطور التوحيد القرآني **من عقيدة إلى شريعة**، ومن دين إلى دولة، ومن دعوة عامة إلى ملّة مستقلة. وذلك بتأثير البيئة اليهودية في المدينة، وضرورات الدولة الإسلامية الناشئة.

كان الشرع الديني في مكة واحداً في تاريخ التنزيل كله، من نوح إلى إبراهيم، إلى موسى والنبيين من بعده، إلى عيسى، إلى محمد « أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »

---

(١) حياة محمد ص ١٩٠ .

(شورى ١٣) فتميّز في المدينة بشريعة « وسط » للأمة الوسط: يهديكم سنن الذين من قبلكم... يريد الله أن يخفف عنكم » (نساء ٢٥ ـ ٢٧).

وهذا التطور ما بين الدعوتين والقرآنين، من عقيدة إلى شريعة، اقتضاه تطور الرسالة من دين إلى دولة، ومن دعوة عامة إلى ملة خاصة.

كانت حياة النبي في مكة حياة **صوفية** على مثال رهبان عيسى؛ فصارت حياة الرسول في المدينة حياة « **شرعية** » على مثال حياة أئِمة اليهود في المدينة. كانت حياة إيمان وصلاة وزهد؛ فصارت حياة مراسيم، وغزوات، وتمنّع بالطيّبات: «يا أيها الناس، كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً » (بقرة ١٦٨ و١٧٢)، «اليوم أحلّ لكم الطيبات » (مائدة ٦).

صبغ القرآن المدني الحياة الإسلامية بالصبغة « الشرْعية » القانونية، فلا تقوم إلا بالمراسيم المعهودة. وهذا ما آلت إليه العقلية اليهودية قبل المسيح، وعاشت فيه، في جميع مهاجرهم، وفي الحجاز والمدينة. وهذه العقلية الشرعية التي توطدت في العهد المدني، وصبغت الإسلام نهائياً بصبغتها المميزة، جعلت الإسلام يتنكر في تاريخه إلى الحركات الصوفية التي تأثرت بالمسيحية.

يتطور القرآن، ما بين مكة والمدينة، من حياة الإيمان إلى حياة الشريعة.

*

وهكذا كانت الدعوة القرآنية في مكة ديناً فصارت في المدينة دولة دينية.

كانت الدعوة بمكة «بالحكمة والموعظة الحسنة »، فصارت في المدينة « بالحديد الذي فيه بأس شديد ».

كانت السيرة النبوية في مكة قائمة على الصلاة الرهبانية وقيام الليل، وعلى الزهد الرهباني والانقطاع عن الدنيا في سبيل اليوم الآخر؛ فصارت في المدينة تحصر الصلاة في أوقات معلومات ليتفرّغ النبي والناس إلى الجهاد، واستباحة الغزوات والطيبات في اليوم الحاضر.

كان التوحيد القرآني في مكة واحداً مع جميع الكتابيين، فصار في المدينة ملة مستقلة عنهم، على جدال معهم وخصام وقتال.

كان الهدى بمكة في « الكتاب الإمام » فصار بالمدينة « في ملة إبراهيم حنيفاً ».

كان الإسلام في مكة التوحيد الكتابي المعرَّب في القرآن، فصار الإسلام في المدينة « ملة إبراهيم » في « أمةٍ وسط » بين المشركين والكتابيين، ثم بين اليهود والمسيحيين.

كان النبي في مكة مثال الداعية الديني الذي يدعو إلى سبيل الله بالصلاة والصوم والزهد، والحكمة والموعظة الحسنة، فصار في المدينة الزعيم الديني السياسي والاقتصادي والحربي لجماعة تحاول فرض سيطرتها الدينية والقومية على الحجاز، والجزيرة كلها.

فانقلب الدين الخالص في مكة، إلى دولة دينية في المدينة.

وانقلبت العقيدة والمبادئ العامة، إلى شريعة وقوانين خاصة.

وانقلبت الصوفية السمحاء، إلى عبادة عملية بمراسيم معلومة.

وانقلب الداعية الديني الزاهد في الدنيا، إلى زعيم ديني قومي سياسي عسكري.

وانقلب إسلام « الأمة الواحدة » إلى ملة محمدية في « أُمة وسط ».

*

* *

بحث ثانٍ : الإسلام « أمة وسط » بين الموسوية والمسيحية

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس »
(بقرة ١٤٣)

منذ مطلع العهد المدني يتجلى لنا هدف القرآن الأكبر في تأسيس إسلام القرآن « أمة وسطاً » بين الموسوية والمسيحية، بمناسبة تحويل القبلة إلى كعبة مكة (١٣٥ ـ ١٤٣). ظل القرآن المكي، في عهوده الثلاثة « أمة واحدة » (أنبياء ٩١ مؤمنون ٥١) مع أهل الكتاب، على التوحيد الكتابي. وفي معركة التحرير الديني والقومي، والانفصال والاستقلال عن أهل الكتاب، يظهر الانقلاب الكبير في مطلع القرآن المدني في حصر التوحيد المنزل في ملة إبراهيم: « وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! ـ بل ملة إبراهيم

حنيفاً وما كان من المشركين » (بقرة ١٣٥)؛ وفي جعل هذه الحنيفية الإبراهيمية الكتابية « أمةً وسطاً » بين اليهود والنصارى: « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً[1] لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم » (بقرة ١٤٣).

وسيتطور هذا الاستقلال إلى الاستقرار على أن هذه «الأمة الوسط» هي الأمة الفضلى في أمم التوحيد المنزل: « ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً؛ واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (نساء ١٢٤).

وبما أن القبلة في الصلاة، هي شعار الدين، وميزته الفارقة، فاختار القرآن بعدَ لأي « قد نرى تقلب وجهك في السماء » (بقرة ١٢٤) قبلة الكعبة وسطاً تليق بالأمة الوسط، وتميّزها عمّا سواها: « ومن حيث خرجتَ فولّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره، لئلا يكون للناس عليكم حجة، إلا الذين ظلموا منهم (اليهود) فلا تخشوهم واخشوني، ولأتمَّ نعمتي عليكم، ولعلكم تهتدون » (١٥٠). قال السيوطي في الإتقان (٢ : ٨٤): « لما كان الخطاب موجهاً لموسى من الجانب الغربي وتوجهت إليه اليهود، وتوجهت النصارى إلى المشرق، كانت **قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين**، قال الله تعالى: وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ».

فالقرآن يجعل في المدينة التوحيد الكتابي الذي عاشه في مكة ديناً وسطاً بين الموسوية والمسيحية في عقيدته وشريعته وصوفيته. وهذا هو التعريف الحق، الجامع المانع، والشامل الكامل، الذي يصف به القرآن الإسلام.

*

مطلب أول: الإسلام « أمة وسط » في **عقيدتِه** بين اليهودية والمسيحية.

ظل القرآن في العقيدة العامة على التوحيد الكتابي (بقرة ١٣٦ آل عمران ٨٣ ـ ٨٥ نساء ١٦٢ ـ ١٦٤).

واتخذ في الخلاف بين اليهود والنصارى بشأن المسيح موقفاً وسطاً: قَبِل نبوّته ضد اليهود، وأنكر نبوّته من الله ضد النصارى.

---

(١) فسّر صحيح البخاري (٣ : ٦٦ و١٠٤) « الأمة » بالدين على لسان ترجمان القرآن ابن عباس : « إن أمتكم هذه أمة واحدة ؛ قال : دينكم دين واحد » .

فهو يحمل **حملة عنيفة** على اليهود لإنكارهم رسالة المسيح، التي ميّزها الله على الأنبياء والمرسلين. بتأييد الروح القدس: « وقفينا من بعده (موسى) بالرسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » (بقرة ٨٧). بهذا التأييد الخارق الخاص فضله الله على موسى والرسل أجمعين (بقرة ٢٥٣). ويحمل عليهم أيضاً ويسفههم ويكفرهم لتبجّحهم بإعدام المسيح الجسدي والمعنوي (نساء ١٤٩ و١٥٦) مظهراً خلود المسيح حيّاً عند الله، واستعلاء المؤمنين به على الكافرين به: « ومطهرك من الذين كفروا، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » (آل عمران ٥٤ ـ ٥٥) فقد مجده على المرسلين أجمعين إذ رفعه إليه حيّاً بالنفس والجسد: « وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » (نساء ١٥٧).

ويحمل **حملة تودّد** على النصارى لغلوّهم في المسيح: « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق: إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. ولا تقولوا: ثلاثة! انتهوا خيراً لكم. إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد! لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرَّبون »! (نساء ١٧٠ ـ ١٧١) أجل عيسى ابن مريم، مسيح الله وكلمة الله وروح الله، ولكنه « عبد الله » مثل سائر المرسلين.

*

مطلب ثانٍ: والإسلام « أمة وسط » في **شريعتِه** بين اليهودية والمسيحية.

يسنّ القرآن المدني مبدأ تشريعه في سورة النساء: « يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سُنَن الذين من قبلكم ... يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفاً » (٢٥ و ٢٧) فمصدر تشريع القرآن سُنن أهل الكتاب، مع تخفيف لها بعوائد القومية العربية: « يريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً، والله يريد أن يتوب عليكم » (نساء ٢٦). فجاء التشريع القرآني وسطاً في كل الأحوال:

أولاً : **في أركان الإسلام**

تشريع وسط في **الشهادة:** شهادة اليهود العرب: «يهوه إحِد » والملائكة أبناء الله (آل عمران ٨٠) وعزيز ابن الله (توبة ٣١). وشهادة النصارى: الله واحد في ثلاثة أقانيم

أي ثلاث خواص ذاتية في وحدة الألوهية؛ والمسيح ابن الله. فجاءت شهادة القرآن: «قل هو الله أحد، لم يلدْ ولم يُولدْ ولم يكن له قط كفوءاً أحد » (سورة الإخلاص) ومحمد رسول، وخاتم النبيين.

تشريع وسط في **الصلاة:** الصلوات ثلاث عند اليهود، صباحاً وظهراً ومساءً. والصلوات سبع عند رهبان عيسى: في الفجر، والضحى، والظهر، والعصر، والغروب، والعشاء، ونصف الليل. فجاءَت الصلوات خمساً في الإسلام، شرعها القرآن: « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » (بقرة ٢٣٨) وبينتها السنة في عددها وكيفيتها.

والوضوء شرط قبل الصلاة. وفي أشياء أخرى كثيرة، عند اليهود (مرقس ٧ : ١ ـ ٥). وجعل الإنجيل الوضوء قبل الصلاة وقبل الطعام وقبل سواهما اختيارياً لتحرير الإنسان من سلطان الطقوس الدينية، لأن الذي يدخل فم الإنسان لا ينجّس الإنسان، بل ما يخرج منه هو الذي ينجسه. فجاء الوضوء في الإسلام وسطاً: فهو إجباري قبل الصلاة، واختياري في غيرها.

تشريع وسط في **الصوم:** يصوم اليهود يوم عاشوراء[1] وأضاف التلمود بعض أيام أخرى. ويصوم النصارى أربعين يوماً مع القطاعة عن اللحم واللبن. واستقرّ الإسلام على شهر رمضان (بقرة ١٨٥) صوماً بدون قطاعة.

تشريع وسط في **الزكاة**: شرع الكتاب الزكاة، وحدّدها التلمود بدرهم في العام؛ وشرع الإنجيل الزكاة، وحددتها السنة المسيحية بعشر المدخول الصافي. وشرع القرآن الزكاة، وجعلتها السنة وسطاً بين المسيحية والموسوية.

تشريع وسط في **الحج**: الحج إلى بيت الله في أورشليم إجباري عند اليهود، والحج إلى قبر المسيح وكنيسة القيامة، اختياري عند النصارى، مرغوب فيه، مندوب إليه؛ والحج إلى بيت الله الحرام في مكة إِجباري، ولكن على من استطاع إليه سبيلاً (آل عمران ٩٧).

*

(١) عاشوراء ، كلمة سريانية تعني العاشر ، وهو ترجمة « كبّور » يوم التكفير .

ثانياً : **في الأحوال الشخصية**

تشريع وسط في **تعدّد** الزوجات. كان التشريع التوراتي بلا حدّ في عدد الزوجات. فحرَمَ الإنجيل تعدد الزوجات على الإطلاق، وأرجع الزواج إلى وحدته الأصيلة في خلق آدم وحواء. وجاء القرآن فأباح تعدّد الزوجات إلى أربع معاً فقط: «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » (نساء ٣). وبعد قليل يردّه إلى الواحدة لاستحالة العدل: « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » (نساء ١٢٨)، فنقض بالفعل ما أباحه مبدئيّاً. قال دروزة: « وإذا لوحظ أن آية النساء (٣) قد نبهت على وجوب الاقتصار على واحدة في حال غلبة العدل، وأن هذه الآيات (١٢٧ ـ ١٣٠) قرّرت تعذر هذا العدل؛ وأن تعدد الزوجات كان مألوفاً في ذلك العهد والبيئة ـ أمكن أن يُلمح في هذه الآيات وفي الآية المشار إليها معاً تلقين بالكف عن التعدد أو بالاقتصاد فيه؛ وبالتالي قصد لتعديل ما أبيح للرجال من عدد محدّد، كانت إباحته نفسها تعديلاً لما كان مألوفاً من عدم التحديد[1] » فخطا القرآن خطوتين ليقرب من التشريع الإنجيلي، فظل في الوسط بسبب مثل النبي.

تشريع وسط في **الطلاق**. كان الطلاق مباحاً في التوراة «لكل عيب يراه الرجل في الإمرأة » وقد ظهرت فيهم طائفة تدعو إلى حصر ذاك العيب في الزنا، فتوسعت به طائفة أخرى إلى أقصى الحدود[2]. فجاء الإنجيل وحرّم الطلاق تحريماً (متى ١٩ : ١ ـ ١٩) لأنه في أصل خلق الجنس البشري لم يكن من طلاق، والطلاق الموسوي إباحة نسخها الإنجيل: فما جمعه الله لا يفرقه إنسان (١٩ : ٦). وأباح القرآن الطلاق ولكن ضمن حدود تقيده (بقرة ٢٢٦ ـ ٢٣٧) ويستثني النبي ذاته من هذه الحدود (أحزاب ٥٠ و٥١ و٥٣).

تشريع وسط في **حدّ الزنا**. شرعت التوراة رجم الزانية (أحبار ٢٠ : ١٠ تثنية ٢٢ : ٢٢). وجاءَ الإنجيل فنقل الحدّ من محكمة الشعب إلى محكمة الضمير، ليساوي

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٣٧٥ .

(٢) مدرسة هلّيل وتلميذه عقبة توسعوا في أسباب الطلاق إلى التافه منها : كطعام غير ناضج أو شواءٍ محروق ، أو أيّ هفوة تصدر من الزوجة ، أو وجود أخرى أجمل منها . ونجد في القرآن محاولة لنقض هذا السبب الأخير في شخص النبي « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ » (أحزاب ٥٢) إلا أنها نسخت في آية سابقة لها (٥٠) .

بين الرجل والمرأة في هذا الحدّ المعنوي، فلا تظل المرأة وحدها خاضعة للحد من دون الرجل، وقد يكون المسؤول الأول عن زناها: أتى اليهود المسيح بزانية في الجرم المشهود وقالوا: « أوصى موسى في التوراة أن تُرجم مثل هذه فما تقول أنت؟ ... ولا أنا أحكم عليك: اذهبي ولا تعودي تخطئين » (يوحنا ٨ : ١ ـ ١١). وشرع القرآن أولاً حبس الزانية حتى الموت (نساء ١٤) ثم نسخهُ بالجلد مائة جلدة (نور ٢)، وفي الحالين « بأذى » الرجل لا غير؛ فكأن تشريعاً وسطاً في حدوده.

تشريع وسط في **العشرة الزوجية**. كانت المرأة في التشريع ملك الرجل يتصرف بها على هواه فهو « بعلها » أي سيدها المطلق كالإله بعل؛ ولكن في حال أرقى من محيط الأميين حولهم، فكان للمرأة العبرانية على الرجل حقوقاً، ذكرت منها التوراة ثلاثة: الطعام والكسوة والجماع (خروج ٢١ : ١٠) وذكر التلمود سبعة: تمريضها، إعالتها مدى الحياة، إيواءَها في ترملها؛ وإذا طلّقها فالذكور في عصمتها إلى سن السابعة، وبناتها في عصمتها مدى الحياة، وعلى الرجل إطعام البنات حتى زواجهن، وتوريث أولادها وتزويجهم. وجاءَ تحرير المرأة في الإنجيل بفرض وحدة الزوجة، وتحريم الطلاق، وبذلك وضع شرعة المساواة الزوجية بين الرجل والمرأة، والانسجام في العشرة البيتيّة: « لتخضع النساء لرجالهن كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة؛ وأنتم أيها الرجال أحبوا نساءَكم كما أحب المسيح الكنيسة وبذل نفسه لأجلها، فكذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءَهم كأجسادهم، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسداً واحداً » (أفسس ٥ : ٢٢ ـ ٣٢). وحدة الجسد أساسُ وحدة الروح ووحدة المنزلة الاجتماعية حتى أن الرجل يترك أباه وأمه ويلازم امرأته: « وكذلك أنتم أيها الرجال ساكنوهن على مقتضى العقل لكون الإناء النسوي هو الأضعف؛ وأكرموهن كالوارثات معكم لنعمة الحياة المسيحية » (١ بطرس ٣ : ١ ــ ٧): العشرة بالمعروف، والكرامة اللائقة كمسيحية مثل الرجل المسيحي لأنه « في المسيح يسوع لا ذكر ولا أنثى ـ بل الزوجان واحد ـ أيها الرجال أحبوا نساءَكم ولا تكونوا ذوي عنف عليهن » (كور ٣ : ١١ و١٩) ـ فجاء التشريع القرآني وسطاً للأمة الوسط: « عاشروهن بالمعروف ... الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم. واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن. فإنْ أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » (نساء ٣٣). وفي الجماع اتبع أولاً خطة أهل الكتاب: « فأتوهن من حيث أمركم الله » (بقرة ٢٢٢)؛ فشق ذلك

على المهاجرين وعلى عمر فنسخه للحال: « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم » (٢٢٣) حتى قال بعضهم: « إنها نزلت رخصة في إتيان الدبر »!

وفي مسألة **المحيض**، شرعت التوراة وحدّد التلمود واعتزال النساء في حيضهن بالمضجع والمأكل والمسكن حتى يطهرن، ويغتسلن. ولم ينزل في الإنجيل تشريع بذلك لأنه خاضع لتطور المدينة عبر الزمان والمكان ـ ونزل القرآن بشريعة وسط للأمة الوسط: « ويسألونك عن المحيض؟ ـ قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن » (بقرة ٢٢٢). وفهمتها ألسنة أنها تمنع الجماع، لا غيره من مسّ أو موآكلة أو مساكنة.

تشريع وسط في **منزلة المرأة الاجتماعية**. كانت المرأة في التشريع التوراتي في حكم المملوكة، رغم تحررها من كثير من قيود المرأة الوثنية[1]؛ فهي من الرجل (تكوين ٢ : ٢٣) وهو يسود عليها (٣ : ١٦) حتى سارة كانت تسمّي إبراهيم الخليل « بعلها » أي سيدها المطلق (تكوين ١٨ : ١٢ قابل ١ بطر ٣ : ٦) يتصرف بها كملك يمينه (خروج ٢١ : ٢٢) يعاشرها على هواه ويطلقها على هواه. فجاء الإنجيل وحرّر المرأة من قيود العبودية للرجل في تعدد الزوجات وإباحة الطلاق له، من دونها، فحرم تعدد الزوجات ومنع الطلاق وفضّل العفة على الزواج إذا اقتضى الأمر، وبذلك رفعها إلى منزلة الرجل في الحياة الاجتماعية ولذلك شرع على الرجال أن يساكنوهن على مقتضى العقل، ولا يكونوا ذوي عنف عليهن. وهذه المساواة الاجتماعية نتيجة المساواة الدينية: « في المسيح يسوع لا ذكر ولا أنثى بل الجميع واحد » لذلك شرع على الرجال أن يكرموهن كالوارثات معهم لنعمة الحياة المسيحية. وسلك القرآن خطة وسطاً للأمة الوسط: منع وأد البنات، وقيّد الطلاق بحدود، وقيد عدد الزوجات بأربع معاً، وأمر بعشرتهن بالمعروف، وإباحة ضربهن إذا اقتضى الأمر بدون عقاب من شرع أو قانون. ولكن القرآن شرع أربعة مبادئ تحول دون مساواة الرجل والمرأة في الحياة الاجتماعية: قوامة الرجل على المرأة قوامة تصل عند اللزوم إلى الهجر في المضاجع والتأديب بالضرب (نساء ٣٣)؛ جعلُ عقدة الطلاق بيد الرجل لا ينازعه فيها منازع (بقرة ٢٣٥)؛ وشهادة رجل بشهادة امرأتين (بقرة ٢٨٢)؛ وفي الإرث والتوارث « حظ الذكر مثل حظ الأنثيين » (نساء ١١).

---

(١) قابل D. Bible T II p. 2187

وتلك اللامساواة الاجتماعية تنتج عن اللامساواة الطبيعية والدينية في القرآن: ((ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض: للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب ممّا اكتسبنَ)) (نساء ٣١). فسره الجلالان: ((ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض من جهة **الدنيا أو الدين** لئلا يؤدي ذلك إلى التحاسد والتباغض: للرجال نصيب مما اكتسبوا بسبب ما عملوا من الجهاد وغيره، وللنساء نصيب ممّا اكتسبن من طاعة أزواجهنَّ وحفظ فروجهنَّ. نزلت لما قالت أمُّ سلمة (زوج النبي) ((ليتنا كنا رجالاً فجاهدنا وكان لنا أجر الرجال)).

تشريع وسط في **الإرث.** كان المورِّث في التوراة في توريثه (تكوين ٢٧ : ٦ ـ ٢٩)، وللبكر نصيبان منه (تثنية ٢١ : ٧)؛ والبنات لا يُوَرَّثن (تكوين ٣١ : ١٤) إلا في الكلالة (العدد ٢٧ : ٨ ـ ١١). ورفض المسيح في الإنجيل (لوقا ١٢: ١٣) أن يتطرق إلى موضوع خاضع لتطور البشرية وظروف الزمان والمكان، مكتفياً بالحكمة الدينية في ذلك: ((ليست حياة الإنسان بكثرة أمواله)). وجاء القرآن بتشريع فيه تطور ملحوظ بالنسبة للتوراة والبيئة العربية (نساء ٧ ـ ٨ و١١ ـ ١٢ و٣٢ ـ ٣٣ و١٢٧ و١٧٦)، فأمر بتوريث النساء (نساء ٧) والوالدان واليتامى (١٢٧) وحدّد أنصبة الوارثين في آية الميراث الشهيرة (نساء ١١ و١٢). قال دروزة[1]: ((والآيات كلها تُلهم أن أنصبة الإرث كانت تتموج على حسب الوارثين قوة وضعفاً، وذكورة وأنوثة، وكبراً وصغراً، ودرجة قرابة؛ فاقتضت الحكمة نزولها بتعيين حق كل مستحق وإنهاء عهد فوضى الإرث والتحكم فيه؛ ولكن كثرة التحديد في آية الميراث (١١) حدُ في التطور، فهل يقبل البشر على الدوام أن يكون ((حظ الذكر مثل حظ الأنثيين))؟

*

ثالثاً : **في الدستور الأخلاقي**

تشريع وسط في ((**يوم الرب**)). كان يوم الرب في الموسوية يوم السبت صلاةً رسمية، وعطلةً رسمية. فجاء يوم الرب في المسيحية يوم الأحد، بسبب قيامة المسيح، صلاة رسمية وعطلة رسمية. ووقف القرآن موقفاً قوميّاً وسطاً. فاختار الجمعة، يوم للصلاة الرسمية،

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٣٦٦ .

لأنه كان يوم العروبة من قبل، تقرّباً من قومه، وتمييزاً عن أهل الكتاب، « ليكونوا شهداء على الناس » كما في اختيار قبلة قومه. وألغى العطلة عن العمل، واكتفى بالصلاة: «يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة، من يوم الجمعة، فاسعوا إلى ذكر الله، وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » (سورة الجمعة ٩ ـ ١٠) ويلحق بالصلاة **الأذان** لها، فهو أيضاً تشريع وسط: ليست الدعوة للصلاة موجهة بالبوق كما عند اليهود، ولا بالناقوس كما عند النصارى، بل بالصوت الحي في الأذان أي النداء للصلاة: « إذا نودي للصلاة » (جمعة ٩) «وإذا ناديتم إلى الصلاة » (مائدة ٥٨). وكذلك القول عن القبلة في الصلاة كما سبق.

تشريع وسط في **القَسَم:** حرّم الله في التوراة القسم الباطل (خروج ٢٠ : ٧ تثنية ٥ : ١١). وحرّم المسيح في الإنجيل كلَّ قسم: « قد سمعتم أنه قيل للأولين: لا تحنث بل أوفِ الرب أقسامك، أما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة ... ولكن ليكن كلامكم: النعم، نعم؛ واللاّ، لا؛ وما زاد على ذلك فهو من الشرّير » (متى ٥ : ٣٣ ـ ٣٧). فجاء القرآن بتشريع وسط للأمة الوسط: « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم » (بقرة ٢٢٥ مائدة ٩٢) قال الجلالان: « اللغو ما يسبق إليه اللسان من غير قصد الحلف نحو (لا والله! بل والله!) فلا إثم عليه ولا كفّارة ». والأيمان المقصودة قد فرض لها تحلّة: « قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم » (تحريم ٢). قال الجلالان: « قد شرع الله تحليل الأيمان بالكفارة المذكورة في سورة المائدة » (٩٢). والكفارة على الحنث المقصود إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام « ذلك كفَّارة أيمانكم ».

تشريع وسط في **القتل:** في التوراة حرّم الله القتل على الإطلاق في الكلمات العشر. وفسّر التلمود إطلاق هذه الشريعة كما نقله القرآن: « من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً؛ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » (مائدة ٣٥). وجاء الإنجيل فحرَّم القتل، والغضب سببه، وأمر بالمصالحة: «قد سمعتم أنه قيل للأولين: لا تقتل! أما أنا فأقول لكم: إن كل من غضب على أخيه يستوجب الدينونة. فإذا قدمتَ قربانك إلى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً، فدع قربانك هناك أمام المذبح وامضِ أولاً وصالح أخاك، وحينئذٍ ائتِ وقدم قربانك » (متى ٢١ ـ ٢٥). أمّا القرآن فميّز بين قتل المسلم وغير المسلم: ففي حال

قتل مسلم شرع القصاص في القتل: الحر بالحر، والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى. فمن عُفي له من أخيه شيء فإتباع بالمعروف، وأداء إليه بأحسن: ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » (بقرة ١٧٨) واستثنى قتل المؤمن خطأً وشرع كفارته: « تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهلها إلا أن يصدّقوا فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، توبةً من الله » (نساء ٩٢). والسنة النبوية التي احتواها صك عهد المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: « لا يقتل مؤمن بكافر »!

تحريم القتل صيغة سلبية، والناحية الإيجابية فيه هي محبة القريب. وفي هذه أيضاً جاء القرآن تشريعاً وسطاً للأمة الوسط. كانت محبة القريب في الموسوية قومية دينية؛ وقد نقل القرآن عنهم تشريع التلمود في ذلك: « لا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم ... ليس علينا في الأميين سبيل ». (آل عمران ٧٣ ـ ٧٥): وسبق الإنجيل فنقلها من القومية والطائفية إلى العالمية الشاملة: «قد سمعتم أنه قيل: أحبب قريبك وابغض عدوك. أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءَكم وأحسنوا إلى من يبغضكم وصلّوا لأجل مَن يلعنكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات » (متى ٥ : ٤٣ ـ ٤٨) وفسّر المثل السامري (لوقا ١٠ : ٢٩ ـ ٣٧) أن القريب يشمل جميع الناس حتى عدو الدين والقومية. أما القرآن فأبدل، في محبة الغريب، قومية الدم بقومية الدين: القريب هو المسلم، أيّاً كان، لا سواه أيّاً كان حتى من ذوي الأرحام وبني قومهم الكفار فلا موالاة للكافر: « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين: ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء! (آل عمران ٢٨) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » (آل عمران ١١٨). بل الموالاة للمؤمن وحده: « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله؛ والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض! والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » (أنفال ٧٢ و٧٣). لا موالاة مع الكافرين ولو كان ذا قربى: « لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون مَن حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (المجادلة ٢٢) حتى الموالاة مع المسلمين المنافقين محرومة: « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله » (نساء ٨٧ ـ ٨٨) والمسلم الذي يوالي الكافر منافق (١٣٧ ـ ١٣٨) في الدرك الأسفل من النار (١٤٣ ـ ١٤٤). ولا موالاة أيضاً مع أهل الكتاب: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم » (مائدة ٥٤)؛ موالاة الكتابيين محظورة مثل موالاة المشركين الكافرين: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً أو لعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء »! (مائدة ٦٠). ذلك ولو كان النصارى

من أهل الكتاب « أقرب مودة للذين آمنوا » من كل أهل الأرض (مائدة ٨٥). فالموالاة محصورة في المسلمين وحدهم دون سواهم: « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » (توبة ٧١). قال دروزة معقباً: « هذه الآيات مما يتصل بالحث على الإخوة الإسلامية، وتبادل الولاء بين المسلمين دون غيرهم ... وعدم الإخلال بالتضامن الإسلامي بتولي أعداء الإسلام والمسلمين بأي شكل. والآيات من سور عدة نزلت في مختلف أدوار التنزيل وبمناسبة أحداث واقعية، وهذا يعني أن هذا الأمر الخطير قد توطّد أو استهدف توطيده بالتكرار وفي كل مناسبة سانحة. وتكرارها مع وحدة الموضوع والهدف أدلة على ما كان من رسوخ للعصبية الضيقة في المجتمع العربي ... وتوطيد للأخوة الجديدة التي تقوم على أساس جديد[1] ».

تشريع وسط في **الزنى**. التوراة والإنجيل والقرآن تحرم الزنا. وقد رأينا أن حدّ الزنى الرجم في التوراة، وعقاب الضمير في الإنجيل، والجلد في القرآن. وهنا ترى الوسوسة الباطنية في الزنى وكل شرّ: حرّمت وصايا الله العشر الشهوات الشرّيرة. وجاء الإنجيل فجعل من النظر الفاسد زنى: « قد سمعتم أنه قيل للأولين: لا تزنِ! أما أنا فأقول لكم: إن كل من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه: فإن شككتك عينك فاقلعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله في جهنم؛ وإن شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يذهب جسدك كله إلى جهنم » (متى ٥ : ٢٧ ـ ٣٠). ولَمّا حاول بعض صحابة محمد أن يفعلوا ذلك نزل قوله: « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل لكم » (مائدة ٩٠)[2]. كان القرآن علم محاسبة الله على الوسوسة بالشر: « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » (بقرة ٢٨٤). قال الجلالان: « لما نزلت الآية شكا المؤمنون من الوسوسة وشق عليهم المحاسبة بها فنزل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) أي لا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا بما لا يكسبه مما وسوست به نفسه. وقد رفع الله الوسوسة من هذه الأمة » (بقرة ٢٨٦) والتشريع المسيحي يحرم الوسوسة بالشر، مثل الكسب، وقد حّرم ذكر القباحة نفسها: « فالزنى وكل نجاسة أو بخل، لا يُذكر ولا

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٣٥٤ ـ ٣٥٥ .
(٢) قابل تفسير الجلالين وأسباب النزول للسيوطي على الآية .

اسمها فيما بينكم على ما يليق بالقديسين، ولا القباحة ولا الهذيان ولا السخرية مما لا يليق، بل الهجوا بالحري بالشكر. « واعلموا وافهموا أنه ليس للزاني أو النجس ـ أو البخيل إنما هو عابد وثن ـ ميراث في ملكوت المسيح والله » (أفسس ٥ : ٣ ـ ٥).

*

رابعاً : **في الخطيئة والكبائر والشرك**

لقد أحصى الله الكبائر من الإثم والخطيئة في الكلمات العشر التي نزلت من التوراة. وفهمها اليهود أنها بالأعمال الظاهرة أكثر منها بالأعمال الباطنية. فجاء الإنجيل في شريعته التأسيسية على الجبل منذ مطلع العهد يُطوّر هذا التشريع الأخلاقي من الأعمال الظاهرة إلى الأفعال الباطنية: كالغضب مصدر القتل (متى ٥ : ٢٢) والشهوة مصدر الزنى (٥ : ٢٨) وجعل المحبة الشاملة بدل القومية الدينية (٥ : ٤٤) وشرع سريّة الصدقة (٦ : ٢) والصلاة المستورة (٦ : ٦) والصوم الخفي (٦ : ١٦): فليس الخلاص بالإيمان وحده بل بالإيمان والعمل الصالح. ونزل القرآن بهذا التعليم أولاً: « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين مَن آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (بقرة ٦٢)[1] ولما تفاضل أهل الكتاب والمسلمين بالخلاص في التوحيد الكتابي أو القرآني صرّح: « ليس بأمانيكم ولا بأماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » (نساء ١٢٢). ثم فصّل القرآن الكبائر في صدر سورة النساء (١ ـ ٣٠) فعدَّها بعضهم تسعاً، وبعضهم ستاً، وبعضهم ثلاثاً وختمها بالتصريح أن الله يسمح بالصغائر لمن يجتنب الكبائر: « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه، نكفّر عنكم سيئاتكم » (نساء ٣٠). ثم انتهى إلى الإعلان بأن الإسلام أي الإيمان بالتوحيد وحده يكفي للخلاص: « إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (نساء ١١٥): فاستخلص الفقهاء من ذلك مبدأهم: « لا يدخل الجنة كافر (أي غير مسلم) ولا يخلّد في النار مسلم »! وهذا ما كان ينعاه القرآن على اليهود لقولهم: « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ـ أو نصارى ـ تلك أمانيهم! قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى، من أسلم وجهه لله، وهو محسن، فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم

---

(١) هذا هو تعليم المسيحية من قبل : « بغير إيمان لا يستطيع أحد أن يرضي الله ، لأن الذي يدنو إلى الله يجب عليه أن يؤمن بأنه كائن وأنه يثيب الذين يبتغونه » (عبرا ١١ : ٦) .

ولا هم يحزنون » (بقرة ١١١) فكل مؤمن بالله وهو يعمل الصلاح يدخل ملكوت الله. «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة (أي معدودات)! ـ قل اتخذتم عند الله عهداً؟ فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون. بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »من كتابيين ومسلمين. ثم يقول القرآن: « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» (آل عمران ٨٥). فلا خطيئة تهلك سوى الشرك.

*

مطلب ثالث: والإسلام « أمة وسط » في صوفيتِه بين اليهودية والمسيحية.

غاية العقيدة والشريعة في التوراة إقامة التوحيد، وإنشاء أمّة التوحيد. ولكن المثل العليا في ذلك ليست محبة الله قبل كل شيء في هذه الدنيا، والتمتع به في الآخرة؛ بل يبقى الهدف الأكبر في التوراة عند اليهود اليوم الحاضر قبل اليوم الآخر؛ وبهذه الصوفية خُتم التشريع التوراتي:

« إن جريتم على رسومي وحفظتم وصاياي وعملتم بها: ١) أنزلت غيوثكم في أَوانها وأُخرجت الأرض غلالها، وشجر الحقل يخرج ثمره؛ والدياس يتصل بالقطاف، والقطاف يتصل بالزرع، وتأكلون طعامكم شبعاً. ٢) وتقيمون آمنين في أرضكم؛ وأزيل الوحوش الضارة من الأرض، وسيف لا يمر في أرضكم. ٣) وتطلبون أعداءَكم فيسقطون أمامكم بالسيف: فتطرد الخمسة منكم مئة والمئة تطرد ربوة، ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف. ٤) وأُقبِلُ عليكم وأنميكم وأكثركم وأثبت عهدي لكم. ٥) وأسير فيما بينكم وأكون لكم إلهاً وتكونون لي شعباً.

« وإن لم تسمعوا لي ولم تعملوا بجميع هذه الوصايا، ونبذتم رسومي، وعافت أنفسكم أحكامي، فلم تعملوا بجميع وصاياي ونقضتم عهدي، فأنا أيضاً أصنع بكم هذا: ١) أسلّط عليكم رعباً وسلاّ وحمّى تفني العينين وتتلف النفس. وتزرعون زرعكم باطلاً فيأكله أعداؤكم وأجعل وجهي ضدكم فتنهزمون من وجوه أعدائكم ويتسلّط عليكم مبغضوكم، وتفرون ولا طالب لكم. ٢) ثم إن لم تطيعوني بعد هذا زدتكم تأديباً على خطاياكم سبعة أضعاف، فأحطّم تشامخ عزكم، وأجعل سماءَكم كالحديد وأرضكم كالنحاس. ٣) وإن جريتم معي بالخلاف ولم تشاؤوا أن تسمعوا لي زدتكم سبعة أضعاف من الضربات

على خطاياكم وأطلقت عليكم وحش الصحراء فتثكلكم وتُهلك بهائمكم وتقلّلكم فتوحش طرقكم. ٤) وإن لم تتأدبوا بهذه وجريتم معي بالخلاف جريتُ أنا أيضاً معكم بالخلاف وضربتكم سبعة أضعاف على خطاياكم: فأجلب عليكم سيفاً منتقماً نقمة العهد، فتتجمعون إلى مدنكم وأبعث الوباء فيما بينكم وتسلمون على أيدي العدو، وتأكلون ولا تشبعون. ٥) وإن لم تخضعوا لي بذلك وجريتم معي بالخلاف، جريت أنا أيضاً معكم بالخلاف ساخطاً وأدبتكم سبعة أضعاف على خطاياكم: فتأكلون لحوم بنيكم، وبلحم بناتكم تقتاتون؛ وأدكّ مشارفكم وأحطّم تماثيل شموسكم، وألقي جثثكم على جثث أوثانكم وتكرهكم نفسي، وأجعل مدنكم فقراً ومقادسكم موحشة، وأجعل الأرض بلقعاً وأبدّدكم بين الأمم وأجرّد وراءَكم سيفاً فتصير أرضكم خراباً ومدنكم قفراً؛ وتبادون بين الأمم وتأكلكم أرض أعدائكم)). (سفر الأحبار ٢٦ : ٣ ـ ٤٦) قابل أيضاً (تثنية ١١ : ١٣ـ ١٥).

مَثَلٌ قومية مادية أرضية. سيأتي الأنبياء ويرفعون منها جيلاً بعد جيل حتى يأتي المسيح فيرفع أهداف العقيدة والشريعة إلى السماء، ويفتح أبواب السماء، ويرتفع إليها حيّاً، ويدعو أنصاره ومتابعيهم إلى اللحاق به، جاعلاً مثلهم الأعلى الاهتمام باليوم الآخر قبل اليوم الحاضر فمنذ خطابه التأسيسي على الجبل يجعل الهدف الأسمى: ملكوت الله، وأرض السماء، وتعزية الجنة، ورحمة الآخرة، ورؤيا الله، وبنوّته الخالدة لمحبيه (متى ٥ : ١ ـ ١٢). غاية الإيمان والعمل الصالح في الإنجيل: ((هكذا فليضئ نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات)) (٥ : ١٧) وروح الدين كله: ((فكونوا كاملين كما أن أباكم السماوي هو كامل)) (٥ : ٤٨). فالصدقة، والصلاة، والصوم يجب أن تكون في الخفية، لا رئاء الناس، ((وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك)) (٦ : ١ـ ١٨). يجب تفضيل الله على كنوز الأرض، وعبادة الله قبل عبادة المال، لأن كل ضرورات الحياة من مأكل ومشرب وملبس تطلبها الأمم ((وأبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله: فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذا كله يُزاد لكم)) (٦ : ١٩ ـ ٣٤).

ثم كشف المسيح في الإنجيل أنه يجلب للناس شيئاً أسمى من هذه الحياة الأدبية المثلى: نزل من السماء ليشركهم بحياة الله: ((والكلمة صار جسداً وسكن فيما بيننا، وقد

أبصرنا مجده، مجدَ وحيد الآب، مملوءاً نعمة وحقيقة: ومن امتلائه نحن كلنا أخذنا نعمة على نعمة؛ لأن الناموس أعطي بموسى، أما النعمة والحقيقة فبيسوع المسيح حصلا)) (يوحنا ١ : ١٤ ـ ١٨) وصرّح عن شخصيته: ((أنا الصراط والحقيقة والحياة)) (يوحنا ١٤ : ٦) وعن عمله ورسالته: ((إنما أتيت لكي تكون لهم الحياة، وتكون لهم كاملة (يوحنا ١٠ : ١٠)؛ أنا خبز الحياة! هذا الخبز النازل من السماء لكي لا يموت كل مَن يأكل منه! أنا الخبز الحي الذي نزل من السماء: إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد))؛ ((كما أرسلني الآب الحي وأنا أحيا بالآب فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي)) (يوحنا ٦ : ٣٥ ـ ٦٠). فغاية العقيدة والشريعة في الإنجيل هي الحياة مع الله في المسيح: ((من كانت عنده وصاياي وحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأظهر له ذاتي: في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم فيَّ وأنا فيكم)) (يوحنا ١٤ : ٢٠ ـ ٢١). وشرْكة المؤمن في حياة الله بواسطة المسيح عمل إلهي، لا بشري، لذلك يقوم به روح الله الذي يرسله المسيح إلى رسله من عند الله الآب: ((وأنا أسأل فيعطيكم معزياً آخر ليقيم معكم إلى الأبد، روح الحق، يقيم عندكم ويكون فيكم (يوحنا ١٤ : ١٦) يقودهم إلى وحدة روحية مع الله: ((كما إنك أيها الآب فيَّ وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا ... أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين في الوحدة)) (يوحنا ١٧ : ٢١ ـ ٢٣). لن تبلغ أحلام الصوفيين وأولياء الله مبادئ هذه الصوفية الإنجيلية المسيحية، لذلك كان الصوفيون في الإسلام يردّدون: ((المسيح هو سيّد الأولياء[1])).

والقرآن المدني يهدف إلى فرض دين التوحيد، الإسلام، في شكل أمّة، ودولة دينية. فهو يعمل لليوم الحاضر، كما ينظر إلى اليوم الآخر. وبتأسيس الإسلام دولة دينية في ((أمة وسط)) جاءَت صوفية القرآن وسطاً بين مادية التوراة وروحانية الإنجيل: فالقرآن يجمع بين مطالب الدين والدنيا، وبين ضرورات الجسد والروح، وبين مشاغل اليوم الحاضر، واليوم الآخر. لذلك ((لم يكن الإسلام فسيح الصدر للرهبنة المسيحية والتقشف الهندي؛ وكثيراً ما دعا إلى العمل للدنيا والتمتع المباح بلذائذ الحياة. فهو بعيد إلى حدٍّ كبير عن طريقة القسس والرهبان في بيعهم وصوامعهم، وسُنّة فقراء الهند وعبَّادهم في ألمهم وعذابهم المستطاب[2])).

---

(١) ابن العربي : الفتوحات المكية ٤ : ٢١٥ و٢ : ٥٥ .
(٢) الأستاذ إبراهيم مدكور : الفلسفة الإسلامية ص ٦٦ .

كانت اليهودية قومية أو دنيا في دين وجهادها جهاد قومي أكثر منه ديني، وكانت المسيحية دين في دنيا وجهادها جهاد روحي ضد الخطيئة: « لم تقاوموا بعد حتى الدم في مجاهدتكم الخطيئة » (عبرا ١٢ : ٤)؛ فجاء الإسلام ديناً ودنيا معاً: «قل مَن حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده؟ والطيبات من الرزق؟ ـ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة »! لذلك جعل القرآن الإسلام لله دولة دينية. وجعل محور الحياة الدينية الجهاد لقيام هذه الدولة الإسلامية. فترى القرآن المدني، ثلثَهُ يدعو إلى هذا الجهاد، وثلثهُ يخاصم اليهود، وثلثه يقاوم المنافقين من المتظاهرين بالإسلام؛ والآيات التشريعية المعدودة فيه (من ١٥٠ ـ إلى ٥٠٠) هي أيضاً لتنظيم هذه الدولة الدينية. لذلك جاءت صوفيته أو روحانيته مادية وروحية معاً.

كانت اليهودية تعمل للدنيا أكثر منها للآخرة؛ وأن قسماً كبيراً منهم، وهو القسم الحاكم في أحبار اليهود زمن المسيح، لم يكونوا يؤمنون بالآخرة، وقيامة الأموات. وجاءَت المسيحية دعوة إلى الزهد في الدنيا ومغرياتها في سبيل الحياة الأخرى والسعادة الخالدة: « لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة، وينقب السارقون ويسرقون: لكن اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا آكلة ولا ينقب السارقون ولا يسرقون: فإنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » (متى ٦ : ١٩ ـ ٢١) « اعملوا لا للطعام الفاني، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية، الذي يعطيكموه ابن البشر لأن هذا قد ختمه الله الآب » (يوحنا ٦ : ٢٧). واستخلص الرسل الحواريون من تعليم سيدهم مثل هذا القول: « إن كنتم قد متّم مع المسيح عن أركان العالم، فما بالكم تقضون كأنكم عائشون في العالم »؟ (كولسي ٢: ٢٠). والقرآن المدني دعوة عارمة للإقبال على طيبات الدنيا بانتظار طيبات الآخرة. فمبدأه الذي انتهى إليه: « اليوم أحلَّ لكم الطيبات » (مائدة ٥) إنه تحليل لأمته لتقبل عليها. والحياة الإسلامية في القرآن المدني جهاد لنشر الإسلام، ولكسب الغنائم أيضاً: « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، فعجّل لكم هذه » (فتح ٢٠) ومبايعة الرسول في الظروف الحرجة كانت على التوحيد والفتح والمغانم: « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً » (فتح ١٩). والنصر في الغزوات نعمة من الله، للرسول في مغانمها النصيب الأوفر: « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ... إن كنتم آمنتم بالله وبما

أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان » في بدر (أنفال ٤١). لذلك فهو لا يذكر الجنة في الآخرة إلا بهذه الصفات: «تجري من تحتها الأنهار فيها من كل الأثمار، ومن كل الأطيار، مع حور عين، وولدان مخلدون ». مرّة واحدة في آخر عهده يذكر رضوان الله مع اللذات الحسية في الآخرة: « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها، ومساكن طيبة في جنات عدن، ورضوان من الله أكبر! ذلك هو الفوز العظيم » (توبة ٧٢). هل يرتقي هذا الرضوان إلى رؤية الله، والسعادة الكاملة بها؟ في ذلك خلاف: يقول عن يوم الدين: « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فقال قوم برؤية الله في السماء؛ وفاتهم إن الكلام عن يوم الدين لا عن الجنة، فقد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه، لذلك يقول الأشعري: « لا تدركه في هذه الدنيا ولا في الآخرة » استناداً إلى قول القرآن: « يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار ». ففي الجنة تظل السعادة بشرية في كمال لذات الجسد والروح.

كانت اليهودية تهتم للجسد أكثر من الروح، وجاء الأنبياء عندهم يقاومون بشدة هذه النزعة. وجاءت المسيحية تعيش للروح أكثر من الجسد: «فلهذا أقول لكم: لا تهتمّوا لأنفسكم بما تأكلون، ولا لأجسادكم بما تلبسون: أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ ... فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل؟ أو ماذا نشرب؟ أو ماذا نلبس؟ فإن هذا كله تطلبه الأمم وأبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كله. فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذا كله يزاد لكم! فلا تهتموا بشأن الغد، فالغد يهتم بشأنه » (متى ٦ : ٢٥ و٣١ ـ ٣٢) واستخلص الرسل الحواريون من تعليم السيد: « فأسألكم أيها الإخوة، بمراحم الله، أن تقرّبوا أجسادكم ذبيحة حيّة مقدسة مرضية عند الله، عبادةً منكم عقلية؛ ولا تتشبهوا بهذا الدهر، بل تحوّلوا إلى صورة أخرى بتجديد عقولكم » (رومة ١٢: ٢). والقرآن المدني، بعكس المكي، يهتم لشؤون الجسد وشؤون الروح على السواء. لذلك جاءَت دعوته في المدينة لاستباحة الطيبات عارمة، منذ البداية حتى النهاية: « يا أيها الناس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً، ولا تبتغوا خطوات الشيطان » (بقرة ١٦٨): « يسألونك: ماذا أحلّ لهم؟ ـ قل أحلّ لكم الطيبات » (مائدة ٥). وعندما خُتم الوحي القرآني بقوله: « اليوم أكملتُ لكم دينكم » قال « اليوم أحلّ لكم الطيبات » (مائدة ٤ و٦). ومن هذه الطيبات، التحليلات التي كانوا في الجاهلية يتأثمون منها: « أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم: علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم

فتاب عليكم وعفا عنكم » (بقرة ١٨٧)؛ «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » في مواسم الحج؛ قال الجلالان: « نزل ردّاً لكراهتهم التجارة في الحج »؛ «يسألونك عن الشهر الحرام: قتال فيه؟ ـ قل قتال فيه كبير » (بقرة ٢١٧)؛ « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم » (بقرة ٢٢٣)، ولا محاسبة بعد على الوسوسة: « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها » (بقرة ٢٨٦). بذلك ينتقل إلى مبادئ التوسعة العامة: «وما جعلنا عليكم في الدين من حرج » (الحج ٨٧)؛ « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً »لذلك « أن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم » (نساء ٢٧ و٣٠) فالطيبات التي تهرب منها المسيحية في سبيل الله، وقد حُرمت على اليهود تحريماً أمست من اختصاص أمّة محمد: « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلّت لهم » (نساء ١٥٩) لذلك فهو يطلب: « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أَحلّ الله لكم » (مائدة ٩٠) كما يفعل النصارى ورهبان عيسى.

وهكذا ففي القرآن دعوة إلى ملك الأرض، ودعوة إلى ملكوت السماء؛ دعوة إلى الدين ودعوة إلى الدولة؛ دعوة إلى الاهتمام بشؤون الجسد وتنظيمها، ودعوة إلى الاهتمام بشؤون الروح وتدبّرها؛ دعوة إلى اليوم الآخر ودعوة إلى اليوم الحاضر معاً. لذلك فروحانية القرآن **صوفية حسيّة روحية معاً.** فليس الإسلام ديناً يدعو إلى الاستغراق في ملذات الدنيا دون النظر إلى سموّ في الروح؛ وليس ديناً ماديّاً لا روحانية فيه. فهذا ظلم ينكره القرآن: ففيه أيضاً نظرة صوفية شاملة: « يسبح له كل من في السماوات والأرض: كلٌ علم تسبيحه وصلاته » (آخر النور)، « يسجد لله من في السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب » (حج ١٨)؛ وفيه دعوة إلى مواقف تصفو فيها النفس من شؤون وشجون الجسد والدولة والحياة الدنيا: « واذكروا الله عند المسجد الحرام، وقوفاً أو قعوداً على جنب، متفكرين في خلق السماوات والأرض » (بقرة). ولكنهما دعوة وصوفية وسطٌ بين روحانية الإنجيل ومادية التوراة.

فقد أسس القرآن المدني الإسلام « أمة وسطاً » في عقيدتها وشريعتها وصوفيتها بين الموسوية والمسيحية، وبسبب تشابه البيئتين القرآنية والتوراتية في بدائيّتهما وبداوتهما جاءَ القرآن في تأسيس الأمة الوسط عوداً على بدءٍ، من فوق الإنجيل والحكمة والزبور:

« وقالوا: كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا! ـ بل ملة إبراهيم حنيفاً! ... وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً » (بقرة ١٣٥ و١٤٣) فكان العهد المدني الأول عهد « الأمة الوسط ».

*

* *

بحث ثالث : الإسلام دولة دينية

كان العهد المدني الأول عهد تأسيس « الأمة الوسط ». وكان أيضاً عهد إقامة هذه « الأمة الوسط » دولة دينية. يسير القرآن بالإسلام في العهد المدني في خطين متوازيين: خط تحويل الإسلام الكتابي إلى « أمة وسط » على الحنيفية الكتابية؛ وخط تحويل ذاك « الدين الوسط » إلى دولة دينية.

فمنذ مطلع العهد المدني الأول، القرآني الرابع، يبدأ تحويل الدين إلى دولة، وتأسيس الأمة الوسط دولة دينية. قال الأستاذ عمر فروخ: « لقد كانت الهجرة حدّاً فاصلاً بين عهد كان فيه الإسلام دعوة دينية يحميها نفر قليلون مستضعفون، وبين عهد أصبح الإسلام فيه دولة قوية مرهوبة[1] ».

فالظاهرة **الأولى** العظيمة التي تطالعنا في مطالع القرآن المدني هو تأسيس الإسلام الكتابي « أمة وسطاً » بين الموسوية والمسيحية كما رأينا. وقد برزت هذه الظاهرة الكبرى في اختيار كعبة مكة « قبلة وسطاً » بين قبلة اليهود العرب إلى الغرب، وقبلة النصارى إلى الشرق. بهذه الظاهرة المزدوجة ثم الانفصال عن « الوحدة التامة » التي كانت سائدة في مكة مع أهل الكتاب، واستقلال الإسلام ديناً وسطاً بين الموسوية والمسيحية على الحنيفية الكتابية.

والظاهرة **الثانية** الكبرى منذ مطلع القرآن المدني هي تحويل الدين الإسلامي العام الذي كان سائداً بمكة « أمة واحدة » مع أهل الكتاب، إلى دولة دينية يحميها بالسلاح، ويضع لها نظامها الخاص بتشريعه.

---

(١) العرب والإسلام ص ٤٢ .

بهذه الميزة الجديدة الجوهرية التي حولت الإسلام من دين إلى دولة في نظامه وجهاده، جاء الإسلام والقرآن عوداً على بدء، من فوق الإنجيل والمسيحية، إلى التوراة الموسوية.

فالظاهرة **الثالثة** الكبرى أن القرآن انتقل بذلك من روحانية الإنجيل التي كانت سائدة فيه بمكة، بالاكتفاء بالدعوة لإسلام التوحيد، إلى روحانية التوراة بإنشاء هذا الإسلام دولة دينية. والنبي يصرّح بأنه يعمل بوحي هذه الروحانية التوراتية: ((أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً)) (نساء ٥٣). في المدينة يرى محمد أن الدين دولة وملك عظيم، ويقتفي بذلك آثار آل إبراهيم. قال الجلالان: ((يحسدون النبي ص. على ما آتاه الله من النبوة وكثرة النساء, ويقولون: لو كان نبيّاً! ـ لاشتغل عن النساء! ـ فقد آتينا آل إبراهيم جده، كموسى وداود وسليمان النبوة وملكاً عظيماً: فكان لداود تسعة وتسعون امرأة وكان لسليمان ألف امرأة بين حرّة وسريّة))! لم يعد مثال محمد رهبان عيسى، بل الملوك الأنبياء من بني إسرائيل. فجاء الإسلام في المدينة ((ديناً وسطاً))، وهذا الدين دولة دينية.

*

فالإسلام دولة دينية قومية عربية. ولها في القرآن كل مقومات الدولة.

١) فالإسلام **أمّة مستقلة** متميّزة عن غيرها. أجل إنها ((أمة وسط)) ولكن هذه الأمة الوسط، خير أمة على الأرض: ((كنتم خير أمة أُخرجت للناس)) (آل عمران ١١٠). ولتمام الاستقلال فهي منفصلة عن غيرها: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم)) (آل عمران ١١٨). ويقطع كل علاقة وموالاة لهذه الأمة مع أولياء الأمس من أهل الكتاب: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين)) (مائدة ٦٠). يجب أن تكون أمة مغلقة على ذاتها.

٢) وهذه الأمة **ذات حكم إلهي**: شريعة القرآن دستورها، وهو دستور ديني قومي معاً، ينظم جميع أمور الحياة بحكم الله: ((إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله)) (نساء ١٠٥). قال دروزة: ((**أما الدولة الإلهية الإسلامية** فتشتمل على التشريع الديني والمدني الذي جاءَ به القرآن[1])). والله هو الحاكم وما الرسول سوى خليفة

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٢٠.

له في الأرض، لذلك يقرن طاعته بطاعة الله: « أطيعوا الله والرسول » (أنفال ٤٦ مائدة ٩٥): « من يطع الرسول فقد أطاع الله (نساء ٨٩). وكل أمر يجب أن يردوه إلى الرسول والله (آل عمران ٥٨). ولا يصح إيمانهم إلا إذا حكَّموا الرسول فيما شجر بينهم، « ثم لا يجدوا حرجاً مما قضيت ويُسلِّموا تسليماً » (نساء ٦٥). في هذا الحكم الإلهي الثيوقراطي لا مجال للديموقراطية والشورى. فإذا نصح بالشورى « وأمرهم شورى بينهم » أو أشرك في الأمر بعض الزعماء « أولي الأمر منكم » فإنما ذلك من حسن السياسة لا من فرض حكم الشورى أو الحكم الديموقراطي على المسلمين. فطريقة النبي التي سار عليها الخلفاء من بعده تظهر بأن القرآن والنبي لم يوصيا بأي حكم ديموقراطي. ولم يكن لهم في الشرق مثال ديموقراطي به يقتدون.

٣) وهذه الأمة الممتازة، ذات الحكومة الإلهية لها **قوة عسكرية** تحميها بالجهاد الدفاعي والهجومي. فالجهاد قَدَر مقدور عليها: « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ». وانتقل النبي إلى الرفيق الأعلى وهو يقول « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (بقرة ٣٨).

٤) ولهذه الدولة **بيت مال** يؤمن سير الأمة الاقتصادي، ويؤمّن خصوصاً جيش الجهاد وتمويله. وكما لا تخلو سورة مدنية من التحريض على الجهاد بالنفس، فلا تخلو أيضاً سورة منها من الدعوة إلى البذل والإنفاق والجهاد بالمال. وقد يقدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس.

*

تلك مقومات الدولة الإسلامية في القرآن؛ **وهذه بعض صفاتها:**

١) من دعائم دولة الإسلام **الشورى**: « وأمرهم شورى بينهم » (سورة الشورى ٣٨). فاستخلص بعضهم أن نظام الحكم في الإسلام هو حكم الشورى أو الديموقراطية. وأيدوا ذلك بالأمر للنبي: « وشاورهم في الأمر » (نساء ٨٣ آل عمران ١٥٩). ولكن ليست المشاورة في الأمر إشراك في الحكم. أجل قال « أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم »: أولياء أمر المسلمين يشتركون في إدارة الأمة ولكن لا يعود إليهم حكمُها الأخير، بل الرسول هو الحاكم بأمر الله وحده، وحكمه مطلق لا مردّ له: « ولا يجدوا حرجاً مما قضيت، ويسلِّموا تسليماً » (نساء ٦٥). فالقرآن وتاريخ الخلفاء لا يعرفان حكم

الشورى ولا نظام الديمقراطية. جاء في مجلة (لواء الإسلام[1]): ((قد يلتقي الإسلام مع الديمقراطية في مبدإِ الشورى، وقد يلتقي معها أيضاً في الحرية التي تهدف إليها؛ ولكننا نظلم الإسلام، ونسيء إليه إذا قلنا إنه دين ديمقراطي. إن الديمقراطية حكمُ الشعب بالشعب لصالح الشعب؛ أما الإسلام فهو حكمُ الله. قال تعالى: ((ومَن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون))؛ وقال ((وإن تطع أكثر مَن الأرض يضلّوك عن سبيل الله)). فإذا كانت الديمقراطية هي حكم الشعب، أو بمعنى آخر هي إرادة الشعب، فإن المسلمين قد ارتضوا حكم الله)). وفيها: ((الشورى دعامة قوية من دعائم الحكم في الإسلام قرّرها القرآن. ولكن ما نظام الشورى التي شرعها الإسلام؟ ـ لم يحدّد الإسلام لها نظاماً معيناً وصورة خاصة. ومن هنا اختلفت تطبيقاتُها في الصدر الأول من حياة الأمة الإسلامية ... فالإسلام لم يفرض الديمقراطية نظاماً ولا الشورى نظاماً)).

٢) ومن دعائم دولة الإسلام **العدالة في الحكم**: ((وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)). وتبلغ هذه العدالة المفروضة أقصى مداها: ((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط، شهداء لله، ولو على أنفسكم والوالدين والأقربين؛ إن يكن غنيّاً أو فقيراً، فلا تتبعوا الهوى أن تقولوا، وإن تلووا وتعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)) (نساء ١٣٤). ولا تمنعهم عداوة، أو زعامة عن إقامة العدل: ((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله، شهداء بالقسط؛ ولا يجرمنّكم شنئان قوم على ألاّ تعدلوا: اعدلوا هو أقرب إلى التقوى)) (مائدة ٩). ولكن هذه العدالة **المثالية** محصورة في المسلمين دون سواهم. فقد نقض القرآن العهود مع المشركين: ((براءَة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين)) (براءة ١). وفرض على الكتابيين الجزية (توبة ٣٠) وهي غير الزكاة، ولها من الذل ما ليس في زكاة المسلمين ولو كان الجميع مواطنين في أمة واحدة. ويظهر البون الشاسع في قولهم: ((لا يقتل مسلم بكافر))! والولاية بين المواطنين محظورة بين المسلمين: ((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)) (توبة ٧٢) محظورة مع الكتابيين: ((يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا النصارى واليهود أولياء، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين)) (مائدة ٥٤).

---

(١) لواء الإسلام صفر ١٣٨٠ يوليه ١٩٦٠ : ندوة لواء الإسلام ص ٣٨٤ مقالة الأستاذ عبد الرحيم فوده ثم الأستاذ زكريا البرّي .

٣) ومن دعائم دولة الإسلام **المساواة بين الناس**: « يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا: إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (حجرات ١٧). وهذه المساواة بين المسلمين تبلغ درجة الأخوة، ولكنها محصورة بين المسلمين: « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » (حجرات ١٠)، محظورة على غيرهم: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين: أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً »؟ (نساء ١٤٣). قال دروزة[1]: « هذه الآيات (آل عمران ١١٨ نساء ١٤٣ مائدة ٥٥ ـ ٥٧ أنفال ٧٢ ـ ٧٣ توبة ٢٣ و٧٢ مجادلة ٢٢ ممتحنة ١ و٨ ـ ٩) التي تأمر بالولاء بين المسلمين هي مما يتصل بالحث على الأخوة الإسلامية وتبادل الولاء بين المسلمين **دون سواهم** ».

٤) من دعائم دولة الإسلام **الحريّة بين الناس**. وهي حريّة الإخوّة والمساواة؛ ولكنها محصورة بين المسلمين (مائدة ٥٤ ـ ٥٦). فليس المسلم حراً في دينه؛ لأن « مَن يرتد يمتْ وهو كافر ». وليس المسلم حرّاً في أن يتخذ غير سبيل المسلمين الموالين: « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضُهم أولياء بعض؛ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يُهاجروا » (أنفال ٧٢). لذلك فالجرم الأكبر في الإسلام هو الشرك: « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (نساء ٤٧). وهو يحكم بالإعدام الدنيوي والأبدي لمن يتخذ غير سبيل المؤمنين: « ومَن يشاقق الرسول من بعد ما تبيّن له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونصله جهنم وساءَت مصيراً » (نساء ١١٤).

*

فالإسلام، في كيانه دولة دينية. لذلك فإن الدعوة التي يقوم بها بعضهم لفصل الدين عن الدولة، وبالتالي إلى « عَلْمنة الدولة » ـ متأثرين بالمسيحية حيث يميّز الإنجيل بين حق الله وحق قيصر لا تصدق في العالم الإسلامي لأن الإسلام دولة دينية، يحكمها دستور القرآن في الحياة القومية والدينية والسياسية والاجتماعية والحربية.

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٣٥٢ .

وهذا المزج في الحياة الدينية والمدنية، الروحية والعسكرية، حيث يعيش المسلم ما بين الصلاة والجهاد، يشبع رغبات الروح وضرورات الجسد، ويقرن شؤون الدين إلى شؤون الدولة، وشجون الدنيا إلى أمور الآخرة، تصبغ الحياة الإسلامية بصبغة فذّة تميّزها عن العالمين: ((يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على **تجارة** تنجيكم من عذاب أليم: تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن: ذلك الفوز العظيم. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب: وبشر المؤمنين)) (ص ١٠ ـ ١٢).

*
* *

بحث رابع : بالجهاد المتواصل لحماية الأمة والدولة

ميزة العهد المدني الكبرى، التي تميّزه عن العهد المكي، أنه عهد الجهاد والقتال المتواصل في سبيل حماية الدين والدولة أولاً، وثانياً في سبيل فرض دولة الإسلام على الحجاز والجزيرة.

أولاً : **تشريع الجهاد والدعوة إليه**

تملأ الدعوة إلى الجهاد القرآن المدني كله، ويُشغل الجهاد السيرة النبوية كلها. قال دروزة[1]: ((بناء على هذا فإنه يصح أن يقرّر أن جميع الآيات القرآنية الواردة في الجهاد تشريعاً ودعوة ووقائع هي مدنية؛ وهذا طبيعي فإن المسلمين قبل الهجرة لم يكونوا من حيث العدد والقوة في الموقف الذي يساعدهم على قتال حتى لدفع الظلم والأذى ... فلما تمت الهجرة تبدل الموقف، وحينئذٍ كانت الخطوات الجدية إلى مقابلة مشركي مكة على ما كان منهم من ظلم وبغي)).

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٢١٧ ـ ٢١٨ ثم ٢٢٠ .

« والآيات القرآنية في موضوع الجهاد قد شغلت من حيث كثرتها حيزاً كبيراً يكاد يبلغ **نصف القرآن المدني.** وفي هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية في العهد المدني أو أهمها ... ويكفيك أن تعلم مثلاً أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ **خمساً وستين،** قاد النبي ص. منها بنفسه سبعاً وعشرين، وكل ذلك في نحو عشر سنين ـ لتقدر خطورة الدور الذي كان للجهاد في هذا العهد وتفهم حكمة ما شغل موضوعه ذلك الحيّز الكبير من القرآن ».

وجاءَت الآيات القرآنية في الجهاد فئتين: قسمٌ تحريض على القتال وقسمٌ تبريرٌ للقتال وحوادثه. «ومن الجدير بالتنبيه أن آيات النوع الثاني قد نزلت بعد الوقائع، مما يُسوّغ القول إن الوقائع قد كانت **بأمر النبي ص. ورأيه، وبدون وحي قرآني** ـ كما هو شأن أكثر أحداث السيرة النبوية ـ وإنما جاءَت مؤيدة لكل ما صدر من النبي تقريباً، بمثابة تعقيبات عليها[1]».

والجهاد في القرآن ليس ضرورة عابرة، بل هو من صميم الإسلام، إذ لا دولة بلا حرب في هذه الدنيا. والجهاد ركن من أركان الإسلام مثل الصوم: كما يقول عن الصوم «كُتب عليكم الصيام » (بقرة ١٨٢) يقول عن الجهاد: «كُتب عليكم القتال، وهو كره لكم » (بقرة ٢١٦). «بذلك توطّد الجهاد في الإسلام كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعو الحاجة إليه وقعوا في الإثم ضمن المبادئ العامة التي وضعت له[2]».

والجهاد على نوعين، جهاد بالنفس، وجهاد بالمال. والقرآن في كل سورة يدعو معاً إلى القتال وإلى الإنفاق في سبيله: « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ... وأنفقوا في سبيل الله، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » (بقرة ١٩١ و١٩٥). فالإنفاق في الجهاد قرض لله: « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم. مَن ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » (بقرة ٢٤٤ ـ ٢٤٥). والجهاد بالنفس والمال يجمع بين المسلمين: « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا، أولئك بعضهم أولياء بعض » (أنفال ٧٢). والإنفاق في الجهاد من

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٢٢١ .
(٢) سيرة الرسول ٢ : ٢٢٢ .

الإيمان: « إن المصدّقين والمصدقات، واقرضوا الله قرضاً حسناً يُضاعف لهم، ولهم أجر كريم؛ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم، لهم أجرهم ونورهم » (حديد ١٨ ـ ١٩).

*

ثانياً : **غاية الجهاد إخضاع العرب لدولة الإسلام**

وهدف الجهاد فرض الإسلام ديناً ودولة على الحجاز ثم على الجزيرة. مع سورة البقرة انتهت الخطة المكية للدعوة إلى الإسلام « بالحكمة والموعظة الحسنة » أن « لا إكراه في الدين » (بقرة ٢٥٦). ومنذئذٍ بدأ الجهاد لإكراه قريش والعرب على الإسلام بالقوة. يقول محمد صبيح[1]: « وكانت مهمة النبي، وهو يهاجر، واضحة: هي أن يكره قريشاً على الإسلام بحد السيف، بعد أن بذل لها النصح ثلاثة عشر عاماً فلم تزدْ إلا عتوّاً »! فلم يكن الجهاد للدفاع عن الإسلام فقط؛ بل كان أيضاً للهجوم لفرض الإسلام. أجل كان في العهد الأول المدني دفاعاً عن الكيان الإسلامي؛ ولكن في العهد المدني الثاني سيكون هجوماً على كل الجبهات لفرض الإسلام ديناً ودولة على الحجاز ثم على الجزيرة.

لذلك جاءَت فريضة الجهاد شريعة لا هوادة فيها ولا رحمة. يصرّح مراراً « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ويمنع من قتال الذين لم يقاتلوهم. ولكن هذا لا يحجب الصورة العامة من ضرورة القتال لفرض الإسلام على العرب: « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله ».

استكرهوا الشريعة لمّا فرضت عليهم: « كُتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » (بقرة ٢١٦) فكان القتال خيراً في فرض دولة الإسلام على الحجاز والجزيرة. وتعلّلوا بتأخير هذه الفريضة: « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشدّ خشيةً! وقالوا: ربنا لِمَ كتبتَ علينا القتال؟ لولا أخّرتنا إلى أجل قريب »؟ (نساء ٧٧) فكان نظر النبي أثقب من نظرهم إذ لولا الجهاد لاقتصر الإسلام على المسلمين من المدينة.

---

(١) عن القرآن ص ٦٢ .

في الجهاد القرآني صورة تعلو كل المشاهد، وتخلّد بخلود القرآن: نبيٌّ يقاتل عشيرته وقومه ليفرض عليهم دينه بالسيف فرضاً! ... فلا محاباة في سبيل الله.

ومن صور الجهاد الحالكة أنه قد يكون ضد الأهل والآباء والإخوان: « يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا آباءَكم وأخوانكم أولياء، إن استحبوا الكفر على الإيمان: ومن يتولـَّهم منكم فأولئك هم الظالمون! قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترضتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله، وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. والله لا يهدي القوم الفاسقين » (توبة ٢٣ ـ ٢٤) قال دروزة معقباً[1]: « إن الآيات نزلت قبيل الفتح المكي. وهي تدلنا على أن بعض المسلمين المهاجرين كانوا يقاسون أزمات نفسية في اضطرارهم إلى الوقوف من ذوي قرباهم موقف العداء، وأن بعضهم كان رغم إخلاصه لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستشعار لصلة الرحم مع ما في ذلك من ضرر للمصلحة العامة وإن بعضهم كان يفعل ذلك محافظة على ماله من مصالح مادية في مكة. ولعل هذا مما يفسّر لنا سبب شدة الآيات ليكون الأمر محسوماً ومأمون الخطر ».

*

ثالثاً : **السياسة والدين**

الإسلام دولة دينية، وقد تقتضي سياسة الدولة ما لا يقتضيه الدين. وهذا ما يبرّر قساوة الموقف السابق. وقد عرضت للنبي مشكلة ضمير نبوية بعد نصر بدر: أيجوز للنبي أن يكون له أسرى؟ تردّد: «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض» (أنفال ٦٧) وانتصرت الصحابة على تردّد النبي بزعامة عمر بن الخطاب فنزل: « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم: فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً » (أنفال ٦٨). وهذا ما يبرر أيضاً الاغتيالات السياسية التي تذكرها السيرة النبوية: بعد بدر قتل من الأسرى النضر وعتبة؛ بعد أُحُد قتل أَسيرين أَبا عزّة ومعاوية بن المغيرة[2]؛ وأرسل النبي عمر بن عدي إلى عصماء بنت مروان وأمره بقتلها لأنها آذنة ففعل[3]؛ وأرسل سالم بن عمير

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٢٤٩ .
(٢) السيرة لابن هشام ٣ : ١١٠ .
(٣) السيرة ٤ : ٢٨٥ .

إلى أبي عفك اليهودي ليغتاله لأنه هجا النبي، وكان بلغ من العمر ١٢٠ سنة؛ ففعل؛ وأرسل إلى كعب بن الأشرف حليف الخزرج، خمسة نفر من الأوس، منهم أبو نائلة أَخو كعب بالرضاعة، ليغتالوه بسبب مؤامرته في غزوة الخندق، ففعلوا؛ وأرسل إلى سلام بن أبي الحقيق، حليف الأوس، ستة نفر من الخزرج ليقتلوه لأنه كان أيضاً ممّن حزبوا الأحزاب على المدينة، ففعلوا. ولما قُتل عمه حمزة في غزوة أُحد، أقسم في غضبه أن يمثّل بسبعين من قريش. ولمّا غدر العرنيّون براعيه وإبله طاردهم ومثّل بمن قتل منهم شرّ تمثيل. كذا تقتضي سياسة الدولة، كما يقول الحديث الشريف: « اشتدّ غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله ».

وقد تقتضي سياسة الدولة استباحة المحرّمات. فاستباح الشهر الحرام، لأن الفتنة أشد من القتل (بقرة ٢١٦ ـ ٢١٧)، واستباح القتال عند المسجد الحرام لأن الفتنة أشد من القتل (بقرة ١٩٠ ـ ١٩٥)؛ واستباح شريعة القرآن في عدد الزوجات الأربع لأن مصلحة الدين والدولة اقتضت ذلك؛ واستباح آخر الأمر البراءَة من عهود المشركين لأن مصلحة الإسلام تقضي بإخضاعهم للإسلام (براءة ١ ـ ٣).

والصورة الأخيرة من صور الجهاد أن الله اشترى واستعبد المسلمين بالجنة في سبيل الله: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة: يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون، وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله: فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم » (توبة ١١٠).

*

رابعاً : **الله هو إله الجهاد في القرآن**

والدعوة المتواصلة في القرآن المدني، باسم الله، للجهاد المتواصل، تعطي إله القرآن صورة إله الحرب، كما في التوراة.

كان القرآن المكي يدعو إلى سبيل الله « باسم الرحمان الرحيم »، وفي القرآن المدني يتوارى هذا الوصف الإلهي الكريم، فلا ذكر له في التنزيل والسيرة، فقد تبدَّل التنزيل والسيرة، وصار الرحمان الرحيم إله الجهاد والغزو والقتال؛ وصار رب العالمين عدو الكافرين: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءَكم من الحق » (الممتحنة ١).

وصار الله رئيس حزب، والمسلمون هم حزب رب العالمين من دون العالمين: « رضي الله عنهم ورضوا عنه: أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون » (مجادلة ٢٢) وحزب الله هم الذين يتبعون الرسول ويطيعونه دون سواه: « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادّونَ مَن حادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (مجادلة ٢٢). والله ولي حزبه: « إنما وليكم الله ورسوله. ومَن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » (مائدة ٥٥ ـ ٥٦).

والحرب في عرف العرب « خدعة » فصار الله يكيد للكافرين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون: « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين (أعراف ١٨٣) ويمعن الله في الكيد بغير المسلمين حتى المكر ـ والمكر كيد ودسٌ ودسائس ـ حتى صار الله خير الماكرين: « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » (أنفال ٣٠).

من هذا المكر الإلهي في الجهاد استباقُ الخيانة: « فإمّا تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (أنفال ٥٨) والدفاع عن المؤمنين المحاربين (حج ٣٨). فالله يحارب مع النبي (أنفال ٦٤) ويرسل ملائكته يقاتلون مع المسلمين جنوداً لا يرونها (أنفال ٥١ آل عمران ١٢٤ ـ ١٢٥) يمدهم طوراً بألف من الملائكة مردفين (أنفال ٩) وطوراً بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين (آل عمران ١٢٤) وطوراً بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين (آل عمران ١٢٥). والله يحتال على المشركين بواسطة الشيطان «وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما تراءَت الفئتان نكص على عقبيه » (أنفال ٤٩)؛ ويحتال على النبي ليقويه «يريكهم الله في منامك قليلاً » وعلى المسلمين ليشد أزرهم: « وإذ يريكموهم في أعينكم قليلاً، ويقلّلكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » (أنفال ٤٤ ـ ٤٥). ويستغل الله عناصر الطبيعة لمحالفة المسلمين: « إذ يغشاكم النعاس أمنة منه، وينزّل عليكم من السماء ماءً ليطهّركم به » (أنفال ٥). ويحرّض الله على القتال المجاهدين فيعدهم بالغفران والجنة مهما كانت حالهم قبل الجهاد، وسلوكهم في الجهاد: «فالذين هاجروا وقاتلوا وقتلوا لأكفرنّ عنهم سيئاتم، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (آل عمران ١٩٥) فالمجاهدون « أولئك هم المؤمنون حقاً، لهم مغفرة ورزق كريم » (أنفال ٧٤). والله يفضل المجاهدين على المسلمين القاعدين (نساء ٩٥). فإن

بين الله والمسلمين عقد شراء ومبايعة على القتال: منهم الجهاد، ومنه الجنة: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة: يقاتلون في سبيل الله، فيقتلون ويُقتلون ... وذلك هو الفوز العظيم» (توبة ١١١) تلك صورة الرحمان الرحيم، رب العالمين، في المدينة: إله الرحمة ساعة الرحمة، وإله النقمة ساعة النقمة.

*

خامساً : **هل من معجزة في « الغيبيّات » القرآنية، وبعض أحداث السيرة؟**

نختم هذا البحث **بمعجزة « الغيبيّات »، ومعجزة بعض الأحداث الخارقة** التي يجدها بعض المفسرين في بعض آيات القرآن، أو يذكرها أصحاب السير في سيرتهم. ننقل ما يقوله الأستاذ دروزة في عرضها ونقضها:

« إن في القرآن تأييدات ربانية للنبي ص والمسلمين في بعض المواقف والأزمات، وخاصة في أثناء الجهاد، كما أن فيه ما يدل على أن النبي ص. قد اطلع على بعض الأمور المغيبة، مما عدّ في عداد المعجزات النبوية.

« إن في كتب السيرة والحديث والشمائل روايات كثيرة من معجزات نبوية، منها ما روي أنه وقع في مكة جواباً على تحدّي الكفار، (ومنه ما وقع في المدينة).

غير أننا في الحق نرى الموقف السلبي الذي تمثله آيات القرآن عاماً قويّاً من الصعب أن ينقضه ذلك ...

أما التأييدات والإلهامات الربانية للنبي ص. والمسلمين التي تضمنت أخبارها آيات قرآنية عدة مثل آيات سور الأنفال هذه: « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّي ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم » (٩ ـ ١٣)؛ ومثل الذي جاء في سورة الأحزاب: « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءَتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً، وجنودٌ لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً » (٩)؛ ومثل الذي جاء في سورة التحريم: «وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبّأتْ به، وأظهره الله عليه، عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبّأها به قالت مَن أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير » (٣).

فإنها كما هو ظاهر من نصوصها وروحها لا تدخل في عداد معجزات التحدي، وبالتالي فإنه ليس من شأنها نقض الموقف السلبي العام الذي تمثله الآيات القرآنية.

بقيت المعجزات المروية، وخاصة التي يقال إنها وقعت في مكة بناء على تحدّي الكفار: نعتقد أننا على صواب إذا قلنا أن سكوت القرآن عنها، مع كثرة تحدّي الكفار، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب، لا يمكن أن يشجع على التسليم بصحتها. هذا إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة؛ وكثير منها إن لم نقل أكثرها لم ترد في المدونات القديمة. إلى ما فيها من تخالف كبير في الوقت نفسه[1] ».

*

* *

بحث خامس : العهد المدني هو عهد التشريع في القرآن

يقول الكثيرون ليست ميزة القرآن في توحيده ـ إذ عقيدة التوحيد واحدة في جوهرها ما بين التوراة والإنجيل والقرآن، وفي التوحيد « من قبله كتاب موسى إماماً » ـ بل ميزة القرآن في تشريعه.

والعهد المدني هو عهد التشريع في القرآن: « لم يكن بمكة حدٌّ ولا نحوه، وكل سورة فيها حد أو فريضة فهي مدنية[2] ». في المدينة يتم تحويل الدين إلى دولة دينية، فكان لا بدّ لهذه الدولة الدينية الناشئة من جهاد يحميها من الخارج؛ ولا بد لها أيضاً من نظام يدبّرها من داخل. ونظام الدولة الإسلامية هو شريعة القرآن.

*

أولاً : **ظواهر التشريع القرآني الذاتية**

فهل نزلت الشريعة في القرآن مبتدِئة بصيغة دستور يُعلن ويبلّغ وتسير الدعوة القرآنية والسيرة النبوية على هديه كما جرى في التوراة في « الكلمات العشر » على سيناء، وفي الإنجيل في خطاب السيد المسيح الأول التأسيسي على الجبل؟ (متى ٥ ـ ٨).

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢٢٧ و٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٢) السيوطي : الإتقان ١ : ١٨ .

١) **نزل التشريع القرآني بحسب الطوارئ اليومية.** قال محمد صبيح[١]: « أورد كتاب تاريخ التشريع: كانت الآيات التشريعية، وهي آيات الأحكام تنزل على رسول الله ص. في الغالب **جواباً لحوادث** في المجتمع الإسلامي، وتعرف هذه الحوادث (بأسباب النزول). وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين، وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن. وأحياناً كانت تنزل الآيات **جواباً عن أسئلة** يسألها بعض المؤمنين. **وقليلاً** ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة. أمّا الأحكام التي أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة؛ وقلما ترى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه ».

وهكذا يظهر أن التشريع القرآني كان ابن ساعته، وابن بيئته، ينزل بحسب ظروف الزمان والمكان، والأحوال والأشخاص. وتشريع وليد الطوارئ اليومية والحوادث الشخصية ليس « **بالدستور** » الذي ينزل مبتدئاً لذاته يُعلن ويُبلَّغ ويجري أهله على هداه. ونرى في التوراة أن دستور الكلمات العشر نزل على موسى في سيناء دون اعتبار الأحوال والأشخاص. ونرى في الإنجيل أن خطاب السيد المسيح الأول التأسيسي (متى : ٥ ـ ٧) في تعديل شريعة سيناء وتطويرها، وتجديد أركان الدين وتكميلها نزل دستوراً مبتدئاً لذاته فوق ظروف الزمان والمكان، لا جواباً على سؤال ولا جواباً لحادث.

*

٢) **والتشريع القرآني ظل يتطوّر** طيلة العهد بالمدينة، وحال موت الرسول الفجائي دون إكماله فأكملته السنة. ونلمس هذا التطور في أركان الإسلام. قال الأستاذ دروزة[٢]: « إن جلّ الآيات والفصول التشريعية إن لم نقل كلها قد نزلت إجابة على أسئلة واستفتاءات أو بمناسبة حوادث ووقائع وظروف متّصلة بالسيرة النبوية ومواقف وتصرفات المسلمين وغير المسلمين في أثنائها: فكانت من جهة حلاّ لمشاكل وشئون ومسائل **واقعية**، ومن جهة تشريعاً مستمر الحكم والتلقين والمدى. **وفي التشريع القرآني بعض التطورات:** نعني أن هناك أحكاماً أو أوامر ونواهي أبكر من أحكام وأوامر ونواهي، وإن من المتأخر ما جاء **ناسخاً أو معدلاً** للمتقدم على حسب ما اقتضته الحكمة من مراعاة الظروف أو التطابق معها سلباً وإيجاباً، وتخفيفاً وتشديداً وضيقاً وسعة ».

---

(١) عن القرآن ص ٧٥ .
(٢) سيرة الرسول ٢ : ٣٠٦ الخ .

وقال عن الصلاة: « إذا استثنينا صلاتي الجمعة والخوف، والطهارة والقبلة المتصلتين بالصلاة، فإننا لا نجد في القرآن المدني تشريعاً للصلاة. هذا مع التنبيه إلى أنه لم يرد في القرآن مكيِّهِ ومدنيِّهِ تحديد لكيفية الصلاة، وعدد ركعاتها، وأوقاتها، وكل ما ذكر فيه حالات القيام والركوع والسجود. فالصلاة والحالة هذه قد فرضت أوقات وكيفيات، بالعمل والتعليم النبوي. ولا نستبعد، إن لم نقل نرجح، أن يكون هذا قد جرى على مراحل وليس دفعة واحدة. وليس في القرآن تشريع للأذان، وكل ما فيه إشارة إلى أن المسلمين كانوا ينادون للصلاة (مائدة ٥٨ جمعة ٩).

وقال عن الصوم: « هناك روايات تذكر أن النبي ص. قد صام عاشوراء، وحض على صيامه قبل نزول آيات فرض صيام رمضان (بقرة ١٨٣ ـ ١٨٧). ولقد قال بعض العلماء والمفسرين بوجود ناسخ ومنسوخ في آيات الصوم، إذ استدلّوا من الآية الثانية على أن الصيام فرض في أول الأمر بصورة عامة، وبدون تحديد شهر كامل، مع تخيير المسلمين القادرين عليه بين الصيام والفداء عنه بإطعام مسكين عن كل يوم. ثم أُكدت الفريضة بالآية (١٨٥) إذ جعلت كامل شهر رمضان، وحتّم صيامه على غير المريض والمسافر، ونسخ التخيير بين الصوم والفداء بالنسبة للقادرين. وفي هذا مظهر من مظاهر التطور. والآية الأخيرة (١٨٧) تدل على أن المسلمين وقعوا في شيء من الحرج أو الإثم في صدد قرب نسائهم في ليالي الصوم، وبعض العلماء يقولون إنها ناسخة لأمر كان يعتبره المسلمون واجباً (عدم الجماع ليلة الصوم) فخفف الله عنهم حينما ظهر الحرج.

وقال عن الحج: « إن تشريع الحج (حج ٢٥ ـ ٣٧) تشريع مدني (بقرة ١٥٨ و١٨٩ و١٩٦ ـ ٢٠٣ ثم آل عمران ٩٦ ـ ٩٧ مع المائدة ١ ـ ٢ و٩٤ ـ ٩٧). وجل المناسك والطقوس التي أشارت إليها الآيات وشرعتها ـ إن لم نقل كلها ـ قد أُقرَّ على ما كان عليه قبل البعثة بعد تهذيبه من المناظر القبيحة وتجريده من شوائب الشرك والوثنية. وفي الآيات صور واقعية وخطوات تطورية. يفهم من آية البقرة (١٥٨) أن المسلمين قد تحرّجوا من الطواف بالصفا والمروة جرياً على تقليد الجاهلية فأقرّ هذا الطواف وأعلن أنه من شعائر الله. ويفهم من آية البقرة (١٩٨) أن المسلمين تحرجوا من الاشتغال بالتجارة في أثناء أشهر الحج ـ وقد كان العرب يقيمون الأسواق التجارية في هذه الأثناء ـ فأباحت الآية لهم ذلك. ويفهم من آيات المائدة (٩٤ ـ ٩٧) أن العرب كانوا يحرمون

صيد البرّ والبحر معاً في أشهر الحج المحرّمة، فأباحت صيد البحر للتخفيف عن الناس، كما أنها جعلت حالة التحريم مقصورة على وقت الإحرام الذي حدّدته السنة بلبس الثياب غير المخيطة حين دخول المسلم منطقة الحرم. ويفهم من آيات الحج (٢٥ ـ ٣٥) أن العرب كانوا يتحرجون من أكل لحوم قرابينهم. فأباحت لأصحابها الأكل منها وإطعام غيرهم وخاصة الفقراء ».

ومبدأ الزكاة متواتر عن أهل الكتاب، وقد ورد في مكة: «وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » (ذاريات ١٩ معارج ٢٥). إنما كان ذلك في مكة دعوة، وهو في المدينة أمر وإيجاب. وقال دروزة: « دخلت الزكاة في العهد المدني في طور رسمي وأصبحت في جملة ما يدخل جبايته في صلاحية السلطان الإسلامي الذي كان يتمثل في شخص النبي ص. والصورة التطورية في أمر الزكاة ورسمية جبايتها وصرفها واضحة بالنسبة للعهدين. وليس في القرآن تعيين لمقادير الزكاة. وقد تكفلت بذلك السنة النبوية **شأن كثير من الحدود والقواعد**[1] ».

وقال أيضاً: « ونريد أن نستطرد إلى الحد الإسلامي على شارب الخمر فنقول: إن هذا الحد ليس قرآنيّاً وإنما هو سنة نبوية وراشدية على اختلاف في الرواية عن كيفية إقامة الحد ومداه. وكل ما في القرآن نهي حاسم عن الخمر في أواخر العهد المدني وبعد تدرج فيه انطوى على صور من العهدين المكي (نحل ٦٤) والمدني (البقرة ٢١٩ ثم النساء ٤٣ ثم المائدة ٩٠ ـ ٩٢). والوعد بمتعة خمر الجنة ومجالسها ورائحتها ولونها ومزاجها وطعمها ولذتها قد تكرّر ».

وقال أخيراً عن بعض الحدود: «وآيات النساء (١٣ ـ ١٦) لا تنص على حدٍ للزنا، وكل ما أوجبْتُهُ على المرأة الحبس في البيوت، وعلى الرجل أذى أي ضرباً غير مبرّح. ثم جاءَت آيات النور (٢ ـ ١٠) فعنيت حد الزنا (مائة جلدة) وأضافت إلى جريمته جريمة القذف وعينت حداً للقاذف. وآية السرقة نزلت بسبب تساؤل عن حد السرقة العادية، أو حادث سرقة عادية اقتضت الحكمة تشريعاً خاصاً لها يعالج به الموقف ويكون تشريعاً مستمر المدى أيضاً. ولقد اكتفت الآيات المكية بتقبيح الزنا والنهي عنه، وفعلت مثل ذلك بالنسبة للقتل والفساد في الأرض. ولم تذكر السرقة البتة. فجاءَت الآيات المدنية

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

المعينة لتشرع القصاص في القتل (بقرة ١٧٨ ـ ١٧٩) والحد في الزنا والسرقة والقذف، ولتضع أحكاماً في القتل الخطأ (نساء ٩٢) وعقوبات زاجرة للمفسدين والمرجفين، والمتعرّضين لأعراض الناس وأموالهم: وفي هذا كله صورة تطورية للعهدين مستمدة من طبيعتهما[1] ».

وهكذا فالتشريع القرآني تطوّري. وكان هذا التطور في مدى عشر سنوات.

وقد طرأ على تطور التشريع في العهد المدني التعديل والنسخ كما تجده مفصلاً في كتب (الناسخ والمنسوخ). وهذان التعديل والنسخ وقعا على تشريع لم يتجاوز العشرة من الأعوام. وقد يأتي النسخ للحال أو بعد أيام أو بعد شهور. أجل لقد جرى في الإنجيل والتوراة تطوّر ولكنه كان تطوراً لشريعة تأسيسية اكتملت من دون تعديل أو نسخ في الأحكام.

ليست هذه الظواهر الثلاث من صفات الدستور الذي ينزل مبْتدئاً فيُعلن ويُبلّغ ويعمل به كما كان الأمر في الإنجيل مثلاً.

*

ثانياً : **ظواهر التشريع القرآني الخارجية**

١) السنة مصدر ثان للتشريع الإسلامي. التشريع القرآني أحكام عامة أكثر منها قوانين محدودة إلا فيما ندر، كحد الزنا وحد السرقة وحد القتل عمداً أو خطأً، وتفصيل الميراث (نساء ١١ ـ ١٢). وقد تكفّلت السنة النبوية بتحديد الحدود « شأن كثير من الحدود والقواعد » كما يقول دروزة. ولذلك جعلوا السنة المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ـ وقد غالى بعضهم في ذلك فقال **بنسخ القرآن بالسنة** في بعض الأحيان. وفي هذا القول ما فيه من عضاضة.

والحديث النبوي الذي ينقل سُنة الرسول كمصدر ثان للتشريع الإسلامي، هو عند أهل السنة أنفسهم مشبوه جملة وتفصيلاً. فالأحاديث الصحيحة قد لا تتعدّى الآحاد أو العشرات. قال حسين هيكل[2] عن الحديث كمصدر للسيرة النبوية: « ومع ما أبداه جامعو

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٣٣٨ .
(٢) في تقديم الطبعة الثانية (لحياة محمد) ص ٥٠ ـ ٥١ .

الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه، فقد جرّح بعض العلماء كثيراً من الأحاديث أثبتها جامعوها على أنها صحيحة)). قال النووي في شرح مسلم: ((قد استدرك جماعة على البخاري ومسلم أحاديث أخلاً بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزماه. وقال ابن خلدون وإنني لا أعتقد صحة سند حديث ولا قول عالم صحابي يخالف ظاهر القرآن وإن وثّقوا رجاله؛ فرب راوٍ يُوَثّق للاغترار بظاهر حاله وهو سيئ الباطن. ولو انتقدت الروايات من جهة فحوى متنها، كما تُنتقد من جهة سندها لقضت المتون على كثير من الأسانيد بالنقض)). وفي الواقع أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حداً دعا الدعاة منهم إلى **اختلاق الألوف المؤلفة من الأحاديث** والروايات. وكذلك كانت الأحاديث والروايات تُلفّق لأغراض سياسية، ولأهواء عاجلة. وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرة راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما في كتاب الله)). فإذا كان هذا التجريح للحديث والتشكيك فيه قد بلغ ذاك المبلغ بالنسبة للسيرة، فكم بالأحرى للتشريع.

وقال محمد عبد الله السمَّان[1]: ((وإذا تركنا كتب السيرة إلى كتب الحديث ألفينا أنفسنا إزاء مشكلة معقدة تجعل الباحث **في حيرة لا تنتهي** ولا تقف عند حدّ. ففي عهد النبي لم يدون الحديث، ولا في عهد الخلفاء الراشدين وذلك خشية أن يختلط الحديث بالقرآن. ولم يكد يتولى الخليفة الثالث عثمان حتى بدأت تتولد الخلافات السياسية؛ وظهر وضع آلاف الأحاديث ونسبتها إلى النبي لتكون مؤيداً لحزب سياسي، أو ناقضاً لحزب آخر. وانتهز اليهود والزنادقة فرصة هذه الخلافات، التي تدثرت بالدماء في معظم الأحايين وراحوا يختلقون الأحاديث ليهدموا بها الإسلام ويشغلوا العامة عن أصوله لتنصرف إلى شكلياته، ـ كما تطوع كثير من السذج والبسطاء فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب ظناً منهم أن في هذا خدمة للدين. ولو عقلوا لأدركوا أنهم أساؤوا إلى الدين أكبر إساءَة ... ولم يبدإ التدوين إلا في عهد المأمون، وذلك بعد أن اختلط الحديث الصحيح في الحديث الكذب، كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، كما يقول الدارقطني، أحد جامعي الحديث المعروفين)).

ولذا قام الخلاف بين السنة والشيعة على صحة الحديث وعلى السنة كمصدر للشريعة. فقالت الشيعة بأن كتاب الله وحده كفيل ببيان أحكام الله؛ ولو كانت السنة تشريعاً

---

(١) في رسالته : محمد الرسول البشر ١٢ ـ ١٣ .

ينقله الحديث كالكتاب لأمر الرسول بتدوينه وحفظه مثل القرآن. ويقول أهل السنة بأن السنة مبينة لأحكام القرآن، ولولاها لما عرف الكثير من القواعد والحدود. وفي كتاب الأستاذ الأكبر، محمود شلتوت، شيخ الجامع الأزهر (الإسلام عقيدة وشريعة) رأي وسط صائب[1]: « على أن فضيلة الأستاذ الأكبر اعتبر أن السنة كما هي تشريع قد تكون غير تشريع. فما ورد من أحاديث مدونة من أقواله وأفعاله وتقريراته، وكان سبيلها سبيل الحاجة البشرية: كالأكل والشرب والنوم وما إلى ذلك؛ أو سبيلها سبيل التجارب والعادة الشخصية كشؤون الزراعة والطب، أو سبيلها سبيل التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة كتوزيع الجيوش على المواقع الحربية؛ هذه الأحاديث ليست شرعاً وإنما هي من الشؤون البشرية التي ليس مسلك الرسول فيها تشريعاً ولا مصدر تشريع ».

٢) وتطور الحياة الإسلامية، الذي تعدّى حدود القرآن والسنة، قادهم إلى **مصدر ثالث للتشريع، وهو « الرأي »** أي اتفاق أهل النظر في المصالح العامة دون سواد الأمة لأنه « إجماع » أهل العلم على العلم. « وذكر فضيلة الأستاذ الأكبر عند الكلام عن الرأي ـ كمصدر للتشريع ـ أن عهد الرسول قد تركّز فيه مصدران للتشريع هما القرآن والسنة، وكان أصحابه من بعده يرجعون إلى القرآن والسنة فإن لم يجدوا حاجتهم بحثوا مستلهمين روح الشريعة. وكان أخذ الرأي بطريق الاستشارة **مصدراً جديداً** ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، أو فيما فيه نص محتمل. وترجيح حجية الرأي في التشريع إلى تقرير القرآن مبدأ الشورى؛ وأمره برد المتنازع فيه إلى أولي الأمر، ثم بعد ذلك ثبوت إقرار النبي لأصحابه الذين كان يبعثهم إلى الأقاليم على الاجتهاد والأخذ بالرأي ». وهكذا، فالسنة والإجماع مصدران يتمان تشريع القرآن.

فمظاهر التشريع القرآني الذاتية: التطور، والتعديل، والنسخ في كتاب واحد مدى عشر سنوات. ومظاهره الخارجية: تشريع منزل، بحاجة إلى سُنة النبي لتفسيره، والقرآن والسنة بحاجة إلى الرأي والإجماع لاكتمالهما في تطور الأمة الإسلامية وحاجاتها التشريعية عبر الزمان والمكان. فلا يكتمل التشريع القرآني بالقرآن بل بالسنة والإجماع مع ضرورة التطور فيهما بتطور الزمن.

*

(١) مجلة الأزهر ، ديسمبر ١٩٥٩ ص ٦٣٣ نقد وتعريف الأستاذ محمد عبد الله السمان .

ثالثاً : **ميزات التشريع القرآني**

وميزات هذا التشريع القرآني هي تخفيف في الأحكام، ورفع الحرج في المضائق عند التنفيذ، مع مرونة في التخلص من التبعيّة، وتسهيل في المسؤولية.

الميزة الأولى التي تطالعنا في تشريع القرآن، منذ سورة البقرة، هي التخفيف في أحكامه: تخفيف في أحكام الجاهلية كالتي في مناسك الحج من تجارة (بقرة ١٩٧) أو في ما استيسر من الهدي « فمن لم يجد فصيام عشرة أيام » (١٩٥) وقبول سائر المواقف تألفاً لأصحابها كالسعي بين الصفا والمروة (١٥٨)؛ أو كالعفو عن القصاص في القتلى « ذلك تخفيف من ربكم[1] » (١٧٧). وتخفيف في أحكام الكتابيين، كتحليل الرفث إلى النساء ليلة الصيام (١٨٦) أو كالعدة من أيام أخر لمن كان مريضاً أو على سفر في رمضان أو طعام مسكين، وذلك لأن « الله يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (بقرة ١٨٤). هذا هو مبدأ القرآن في التشريع! ويطبقه حتى في استباحة محرّماته، عند الضرورة: « إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، وما أهّل به لغير الله؛ فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » (بقرة ١٧٣)، ويطبقه حتى في إظهار الشرك عند الحاجة: « إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان » (نحل ١٠٦). قال دروزة معلقاً: « ولذا أُبيح أكل الميتة المحرمة، وشرب الخمر المحرّم، عند الضرورات، وأحل أكل مال الغير عند شدة الجوع ». ويطبّقه حتى في تحلّة الوسوسة بالشر، كالأفكار والشهوات الأثيمة التي لا تظهر للخارج بل « يخفيها » الإنسان: « لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » (بقرة ٢٨٤ و٢٨٦).

---

(١) في شريعة القصاص في القتلى ، التي فيها حياة لأولي الألباب (بقرة ١٧٧ ـ ١٧٨) يظل نظام الطبقات سائداً كما في الجاهلية : نقل عن التوراة « النفس بالنفس » (مائدة ٤٨) وعدل عنها إلى شريعة قومه : « كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » . قال البيضاوي : « ولا تدل على أن لا يُقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى ، كما لا تدل على عكسه فإن المفهوم حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم وقد بيّنا ما كان الغرض . وإنما منع مالك والشافعي رضي الله تعالى عنهما قتل الحر بالعبد سواء كان عبده أو عبد غيره لما روي عن علي ر. أن رجلاً قتل عبده فجلده الرسول ص. ونفاه سنة ولم يقذه به . وروي عنه أنه قال : من السنة أن لا يقتل مسلم بذي عهد ، ولا حر بعبد - ومن سلم دلالته فليس له دعوى نسخه بقوله (النفس بالنفس) لأنه حكاية ما في التوراة ، فلا ينسخ ما في القرآن . واحتج الحنفية به » .

والميزة الثانية هي رفع الحرج في تكاليف الدين. تلك المبادئ الثلاثة أوصلته إلى الإعلان: « وما جعل عليكم في الدين من حرج » (حج ٧٨) وقد طبق النبي على ذاته هذا المبدأ في حدود شريعة القرآن الزواجية فكان « أسوة حسنة » (أحزاب ٢٦) ألغى شريعة التبني الجاهلية، وأخذ مطلّقة متبنَّاه زيد «لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ... ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » (٣٧ و٣٨)؛ وأحلّ له جميع قريباته « وامرأة مسلمة إن وهبت نفسها للنبي، إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة كل من دون المؤمنين: قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم: لكيلا يكون عليك حرج » (٥٠). ورفع عنه حدود الطلاق والعدل بين نسائه: « تُرجئ من تشاء وتؤوي إليك من تشاء، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك » (٥١). ورفع الحرج في التنفيذ هو ميزة بارزة في التشريع القرآني. وقد استخلص الفقهاء من ذلك أن المشقة تجلب التيسير، وأن الحرج مرفوع شرعاً، وأن الحاجات تنزل منزلة الضرورات في إباحة المحظورات لأن المبدأ الفقهي هو: « الضرورات تبيح المحظورات » لا في الأحكام الشرعية فحسب، بل وفي مظاهر الإيمان والشرك أيضاً (نحل ١٠٦).

والميزة الثالثة في التشريع القرآني هي **التسهيل** في مداورة الأحكام عند الضرورة بفرض التحلّة والكفَّارة لمن ينتهكها. فقد فرض الله لهم «تحلّة أيمانهم » (تحريم ٢) قال البيضاوي: «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم: قد شرع لكم تحليلها، وهو حلّ ما عقدته، بالكفارة ». وشرع لهم فدية الصوم « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » قال البيضاوي: « رخص لهم في ذلك أول الأمر، لما أُمروا بالصوم فاشتد عليهم لأنهم لم يتعوّدوه ثم نسخ ... وعلى هذه القراءات يحتمل معنى ثانياً وهو الرخصة لمن يتعبه الصوم ويجهده، وهم الشيوخ والعجائز، في الإفطار والفدية فيكون ثابتاً وقد أوّل به القراءة المشهورة أي يصومونه جهدهم وطاقتهم ». والفدية لمن كان مريضاً أو على سفر (بقرة ١٨٣) لم تنسخ (١٨٤). وشرع الفدية في حلق الرأس للمضطر في الحج (١٩٥) ومتى وُضع المبدأ جاز القياس عليه في التطبيق.

والميزة الرابعة في التشريع القرآني هي **التغاضي عن الخطايا الصغيرة**، واستباحة « اللَّمَم » من الآثام. وجاءَ التدرّج في ذلك صاعقاً: لا محاسبة على الوسوسة بالإثم من فكر أو شهوة أو رغبة لم تقترن بعمل (بقرة ٢٨٤ ـ ٢٨٦). ثم « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم، والله غفور رحيم » (٢٢٤) ولا تمنع اليمين

من الإصلاح بين الناس » (٢٢٣) أو عمل ما هو أفضل من الأمور المحلوف عليها؛ « كقوله عليه السلام لابن سمرة: إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها خيراً منها فأتِ الذي هو خير وكفّر عن يمينك » (البيضاوي). ثم يكفي اجتناب الكبائر من الخطايا، ولا عبرة « باللَّمَم » أو « السيئات »: « إن تجتنبوا كبائر ما تُنون عنه، نكفّر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » (نساء ٣٠) أخيراً توصل إلى التساهل في كل إثم سوى الشرك: « إن الله لا يغفر أن يُشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (نساء ١١٥). وذلك كله عملاً بمبدأ التخفيف العام في التشريع التعبدي والأخلاقي والاجتماعي والسياسي: « يريد الله أن يخفف عنكم: وخلق الإنسان ضعيفاً » (نساء ٢٧). قال البيضاوي: « يريد الله أن يخفف عنكم فلذلك شرع لكم الشرعة الحنيفية السمحة السهلة، ورخص لكم في المضائق كإحلال نكاح الأمة (وخلق الإنسان ضعيفاً) لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمّل مشاق الطاعات. وعن ابن عباس: ثمان آيات في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، هذه الثلاث (يريد الله ليبيّن لكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ـ والله يريد أن يتوب عليكم ـ يريد الله أن يخفف عنكم (نساء ٢٥ و٢٦ و٢٧) وأن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه (٣٠) وإن الله لا يغفر أن يشرك به وإن الله لا يظلم مثقال ذرة (٣٩) ومن يعمل سوءاً يجز به وما يفعل الله بعذابكم ».

هذه الميزات الأربع نصف التشريع القرآني حقّ وصفه، وتنزله منزلته بين تشريع الجاهلية وأهل الكتاب، وبين التوراة والإنجيل.

*

رابعاً : **جوهر التشريع القرآني:** شريعة وسط للأمة الوسط دون سواها.

لقد رأينا أن القرآن المدني في العهد الأول أسس الإسلام « أمة وسطاً » بين الموسوية والمسيحية. وفسّر البخاري عن ابن عباس « الأمة » بالدين: فيكون تشريع القرآن تشريع وسط بين تشريع التوراة وتشريع الإنجيل كما رأينا. وهذا الهدف العام في تشريع القرآن يحدد إعجازه ويحدُّه.

وانتهى القرآن في سورة المائدة، في فصل رائع (٤٤ ـ ٥٢) إلى **تخصيص شريعة القرآن بأمة محمد:** « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً: ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة » (٥٢) ـ قال ابن عباس: « الشرعة الدين، والمنهاج الطريق » (الإتقان ١ : ١٢٢).

جاءَ في الإتقان (١ : ٢٨) أيضاً عن عائشة قالت: « آخر سورة نزلت المائدة: فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ». وبما أن سورة المائدة هي آخر السور نزولاً (أو ما قبل الأخيرة) فهذا التشريع الأخير، في اختصاص أمة القرآن بشريعته، واختصاص أمة التوراة بشريعتها، واختصاص أمة الإنجيل بشريعتها، هذا الإعلان التشريعي الأخير في نزول القرآن لم ينسخ. وهو يكذّب فرية من افترى على القرآن بأنه نسخ التوراة والإنجيل في شريعتيهما؛ وهو يقول في آخر عهده وأمره: « وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله: إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٤٦ ـ ٤٧)؛ « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٤٩ ـ ٥٠)؛ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه: فاحكم بينهم بما أنزل الله (عليهم): لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » (٥٢).

هذا هو تعليم القرآن الأخير، فلم يأتِ بعده ما يعدّله؛ هذا هو تشريع القرآن، ولم يأتِ بعده ما ينسخه. فتشريع القرآن خاص « بالأمة الوسط » لا يفرض على أهل الكتاب؛ وشريعة القرآن لم تنسخ شريعة التوراة والإنجيل، بل صدقتهما وفرضتهما على أصحابهما (مائدة ٤٦ و٥٠) وأمرت النبي وأتباعه أن يحترموهما ويحكموا بهما إذا احتكم إليهم أهل الكتاب: هذا هو منطوق سورة المائدة المنطقي.

*

خامساً : **هل التشريع « وجه من وجوه الإعجاز في القرآن »؟**

إلى اليوم أَجمعت كتب (علوم القرآن) أن إعجازه في بيانه! وقد يذكرون إعجازاً في الغيبيات، ثم في الكونيات. ولكن لم يذكر أحداً أن إعجاز القرآن هو أيضاً في تشريعه. والشاهد العدل هو (الإتقان) للسيوطي الذي يذكر جميع وجوه الإعجاز سوى الإعجاز في التشريع. ولا غرو في ذلك فإن آيات الأحكام فيه ما بين المائة والخمسين آية والخمسمائة[1]؛ وهذه الأحكام يسيطر عليها ميزة النسخ (بقرة ١٠٦) التي يقول عنها

(١) الإتقان (٢ : ١٣٠) . ونلاحظ بالمقارنة أن آيات الأحكام في التوراة هي ستمائة وثلاث عشرة ، كما

السيوطي ((إنها مما اختص الله بها هذه الأمة)) أي الإسلام: والإعجاز في التشريع، والنسخ فيه لا يجتمعان!

ويريد الأستاذ محمد أبو زهرة، أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، أن يرى إعجازاً في التشريع القرآني حيث لم يره سواه من المسلمين، وأن يرى أكبر معجزة للقرآن في شريعته، حيث لا يرى غيره سوى عبقرية تشريعية بالنسبة للبيئة الجاهلية التي نزل فيها. تشريعاً ((وسطاً)) قال[1]: ((ولكن وجهاً آخر (من إعجاز) لم يبيّنه العلماء بإطناب ونعتقد أنه أقوى دلالة في خطاب الناس أجمعين، من كلّ ما ذكر (من الإعجاز البياني والغيبي والعلمي) وهو شريعة القرآن. وقد أشار إلى هذا الوجه، إشارة عابرة، القرطبي فقال في كتابه (أحكام القرآن) في وجوه إعجاز القرآن: ((ومنها ما تضمّنه القرآن من العلم الذي هو قوام الأنام في الحلال والحرام، وسائر الأحكام)). هذا كلام القرطبي، وهو يشير إلى أن شريعة القرآن وما اشتملت عليه من أحكام منظمة للأسرة، والتعامل الإنساني، هي وجه من وجوه الإعجاز. (ثم يقارن بين الشريعة القرآنية والقانون الروماني اليُسْتِنْيَانيّ في بعض الأحكام ويستنتج) ولذلك نقول: **إن شريعة القرآن هي أقوى وجوه إعجاز القرآن** وهي القائمة الدالة على الإعجاز إلى يوم القيامة؛ وهي قائمة إلى اليوم حجة على العربي والأعجمي، لا يفترق في قبولها مَن يعرف لسان القرآن عمن لا يعرفه، فهي شفاء لأدواء المجتمع في كل العصور والأزمان)).

وقد نسي الأستاذ التطور الذي طرأ على القرآن في اتخاذ السُنَّة مصدراً آخر معه للتشريع الإسلامي، ومع ما بين أهل السنة والشيعة من خلاف في ذلك، ومن ردّ الحديث جملة أو تفصيلاً. يقولون: لو كانت السنة مصدراً للتشريع مع القرآن لكان النبي أمر بجمع الحديث، كما أمر بجمع الكتاب. وتشريع يفتقر في بيانه إلى السنة ـ وقد تنسخ السنة القرآن ـ ليس بالتشريع المعجز في ذاته.

ثم ظهر للجماعة أن القرآن والسنة لا يكفيان مصدرين للتشريع في تطوّر الأمة

عدَّها علماء اليهود . ونستغرب كيف يهمل العلماء المسلمون ، عند الكلام عن الإعجاز في التشريع ، المقارنة بين تشريع القرآن وتشريع التوراة قبل المقارنة مع القانون الروماني والقرآن يقول عن نفسه ((ومن قبله كتاب موسى إماماً)) .

(١) مصادر الفقه الإسلامي . القاهرة ١٩٥٦ ص ٢٤ و٣٢ .

الإسلامية الصاعد: « فكان أخذ الرأي بطريق الاستشارة مصدراً جديداً ظهر العمل به بعد وفاة الرسول فيما لا نص فيه من كتاب أو سُنّة، أو فيما فيه نص محتمل[١] »: وتشريع يفتقر بعد الكتاب والسنة إلى « الرأي والإجماع » كمصدر ثالث لتشريعه، ليس بالتشريع المعجز في ذاته، الشامل الكامل، والجامع المانع.

ونسي الأستاذ أبو زهرة أيضاً « أن أكثر الأحكام الإسلامية من النوع الاجتهادي، كما يقول الأستاذ الأكبر، محمود شلتوت، شيخ الجامع الأزهر: « يقسم الحكم في الشريعة الإسلامية إلى نوعين: حكم نصَّ عليه القرآن والسنة نصّاً صريحاً لا يحتمل التأويل ولا يحتمل الاجتهاد **وهو قليل**؛ والنوع الآخر حكم لم يردْ به قرآن ولا سُنّة، أو ورد به أحدهما، ولم يكن الوارد به قطيعاً فيه، بل محتملاً له ولغيره، وكان ذلك محلاّ لاجتهاد الفقهاء والمشرّعين: فاجتهدوا فيه، وكان لكل مجتهد رأيه ووجهة نظره. وأكثر الأحكام الإسلامية من هذا النوع الاجتهادي[٢] ». وتشريع، أكثر الأحكام فيه من النوع الاجتهادي، هل يكون معجزة التشريع إلى يوم القيامة! وهل يصح أن نجعله معجزة الإعجاز القرآني الكبرى؟ ألا يكفي القرآن إعجاز بيانه؟

والأستاذ الدكتور السنهوري يرى أيضاً ضرورة تطوير الفقه الإسلامي ليكون صالحاً للعصر الذي نعيش فيه. قال هذه الكلمة القيّمة على وجازتها: « والهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي، وفقاً لصناعته، حتى نشتق منه قانوناً حديثاً يصلح للعصر الذي نعيش فيه. وليس القانون المصري الجديد، أو القانون العراقي الجديد، إلا قانوناً مناسباً في الوقت الحاضر لمصر أو العراق؛ والقانون النهائي الدائم لكل من مصر والعراق، بل ولجميع الدول العربية، إنما هو « القانون المدني » الذي نشتقّه من الشريعة الإسلامية بعد أن يتم تطوّرها[٣] ». - وتشريع بحاجة إلى تطوّر ليصلح للعصر الذي نعيش فيه، لا يكون معجزة الإعجاز القرآني إلى يوم القيامة.

---

(١) مجلة الأزهر ، ديسمبر ١٩٥٩ ص ٦٣٣ عن كتاب (الإسلام عقيدة وشريعة) للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر .

(٢) مجلة الأزهر ، فبراير ١٩٦٠ ص ٨١٨ (الشريعة والناس) حيث ينقل الأستاذ الشرقاوي قول الأستاذ الأكبر من (الفتاوي) الأزهرية ص ٣٨ .

(٣) مجلة الأزهر ، نوفمبر ١٩٥٩ ص ٤٢١ في مقال للدكتور محمد يوسف موسى (التشريع الإسلامي) .

يا أَهل القرآن لا تغلوا في دينكم غير الحق! يكفي القرآن إعجاز بيانه؛ ويكفيه فخراً عبقريته التشريعية في البيئة التي نزل فيها: لقد جعل القرآن المدني الإسلام ((أمة وسطاً)) بين الموسوية والمسيحية، أي ((ديناً وسطاً)) بينهما في العقيدة والشريعة والصوفية؛ فوصف القرآن شريعته حقَّ وصفها: ((إنها شريعة وسط للأمة الوسط)).

*

* *

بحث سادس : ((النبي الأمي)) واليهود

كان جهاد النبي في العهد الأول بالمدينة على جبهتين معاً: من خارج ضد مشركي مكة ومن والاهم من الأعراب؛ ومن داخل ضد ((المنافقين)) أي المعارضين للنبي من عرب المدينة، وضد اليهود. وكان جهاد النبي لليهود أخطره بسبب المركز الممتاز الذي كان لهم في المدينة.

في تفسير الخازن[1] رواية عن ابن عباس أن أهل يثرب كانوا يرون اليهود أصحاب كتاب ويرون لهم فضلاً عليهم في العلم، وكانوا يقتدون بكثير من فعالهم، كما تذكر ذلك (أسباب النزول).

وقد علق عليه الأستاذ دروزة[2]: ((وكان لهم كيان بارز ومؤثر بسبب ما كانوا عليه من كثرة العدد، وسعة الثروة، والمهارة الزراعية والصناعية والتجارية؛ ثم بسبب ما كان لهم من مكانة دينية جعلتهم في مركز المعلم والمرشد والمرجع، بل والقاضي لسكان يثرب. فكان لليهود من ذلك الحرمة والحصانة والقوة النافذة والأثر في حلّ المشكلات، وتعليل الحوادث والقضاء في الخصومات، والاستمتاع بالكيان والمركز الممتاز)).

وقد اعترف القرآن لهم بهذا المركز الممتاز بين العرب: ((يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم، وأني فضلتكم على العالمين)) (بقرة ٤٧). بهذا الخطاب استفتح القرآن

---

(١) تفسير الخازن ١ : ١٠٣ .
(٢) سيرة الرسول ٢ : ٥٠ .

الحوار معهم في المدينة. ومن آثار تفضيلهم على العالمين اختصاصهم بالنبوة، وثروات الأرض: « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على العالمين » (الجاثية ١٦).

لذلك يكون لموقفهم من الدعوة القرآنية الأثر الأكبر على عرب المدينة والحجاز. إن صدّقوها صدّقها العرب، وإن كذّبوها كذبتها العرب. فحاول النبي مدة سنة ونيف استمالتهم؛ فصلى إلى قبلتهم، فذاكرهم بانتساب العرب مثلهم إلى إبراهيم في القومية والدين ولما تيقّن من تنكرهم له ولدعوته أعلن انفصاله عنهم بتحويل القبلة إلى كعبة مكة. فكانت ضربة المعلم الماهرة، التي بها قضى على اليهود بقطعهم عن العرب، وبها استمال العرب إلى دعوته، لما كان للكعبة من حرمة في كيانهم وتاريخهم.

فما سرُّ هذا الانقلاب الهائل؟ ـ وكان في تنازع البقاء والزعامة على المدينة ـ لقد رأى اليهود في زعامة النبي الدينية والسياسية خطراً على مركزهم فتطيروا منه وناصبوه العداء ورأى النبي في مركزهم الممتاز، وتنكرهم لدعوته، الخطر الأكبر على دعوته ومركزه في المدينة والحجاز فصمّم على كسبهم أو سحقهم وتصفيتهم. فبدأت بين النبي واليهود حرب الجدل الديني التي تصفها لنا سور البقرة وآل عمران والنساء؛ وذكر النصارى في هذا الحرب الكلامية (بقرة ١١١ و١٢٠ و١٣٥) « استطرادي على ما يتبادر[1] » مقحم على السياق؛ والفصل من سورة المائدة (١٢ ـ ٨٦) هو من زمن آل عمران؛ والفصل من آل عمران (٢٣ ـ ٢٤) هو من زمن المائدة: فاقتضى التبديل. ثم تطور الكلام إلى الخصام، والجدال إلى القتال.

*

في هذا العهد يعرض النبي نفسه على اليهود بأنه « **النبي الأمي** » الذي ينتظرون[1]. وقد ورد هذا العرض في سورة الأعراف (١٥٦ ـ ١٥٧) المتبعّضة، أي المؤلفة من آي مكي وآي مدني. وآية « النبي الأمّي » مدنية لا مكية، وإقحام الآية على السياق ظاهر: فهو يقطع قصة موسى؛ ويوجه الدعوة لليهود، ولا دعوة قرآنية في مكة لأهل الكتاب، بل

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٥١ حاشية .
(٢) من آية الأعراف (١٥٦) وآية الصف (٦) استنتجوا معجزة تنبّؤ التوراة والإنجيل عن محمد . وتوسعت السيرة في الموضوع فجعلت الأحبار والرهبان يدلّون على بعثته الوشيكة يكادون بأوصافهم يدلون عليه باسمه .

إنما النبي معهم « أمة واحدة » (مؤمنون ٥١ أنبياء ٩١)، ودعوة لتعديل شريعة التوراة، ولا تشريع في مكة، ويذكر التوراة والإنجيل ولا ذكر لهما باسمهما الخاص، في مكة على الإطلاق؛ والخطاب محصور في اليهود فأقحموا عليه ذكر « الإنجيل »: الحسنة ليست عند الله لليهود بل « للذين يتبعون الرسول، النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إِصرهم والأغلال التي كانت عليهم: قل يا أيها الناس إِني رسول الله إليكم جميعاً ».

والمشكل الأكبر أن آية « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » تتعارض مع القرآن المكي، والتوراة والإنجيل. فالقرآن قد حصر النبوة في ذرية إبراهيم من إسحاق: «ووهبنا له إسحاق ويعقوب، وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب » (عنكبوت ٢٦) لم يذكر إسماعيل مع أنه بكر إبراهيم بل أهمل كأنه لا نصيب له ولذريته من النبوة، والدليل البديهي على أن القرآن حصر النبوة في ذرية إسحاق أنه يسميهم دائماً أهل الكتاب في مكة والمدينة. لذلك ينتمي محمد في مكة إلى أهل الكتاب، في « أمّة واحدة » ـ والتوراة أيضاً قد حصرت النبوة صراحة في بني إسرائيل، والنبي الذي يعد به موسى هو من بني إسرائيل: «أُقيم لهم نبيّاً من بين أخوتهم مثلك، وألقي كلامي في فيه فيخاطبهم بجميع ما آمره به، وأي إنسان لم يطع كلامي الذي يتكلم به باسمي فإني أحاسبه عليه (تثنية الاشتراع ١٨ : ١٨) فالنبي الموعود هو من بني إسرائيل، ويُرسل إلى بني إسرائيل. وقد حدّد الزبور والنبيّون أنه المسيح الموعود. وقد استشهد المسيح بالنبوّة الشهيرة وطبقها على ذاته في جدال اليهود: «فلو كنتم تؤمنون بموسى لكنتم تؤمنون بي **لأنه كتب عني** » (يوحنا ٥ : ٤٦) وفي مثل الكرامين الشهير يعطي المسيح ذاته خاتمة الأنبياء والمرسلين، ووارث ملكوت الله (متى ٢١ : ٣٣ ـ ٤٦). ووعد المسيح رسله بأن يرسل إليهم الروح القدس، « الذي من الأب ينبثق »ليكون معهم نوراً وقوة وهدى يشهد معهم وفيهم للمسيح (لوقا: الإنجيل ٢٤ : ٤٦ أعمال الرسل ف١).

وسوء التفاهم الكبير الذي أدّى بمحمد واليهود، في المدينة، إلى المقاطعة الدائمة، والعداء الدائم كان في فهم نبوآت الكتاب عن « النبي الآتي ». فلما ظهر يحيى المعمدان بن زكريا أرسلوا إليه وفداً رسمياً يسأله عن نفسه: « أأنت النبي الآتي أم ننتظر آخر »؟ فأجاب أنه يأتي بعدي (يوحنا ف١). والمسيح أكد لهم أنه هو « النبي الآتي » الذي وعد به الأنبياء جميعهم، فرفضوه، لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً محارباً يسودون به العالم، فجاء مسيحاً

يدعو إلى الله بسلطان الكلمة، ويفتح بالكلمة ما لم تفتحه السيوف. فرفضوه، وباتوا ينتظرون. فعرض محمد عليهم ذاته أنه « النبي الأمي » الآتي؛ فرفضوه أيضاً لأنه ليس منهم، ولا يعمل لهم. وقال محمد أن نبوآت الكتاب تشير إليه فأنكروا عليه ذلك، فاتهمهم بالكتمان واللـّي بألسنتهم، والتحريف، أي بالتأويل المنحرف، لأنهم يقولون للناس إن « النبي الأمي » ليس « بالنبي الآتي » الذي ينتظرونه، لأن « النبي الآتي » يأتي ويرد ملك العالم إلى إسرائيل (أعمال ١). ومحمد يبني دولة له ولقومه.

فلما انتقل محمد إلى المدينة وحمي الجدال الديني بينه وبين اليهود على نبوته قال لهم إنه هو « النبي الآتي » الذي يتكلم عنه موسى في التوراة والمسيح في الإنجيل. وهو « النبي الأمي » الذي طلبه إبراهيم وإسماعيل في بناء الكعبة، وتأسيس الحج إليها (بقرة ١٢٧ ـ ١٢٨): « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » (١٢٩). فكما نسب المسيح نبوة « النبي الآتي » إلى نفسه، نسبها محمد إلى نفسه وسمى ذاته « النبي الأمي » أي العربي، غير الكتابي، كما كان أهل الكتاب يصفون العرب (جمعة ٢ آل عمران ٢٠). ثم ذكر اليهود بالميثاق الذي أخذه الله عليهم بالإيمان بالنبي الموعود (آل عمران ٨١). بهذا التحدي جرحهم في عقيدتهم وقوميتهم فثاروا عليه. وقد كانوا يستفتحون على العرب بأنهم أهل النبوة والكتاب.

*

فثارت الحرب الدينية الكلامية بين محمد واليهود. وقد فصلنا في تحليل سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة كل أنواع الجدل التي قامت بينهم؛ ونوجز هنا أهمّها:

الجدل الأول على « ملة إبراهيم » في سورة البقرة. بدأ القرآن المدني يدعو إلى ملة إبراهيم: « قل هداني ربّي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً، ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » فالحنيفية الإبراهيمية هي ملة إبراهيم وهي « الأمة الوسط » التي يستقر عليها إسلام القرآن. أجاب اليهود: « الهدى في اليهودية » وهي ملة إبراهيم أبيهم في الدين والقومية. فرد القرآن عليهم بأن إبراهيم هو إمام العرب وقد تبرأ من ذريته اليهودية الظالمة، وهو يبني البيت العتيق في مكة: « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات، فأتمهنّ، قال: إني جاعلك للناس إماماً! قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين، (بقرة ١٢٤) إبراهيم يتبرأ منهم، ويطلب إلى الله في بناء الكعبة: « ربنا واجعلنا

مسلَمَيْن لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم؛ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمك الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم)) (١٢٨ ـ ١٢٩). فانتزع القرآن من اليهود أبوّة إبراهيم، وإسلام إبراهيم، ومقام إبراهيم، والنبي الأمّي ((رسولاً منهم)) ، والكتاب والحكمة، ومناسك حج إبراهيم؛ وبكلمة واحدة اختص بملة إبراهيم من دون اليهود: ((ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه)) ! (١٣٠). براعة ما بعدها براعة: ملة إبراهيم هي إسلام القرآن، الحنيفية الكتابية، التي وصى بها الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب بينهم: ((وقالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون)) (١٣٢) فتقدم إسماعيل جدّ العرب على إسحاق في وراثة الدين والقومية من إبراهيم، وصارت ذرية إسماعيل أولى بالنبي الآتي.

وفي خطاب ثانٍ يظهر الانفصال والاستقلال عن أهل الكتاب جازماً قاطعاً: ((وقالوا كونوا هوداً تهتدوا[1]! ـ بلْ ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)) (بقرة ١٣٥) وهذه الملة تؤمن بكل أنبياء الكتاب ((لا نفرق بين أحد ونحن له مسلمون)) وتعتبر التوحيد واحداً بين اليهودية والحنيفية. ((قل أتحاجونا في الله وهو ربنا وربكم، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم)) (١٣٦ ـ ١١٠). قالوا: الآباء والأسباط كانوا هوداً! فقال: التوراة تشهد بأنهم كانوا قبل الموسوية، فالانتماء إليهم في ملة إبراهيم أقرب ديناً وقومية (١٤٠).

كان اليهود يتحدثون كثيراً عن بيت الله في أورشليم، لأن فيه مصلّى إبراهيم ويعقوب وإسحاق والأسباط، ويتوجهون إليه في صلاتهم، قبلة مقدسة لا تصح الصلاة بدونها. فانتزع القرآن منهم بيت التوحيد الأول: أقام إبراهيم وأولاده في أورشليم، ولكن هيكلها بناء سليمان بعدهم بألف سنة؛ بينما كعبة مكة فقد بناها إبراهيم ذاته مع ابنه إسماعيل: ((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل: ربنا تقبل منا. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى. وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات)) (بقرة ١٢٥ ـ ١٢٧).

---

(١) بقرة ١٣٥ قوله ((أو نصارى)) مقحم على الآية وليس للإقحام ما يبرّره، والجناس اللفظي المستعمل يُبعد الإقحام.

صمد اليهود لهذا التحدّي؛ ولكنهم انفجروا بالسخط والغضب عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة وكعبتها، لأن في التحويل عن قبلتهم تحويل العرب عنهم: « سيقول السفهاء من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ ـ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم! وكذلك جعلناكم أمة وسطاً (في الملة والقبلة) لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً: وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله » (بقرة ١٤٢ ـ ١٤٣). فقرر أن ملة إبراهيم هي « الملة الوسط » التي تشهد على الناس أجمعين من مشركين وكتابيين، ومن يهود ونصارى، لأنها قبلة مقام إبراهيم وبيت الله العتيق الذي بناه إبراهيم بذاته، وإسماعيل ابنه: « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام! وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة ـ إلا الذين ظلموا منهم (اليهود) فلا تخشوهم (في جدالهم) واخشوني؛ ولأتم نعمتي عليكم، ولعلكم تهتدون. كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة (الذين يدعون امتلاكها) « ويعلمكم ما لا تكونوا تعلمون » (١٥٠ ـ ١٥١). وفي مشادة أخرى قال: « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين: إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدى للعالمين؛ فيه آيات بينات: مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً! ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » (آل عمران ٩٥ ـ ٩٦).

لقد تم الانفصال ووقت الواقعة بين أصحاب الأمس، وذهب اليهود ضحية مكرهم مع العرب فهم الذين لقنوا العرب هذه التلقينات زلفى لهم، وإيلافاً، وبها سيطروا عليهم. فتبناها القرآن، وانتزع النبي بها السيطرة على العرب، فكان له ما أرادوا لهم.

*

وانتقل الجدل إلى **موضوع ثانٍ**: نبوّة « النبي الأمّي » في سورة آل عمران وما يتبعها من المائدة، وهو جدل يتخلله الدس والسخرية.

جاء إعلان القرآن واضحاً قاطعاً جهيراً: « شهد الله ـ أنه لا إله إلاّ هو ـ والملائكة، وأولو العلم، قائماً بالقسط (أي المقسطين من اليهود) ـ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ـ: إن الدين عند الله الإسلام. وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءَهم العلم بغيا بينهم » (١٨ ـ ١٩): دين الله هو الإسلام، في اليهودية كان أم الحنيفية! فأذاع

اليهود بين الناس أن أولى الناس بإبراهيم هم اليهود لأنهم من نسله وملته؛ فأجاب القرآن: « يا أهل الكتاب لِمَ تحاجون في إبراهيم، وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده، أفلا تعقلون؟ ـ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين ـ إن أولى الناس بإبراهيم، للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين[1] » (٦٦ و٧٢). ملة إبراهيم هي الإسلام الحق: « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » (آل عمران ٢٠).

فرد اليهود مغرورين واهمين بامتيازاتهم: نحن أولياء الله من دون الناس: « وقالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه! ـ قل: فلِم يعذبكم بذنوبكم؟ بل أنتم بشر ممن خلق » (مائدة ٢٠) وقال أيضاً: « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين! ولا يتمونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » (جمعة ٦ ـ ٧). قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً[2]! ـ تلك أمانيهم! قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (بقرة ١١١) ومرة أخرى: « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين! ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ! (٩٤ ـ ٩٥). قالوا: « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات! ـ وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون » ! ويحتكم إلى التوراة على فساد زعمهم « ثم يتولى فريق منهم (اليهود) وهم معرضون » (آل عمران ٢٣)[3].

فأخذوا ينالون من النبي وتعليمه. قالوا: يدّعي محمد بأن الله ينزل عليه الكتاب، وهو يبدّل في تنزيله؛ فأجاب بأن النسخ حكمة إلهية للتخفيف عن عباده: « ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها: ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » ! (بقرة ١٠٦). وهم الذين يحرّفون كَلِمَ التوراة عن مواضعه (نساء ٤٥)، وقد فعله آباؤهم في زمن موسى،

---

(١) يجادل القرآن اليهود بجدال المسيحية لهم : هكذا حاجج الرسول بولس اليهود : إن أولى الناس بإبراهيم ليست سلالته الجسدية بل سلالته الروحية ، فقد جعل الله إبراهيم أباً لأمم كثيرة (رومية ف ٤) .

(٢) بقرة ١١١ قوله « أو نصارى » مقحم على الآية لأنه لا يعقل أن يشرك اليهود النصارى في اصطفائهم للجنة من دون الناس .

(٣) وقد أجاب عليهم في المرة الأولى: « قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده، أم تقولون على الله ما لا تعلمون » ! (بقرة ٨٠ .

وما زالوا حتى اليوم يفسّرونه على هواهم: « أفتطعمون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون » (بقرة ٧٥).

وكان بعضهم يتظاهر بالإسلام أول النهار، ويرتد عنه آخره ليوهم العرب أن دعوة النبي كاذبة، ويلبسون الحق بالباطل: « يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون: وقالت طائفة من أهل الكتاب (اليهود): آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » ! (آل عمران ٦٩ ـ ٧٣).

ويهزؤون بالنبي قائلين « راعِنا » ويلوون ألسنتهم بها « رَعْنا » حتى تعني « أرعن » بلغتهم السريانية: « ويقولون: سمعنا وعصينا؛ واسمع غير مُسْمَعٍ! وراعنا! ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين » (نساء ٤٤ ـ ٤٦ و١٠٤).

ويطعنون بالنبي وصحة نبوّته لكثرة نسائه: « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله! ـ فقد آتينا إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » (نساء ٥٤).

ويطلبون من النبي معجزة: أن يأتيهم بقربان تأكله النار: « إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار! ـ قل قد جاءَكم رسل قبلي بالبينات وبالذي قلتم: فلِمَ قتلتموهم إن كنتم صادقين؟ » (آل عمران ١٨٣).

ويشككون الناس في تنزيل القرآن طالبين من النبي أن ينزّل كتاباً من السماء مثل ألواح موسى: « يسألك أهل الكتاب (اليهود) أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء! فقد سألوا موسى أكبر من ذلك، فقالوا: أرنا الله جهرةً! فأخذتهم الصاعقة بظلمهم. ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءَتهم البينات » (نساء ١٥٣ ـ ١٥٥) فنقضوا عهد الله عليهم مع موسى، وينقضون عهد الله عليهم اليوم مع النبي الأمي: « ورفعنا فوقهم الطور، وأخذنا عليهم ميثاقاً غليظاً! فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم قلوبنا غلف! ـ بل طبع الله عليها بكفرهم » ! (نساء ١٥٦ ـ ١٥٧).

وأبرز اليهود للعرب صحفاً من التوراة تظهر بأن النبي الموعود هو من اليهود، وليس من الأمم كما يدّعي محمد! فرد القرآن عليهم: «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب (في قراءة) لتحسبوه من الكتاب، وما هو من الكتاب! ويقولون (عمَّا ينسخون) هو

من عند الله. وما هو من عند الله! ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ٧٨). وقد حرّفوا إسلام التوراة باتخاذهم الملائكة والنبيين أرباباً (٨٠) واستذلّوا الشعب في طاعة عمياء لهم جاعلين أنفسهم منذ عزيز (توبة ٣١) أبناء الله بتدريسهم الكتاب «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم[1] والنبوة، ثم يقول للناس كونوا عباداً إلي من دون الله؛ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » (آل عمران ٧٩). فالإسلام الحق هو إسلام القرآن الذي لا يفرق بين الأنبياء « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (٨٤ ـ ٨٥).

*

وتطور الجدل إلى **موضوع ثالث:** أحكام الإسلام في التوراة والقرآن.

في سورتي الأنعام (١٤٥) والنحل (١٤٧) آيات مدنية نصف موقف القرآن في الحلال والحرام في الأطعمة، من المشركين والكتابيين: « قل لا أجد في ما أوحي إليَّ محرَّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس، أو فسقاً أهّل لغير الله به. فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم. وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم. ذلك جزيناهم ببغيهم وإنَّا لصادقون ». فاتخذ القرآن تشريعاً وسطاً للأمة الوسط، بوحي التشريع المسيحي: « لقد رأى الروح القدس ونحن ألا نضع عليكم (الأمميين المسيحيين) ثقلاً فوق هذه التي لا بد منها، وهي أن تمتنعوا ممّا ذبح للأصنام، ومن الدم والمخنوق والزنى » (أعمال ١٥ : ٢٨): المحرمات الأربعة واحدة في القرآن والتشريع المسيحي، ما عدا الخنزير الذي أبدِل بالزنى، بسبب اختلاف البيئة الحجازية والرومية.

فخاصم اليهود محمداً في نبوته بسبب تحليله لحوم الإبل وألبانها ـ وهل التشريع الذي يراعي مصلحة الجماعة الحجازية بوسعه غير ذلك؟ ـ وردّوا عليه أن تحريماتهم من ملة إبراهيم التي يدعو إليها. فأجاب: « كل الطعام كان حلاّ لبني إسرائيل، إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه، من قبل أن تُنزّل التوراة، قلْ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. (ويظهر أنهم تلوا التوراة فقال) قل صدق الله فابتغوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين »

---

(١) « الحكم » كلمة عبرية تعني « الحكمة » كما يلفظها القرآن مراراً .

(آل عمران ٩٣ ـ ٩٥) فجاء تشريع القرآن من فوق التوراة عوداً على بدء، وتخفيفاً لأمته.

وبصدد الزنى وحدَّه في التوراة والقرآن، روى الرواة والمفسرون أن بعض اليهود احتكم إلى النبي في إقامة حد الرجم على الزاني والزانية، فاستعان بحبر يهودي مسلم لمعرفة حد التوراة فيه، وأفتاهم بالرجم، وإلى ذلك تشير آيات المائدة (٤١ ـ ٤٥). فشرع بالقرآن وسنته أن الحكم بين الكتابيين بما في كتابهم. وقد شرع هو الحد على الزاني بالأذى؛ أي الضرب غير المبرّح، والحبس حتى الموت على الزانية (نساء) ثم نسخه بالجلد (النور) فكان أيضاً تشريعاً وسطاً بين الموسوية والمسيحية كما أبنَّاه من قبل.

وحمل عليهم لأكلهم الربا وقد نهوا عنه (نساء ١٦١) ولاقتتال عشائرهم وقد أمروا بمحبة القريب وبغض العدو فقط (بقرة ٧٥) وقولهم الإثم وأكلهم السحت (مائدة ٦٢ ـ ٦٣) وتفرّقهم شيعاً وأحزاباً في فهم التوراة (نمل ٧٦ فصلت ٤٥ جاثية ١٧ آل عمران ١٩) وقصور أحبارهم وعلمائهم في تعليم الأميين منهم حدود التوراة: « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب: « لـتُبيّنَنَهُ للناس ولا تكتمونه! فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون » (آل عمران ١٨٧). ويحمل على الشعب اليهودي لطاعة رؤسائهم المنحرفين العمياء كأنهم أرباب: « اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله » (توبة ٣١) ويحمل أيضاً عليهم لقلة أمانتهم مع غيرهم بحجة فرق الدين: « ومن أهل الكتاب ما إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم ما إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك، إلا ما دمت عليه قائماً؛ ذلك بأنهم قالوا: « ليس علينا في الأميين سبيل » ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ! (آل عمران ٧٥).

*

وفي أثناء هذه الحرب الجدلية وجّه القرآن الدعوة إليهم صريحاً يوماً بعد يوم: « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإيّاي فارهبون: وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا **أول كافر به** » ! (بقرة ٤١) العهد المذكور هو الإيمان بالنبي الآتي وهو « النبي الأمي » كما فهمه. أعرضوا فلعنهم: « ولمّا جاءَهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلماء جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » (بقرة ٨٩) كانوا يستفتحون على العرب

بمجيء « النبي الآتي » (يوحنا ١١ : ٢١) أي المسيح (يوحنا ٤ : ١٥) « ويأتي من نسل داود ومن قرية بيت لحم حيث كان داود » (يوحنا ٧ : ٤٢) لا بنبي أمّي يأتي من الأمم أو من العرب: تعصبهم لقومهم يأبى عليهم غير ذلك؛ ولكن هكذا فهم محمد بنوة التوراة وطبقها على ذاته.

ويستغرب القرآن كفرهم به وهو مصدّق لما معهم: «وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله (القرآن) قالوا: نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّق لما معهم » ! (بقرة ٩١). وهذا تنكّر لتوراتهم التي تعدهم بنبي: «ولما جاءَهم رسول من عند الله مصدق لما معهم، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب (اليهود) كتاب الله (التوراة) وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » (بقرة ١٠١). فهمَّ بعض المسلمين بالانتقام منهم فأشار بالتريث: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير » (بقرة ١٠٩).

وكانت معركة بدر والنصر المبين فأجلى بني قينقاع واستحل أملاكهم.

ثم عاد إلى دعوة اليهود الباقين في المدينة: « إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءَهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب. فإن حاجوك فقل: أسلمتُ وجهي لله ومن اتبعني! وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين: أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » (آل عمران ١٩ ـ ٢٠). ويقارن بين موقف اليهود منه في مكة، ثم في المدينة، ويلعنهم من جديد: كيف يهدي الله قوماً بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين: أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٨٧). ثم ينظر إلى احتمال حرب حامية مع اليهود فيقول: « لن يضروكم إلا أذى، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون: ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا ... وباؤوا بغضب من الله عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » ! (١١٢ و١١٩).

وكانت حملة قريش الأولى على المدينة في أحد، التي دبرها زعماء النضير. فأجلى النبي بين النضير واستحل أملاكهم (آل عمران ١٢١ ـ ١٧١).

وعاد القرآن إلى دعوة القبيلة الباقية في المدينة، بني قريظة: « يا أهل الكتاب قد

جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل: أن تقولوا ما جاءَنا من بشير ولا نذير فقد جاءَكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (المائدة ٢١). ويحذّر جماعته منهم: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود[1] أولياء: ومن يتولهم منكم فإنه منهم: إن الله لا يهدي القوم الظالمين » (٥٤) ويحظر موالاة اليهود الذين يهزؤون من الإسلام وشعائره (٦٠ ـ ٦٦) فيلعنهم من جديد: « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون! كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون: ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا! ... لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا! ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » (مائدة ٨١ ـ ٨٥). وفي هذا إشارة إلى مؤامرة زعماء بني النضير مع قريش وأحزابها لغزو المدينة والقضاء على النبي الخطر على قريش واليهود. ويأتي التهديد صريحاً: « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدّقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردّها على أدبارها ونلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً » (نساء ٤٦). وينقل حديثهم في مكة بتفضيل الشرك على الإسلام « ويقولون للذين كفروا: هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً: أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » (نساء ٥٠) ـ كيدهم أعمى بصيرتهم فاستحقوا اللعنة! وينقل القرآن تعييرهم للنبي بكثرة نسائه، ويجيب: « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكاً عظيماً » (٧٣).

وكانت الحملة المكية الثانية بجميع أحزاب قريش على المدينة (أحزاب ٩ ـ ٢٥). وفشل الحصار بسبب الخندق الذي أشار به الصحابي سَلْمان الفارسي. « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّاً عزيزاً. وأنزل الله الذين ظاهروهم من أهل الكتاب (بني قريظة) من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً (قتلوا الرجال واسترقوا النساء والصبيان) وأورثكم أرضهم وديارهم، وأرضاً لم تطؤوها، وكان الله على كل شيء قديراً » (أحزاب ٢٥ ـ ٢٦).

*

(١) سورة المائدة ٥٤ قوله « والنصارى ـ بعضهم أولياء بعض » مقحمة : لأنه لم يكن في المدينة تحالف بين اليهود والنصارى على المسلمين .

تطورت علاقات اليهود مع النبي والمسلمين في السنوات الخمس الأولى من سيّئ إلى أسوإ. استخفوا بالنبي. واستعلوا على المسلمين، واستهزؤوا بالإسلام حتى بدر. ولما بدأ النبي بإجلائهم، عمدوا إلى المؤامرات في داخل المدينة مع المنافقين المعارضين، ودفعوهم إلى المزيد من النفاق وتثبيط المسلمين. بعد أُحُد، نقلوا موآمراتهم سافرة إلى مكة ونجد لتهيئة حملة قاضية على النبي الجديد الذي يهدد سلطانه قريش واليهود سادة الدين والتجارة في الحجاز. فكانت حملة الخندق الفاشلة التي أعقبتها تصفية اليهود في المدينة. وتصف سيرة النبي قساوة النبي البالغة في معاملتهم: خندق بالمدينة خنادق، وخرج بهم إليه إرسالاً، فوجاً بعد فوج، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، وكانوا نحو ألف رجل، واسترقّ النساء والصبيان وباعهم بيع الانعام[1]! وقد استحق اليهود هذا المصير المحتوم، فهم الذين دبَّروا الحملة الأولى على المدينة في أُحُد، وهم الذين دبروا حملة الأحزاب الثانية على المدينة وكادوا يقضون على الإسلام في مهده. ((كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، ويسعون في الأرض فساداً (مائدة ٦٤). ((ومكروا ومكر الله بهم، الله خير الماكرين)).

وهكذا تمت تصفية يهود المدينة، مع فشل حملات مكة على النبي والمدينة: فخفت غلواء قريش ومالوا إلى ترك النبي وشأنه؛ وضعف أمر المنافقين والمعارضين في مكة، وأخذوا يندمجون في الدعوة، ويشتركون بسهولة أكثر في الجهاد؛ وعظم شأن المسلمين وفُرضت هيبتهم على الأعراب المجاورين للمدينة الذين أخذوا يعاهدون النبي، وينضم بعضهم إلى الإسلام. وبدأ النبي ينتقل رويداً رويداً، بعد خمس سنوات من الدفاع، إلى الهجوم. وأخذ يفكر جديّاً بغزو مكة صلحاً أو حرباً حسبما تتهيأ له الظروف.

وبالتحول من الدفاع إلى الهجوم، ما بين وقعة الخندق، وحملة النبي السلمية على مكة في الحديبية، يبدأ العهد الثاني في المدينة، مدى السنوات الخمس التالية.

---

(١) السيرة لابن هشام ٣ : ٢٤٩ ـ ٢٥٦ .

الفصل الثاني عشر

العهد الثاني في المدينة ـ الخامس من الدعوة القرآنية

(من قُبَيْل الحديبية، سنة ٦هـ (٦٢٨م) ـ إلى وفاة الرسول ٦٣٢)

ـ العهد الإسلامي ـ

ـ نشر الإسلام بالهجوم المسلّح في الحجاز والجزيرة.
ـ دعوة النصارى إلى « كلمة سواء » .
خمس سنوات ـ ١٢ سورة.

« **هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** »
(براءة ـ توبة ٣٤)

*

تمهيد عام: أحداث هذا العهد

الظاهرة الكبرى في العهد الثاني هو انتقال النبي والمسلمين من الدفاع **إلى الهجوم.** فقد انكسرت شوكة قريش في حملتهم الثانية الفاشلة على المدينة. وللحال قضى النبي على بني قريظة آخر قبيلة من اليهود في المدينة، فكسر شوكة المعارضة فيها أيضاً. وبدأ يرهب الأعراب الضاربة حول المدينة بالبعوث والغزوات حيناً، وحيناً لكسب حيادهم بالأحلاف.

وأخذ يفكر جديّاً بغزو مكة صلحاً أو حرباً. وأول ما سعى إليه تجديد فريضة الحج إلى البيت العتيق، وإن أولى الناس به من كانوا معه على ملة إبراهيم الذي أسّسَ الكعبة مع إسماعيل ابنه، وأذّن في الناس بالحج (سورة الحج ٢٥ ـ ٣٧).

وتئوجز أحداث العهد بحملة سلمية على مكة عام الحديبية (٣٢٨م) وحملة عسكرية على يهود الشمال الحجازي؛ ثم بحملة سلمية أخرى على مكة في عمرة القضاء (٦٢٩) وحملة عسكرية إلى مشارف الشام في غزوة مؤتة؛ أخيراً بحملة عسكرية على مكة تمَّ فيها الفتح الأكبر لعاصمة الشرك (٦٣٠)، أردفها بحملة عسكرية على هوازن في موقعة حنين، وحصار ثقيف في الطائف أخضع فيها جنوب الحجاز لسلطان المسلمين؛ وبحملة عسكرية لتهدي العرب النصارى في بلاد الشام بغزوة تبوك (٦٣١) أعقبتها مبايعة الوفود من سائر القبائل للنبي (٦٣١) وإخضاع نجران واليمن بواسطة خالد بن الوليد، وعلي بن أبي طالب، للإسلام الذي أمسى سيّد الجزيرة كلها عند وفاة النبي.

والظاهرة الثانية هي التطور الأخير في الإسلام، بعد تأسيس الإسلام « أمة وسطاً » في العهد الأول المدني، انتهى في العهد الثاني إلى أن يكون **الأمة الوحيدة** الوارثة للتوحيد الكتابي الخالص وحدها. ولذلك نرى القرآن في وصية محمد الأخيرة لأمته، في صدر براءَة، يأمر بإخضاع الكتابيين، والمسيحيين منهم خصوصاً، للجزية، أي لدولة الإسلام، إن لم يكن للدين الإسلامي.

والظاهرة الخاصة في هذا العهد الأخير من الدعوة القرآنية هي في توجيه الدعوة مباشرة للنصارى. منذ مطلع العهد الهجومي في القرآن والسيرة، يخص النبي النصارى بدعوته. بدأت الدعوة متودّدة، تذكرهم بوعد المسيح بإرسال « أحمد » الفارقليطس، إليهم (جمعة ٢). ثم أخذ يندّد بغلوّهم في الدين بتأليه المسيح وأمّه (نساء، مائدة). أخيراً في جدال وفد نجران (٦٣١) يدعو القرآن النصارى صراحة إلى « كلمة سواء » (آل عمران ٦٤) على التوحيد الخالص الذي يرى في المسيح، كلمة الله وروح الله (نساء ١٧٠) عبداً لا يستنكف عن عبادة الله (مائدة). ولما اطمئن النبي إلى خضوع الحجاز لسلطان الإسلام وجه جيوشه إلى ديار النصرانية في نجران واليمن من جنوب الجزيرة، وقاد بنفسه الحملة الكبرى، في غزوة تبوك، ضدّ نصارى العرب في مشارف

الشام. وكانت وصيته الأخيرة بقتال الكتابيين والنصارى خاصة حتى يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون (توبة ٣٠) إذا لم يدينوا بالإسلام.

فكانت خطة النبي في هذا العهد الأخير نشر الإسلام بالهجوم على سائر الجبهات « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (توبة ٣٤) حتى ولو كره المسيحيون، أهل « المودة » طيلة العهد. فانتهى التطور في الرسالة والرسول إلى محاربة المسيحية والمسيحيين « الذين لم يحرّموا ما حرّم الله ورسوله » حتى يدفعوا الجزية خاضعين لسلطان المسلمين (توبة ٣٠ ـ ٣١). وهذه الوصية الأخيرة التي تركها محمد لأمته، في آخر أيامه، تعارض بآية واحدة القرآن كله؛ وعلى هذه الآية الأخيرة، من دون القرآن كله، سار التاريخ الإسلامي كله.

البحث الأول

توطيد هيبة الإسلام، بصلح الحديبية وفتح شمال الحجاز

(من الحديبية ٦هـ ٦٢٨م - إلى فتح مكة ٨هـ = ٦٣٠م)

« إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » (فتح ١)

تمهيد خاص: أحداث الفترة، من السيرة

بعد تصفية يهود المدينة، وإضعاف المعارضة فيها من المنافقين، وبعد عقد الأحلاف مع الأعراب الذين بدأوا يتهيبون المسلمين، فكّر محمد بغزو مكة صلحاً أو حرباً، لأنه باستسلام مكة، يستسلم العرب للدولة الدينية الناشئة.

١) الحملة السلمية على مكة (آخر ٦هـ = آذار ٦٢٨).

في آخر سنة ست للهجرة وقع موسم الحج، فوجد فيه النبي الفرصة سانحة، ليدخل مكة، أو يعرض على القرشيين والحجاج العرب قوة المسلمين المتصاعدة. فدعا الأعراب الموالين مع المسلمين إلى الحج معه. فتخلَّفوا خشية الصدام مع قريش التي ستمنع النبي حتماً من الوصول إلى مكة. فمشى النبي في نحو ألف وخمسماية إلى مكة، وساق الهَدْي أمامه.

فلما وصل إلى الحديبية استنفرت قريش رجالها، فقصد خالد بن الوليد مع مئتي فارس لملاقاتهم. فتشاور النبي والصدّيق على غزو مكة، في غفلة من أهلها، فمانع أبو بكر[١]

---

(١) المغازي للواقدي ٢٤٤ .

فاضطر القرشيون والمسلمون إلى المفاوضات. فأرسل القرشيون من يستطلع أخبار النبي. ثم أوفدوا حليفهم الحُلَيْس، سيّد الأحابيش، ليتحقق من أمر النبي فوجده حاجّاً ونصح أهل مكة بفتح السبيل أمامه. وأرسل النبي صهره عثمان بن عفّان يطلع قريشاً على حسن نوايا المسلمين. فأبطأ وسرت الإشاعة بأنه قُتل. فطلب النبي مبايعة الجيش له على الموت، تحت شجرة، فبايعوه « بيعة الرضوان » . ثم رجع عثمان، ورأت قريش أن ترسل سهيل بن عمرو إلى النبي للتفاوض على عقد هدنة. فاضطر النبي إلى قبول شروط قاسية: ١) الرجوع عن مكة هذا العام ٢) للرسول أن يرجع إليها بعد عام فيدخلها حاجّاً مع أصحابه، ويمكث فيها ثلاث ليال فقط، ولا يكون مع المسلمين إلا سلاح المسافر، سيف في غمده ٣) ترك الخيار إلى الناس، في أثناء هذه الهدنة بأن ينضمّوا إلى المكيين أو إلى المسلمين ٤) إعادة من يأتي النبي مسلماً من مكة رغم أهله، وعدم إعادة من يلتحق بمكة من المسلمين مرتدّاً ٥) « واتفق على أن تكون مدة الهدنة عشر سنين[1] وكُتب بذلك عهد ختمه النبي بخاتمه ووقعه سهيل عن قريش » . وللحال أمر محمد قومه بذبح الهدي والتحليل من الإحرام. وساءَ بعضهم أمثال عمر بن الخطاب هذه المساومة الضعيفة. فنزلت سورة الفتح تبرّر سياسة الرسول في هدنة الحديبية، وتسمي صُلحها مع قريش « فتحاً مبيناً » لأنها معاهدة عدم اعتداء تقرّ بالمساواة بين الفريقين. ومن نتائج هذا « الفتح العظيم » اتساع هيبة المسلمين في الأعراب فبادر المتخلفون إلى الاعتذار، وخفت المعارضة في المدينة، وصار العرب يفدون على النبي محالفين. وعهد الحديبية وموادعة قريش، سمحا للمسلمين بغزوة خيبر، ثم بدخول مكة في عمرة القضاء، أخيراً باحتلال مكة.

وسرى خبر الهدنة؛ فجاء الرسول بعض المسلمات من مكة مهاجرات. ورفض النبي إرجاعهنّ، آمراً بالتعويض على أزواجهن، لأن النساء لا يدخلن في شروط الهدنة. ونزلت سورة (الممتحنة) تبرّر سلوك النبي.

وتخاصم نفر من أصحاب عمر بن الخطاب وعبد الله بن أُبي، واستنفروا أصحابهم فكادت تقع الفتنة. فحسمها النبي بنفوذه الشخصي ونزلت سورة (الحجرات) تبرّر سياسته.

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ٢٩١ قابل هيكل : حياة محمد ٣٦٣ « عشر سنين في رأي أكثر كتاب السيرة ، وسنتين في رأي الواقدي . »

٢) الحملة العسكرية على يهود الشمال الحجازي

لم يقم محمد في المدينة سوى خمس عشرة ليلة ثم أمر الناس بالتجهز لغزو خيبر، اتقاءً للفتنة بين المسلمين بسبب الجدال المتواصل على صلح الحديبية المهين في نظرهم، وبسبب فوات الغنائم (فتح ١٦).

وكانت خيبر شهيرة بحصونها فوق الصخور والجبال، وأهلها أهل حرب وقتال. بدأ الرسول فعزل غطفان عن نصرتهم، وقد وعدهم بقسم من الغنائم.

اقتحم المسلمون حصن سلام بن مشكم فقتل منهم نحو خمسين رجلاً منذ اليوم الأول. واقتحم أبو بكر حصن ناعم ففشل، ثم اقتحمه عمر بن الخطاب ففشل. واقتحمه علي بن أبي طالب فنجح. ثم قطعوا الماء عن حصن الزبير فخرج أهله إلى المبارزة والفرار واستولى المسلمون أيضاً على حصون الشِّق ونطاة والكتيبة. ولما انتهى المسلمون إلى حصني الوطيح والسلالم حيث العيال والأموال استولى على اليهود اليأس فطلبوا الصلح على أن يحقن دماءَهم. فرضي النبي. وأبقاهم على أرضهم التي آلت للمسلمين بحكم الفتح، على أن يكون لهم نصف ثمرها مقابل عملهم فيها.

وكان من بين سبايا خيبر صفية، ابنة حيي بن اخطب، وزوج كنانة بن الربيع، سيدة بني قريظة والنضير. فاصطفاها محمد لنفسه، وأعرس بها في طريق عودته من خيبر.

وبعث الرسول إلى أهل فدك ليُسْلموا أو يسلِّموا أموالهم. فصالحوه على نصف أموالهم من غير قتال. لذلك كانت فدك خالصة للرسول من دون المسلمين.

ومرّ النبي في طريق عودته بوادي القرى. فقاتله يهودها لكنهم اضطروا إلى الصلح كما فعلت خيبر.

أما يهود تيماء فقد قبلوا الجزية مثل أهل فدك، من غير حرب.

وبهذه الحملة إلى الشمال دان اليهود كلهم في الحجاز لسلطان محمد، وزال سلطانهم عن الحجاز كله. وأصبح محمد في مأمن من ناحية الشمال إلى الشام.

٣) بعد العودة إلى المدينة رجع المسلمون الباقون من الحبشة بقيادة جعفر بن أبي

طالب. ومعهم أمّ حبيبة، رملة أخت أبي سفيان، وزوج عبد الله بن جحش الذي توفي نصرانيّاً في الحبشة. فتزوّجها النبي أيضاً ليرتبط مع أبي سفيان زعيم مكة برابطة النسب توكيداً لصلح الحديبية وتسهيلاً لفتح مكة.

٤) وقضى النبي بقية عامه في المدينة يستعد لعمرة القضاء، تنفيذاً لعهد الحديبية في العام السابق.

في هذه الأثناء قيل بأن اليهود سحروا محمداً بفعل لبيد، حتى كان يحسب أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله. ثم صحا ودعا إلى العمرة.

فكانت عمرة القضاء سنة تسع أي ٦٢٩م. سار المسلمون، وكان عددهم نحو ألفين، وفي الطليعة مائة فارس يستطلعون أخبار قريش. ولكن قريش براً بالعهد جلت كلها عن مكة. فدخلها المسلمون وطوّفوا بالبيت العتيق بشوق عميق. ومكثوا بمكة الأيام الثلاثة المفروضة في المعاهدة.

وفي هذه العمرة تزوج محمد ميمونة، أخت زوج أبي سفيان، وخالة خالد بن الوليد. وتولى أبو سفيان إنكاحه إياها. فكان ذلك حافزاً لخالد بن الوليد أن يُسلم؛ فأسلم وأهدى النبي أفراساً له. وتبعه عمرو بن العاص وحارس الكعبة عثمان بن طلحة. وقد أسلم بإسلام هؤلاء كثيرون من مكة. وبات فتح مكة مأمولاً ميسوراً.

وفي هذه الأحداث الثلاثة: هدنة الحديبية وغزو خيبر وعمرة القضاء نزلت سورة الفتح. ونزلت قبلها سورة الحج في تهيئتها، وبعدها سورتا الممتحنة والحجرات في بعض أحداثها. ونزلت في هذه الأثناء أيضاً سور التحريم والتغابن والجمعة والصف في حوادث داخلية.

*

* *

الثالثة عشرة : (أو ١٠٣) الحج (٢٢) « **وأذّن في الناس بالحج** » .

فذلكة : الحج سورة متبعّضة ، أي بعضها مكّي ، وبعضها مدني ، في أقسام ظاهرة التعبير والتفكير. وخطاب المشركين ودعوتهم دليل على الأقسام المكية . والسورة بمجملها مكية (١) ، سوى تجديد

---

(١) قال دروزة: « ترجيحنا أن جل آيات الحج مكي ؛ وبعض الروايات تذكرها في عداد السور المدنيّة » (قرآن مجيد ١٠١ في الحاشية) .

فريضة الحج للبيت العتيق (٢٥ ـ ٣٧) . والسورة ثلاث سور متكاملة قائمة بذاتها .

قيل فيها من الناسخ موضع، ومن المنسوخ ثلاثة .

السورة الأولى منها: (١ ـ ٢٤) ـ **مكيّة** ـ دعوة الناس إلى الإيمان بالبعث والتوحيد.

أولاً : **دعوة إلى الإيمان بالبعث** (١ ـ ١٠)

مطلع (١): إن زلزلة الساعة شيء عظيم.

١) أهوالها (٢) تذهل المرضع[١] والحامل، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

٢) براهينها (٣ ـ ٦) ـ الجدال فيها من الشيطان (٣ ـ ٤)

ـ خلق الإنسان من تراب، ثم من نطفة في رحم، دليل الخلق الجديد (٥).

ـ مثل المطر الذي يحيي الأرض الهامدة (آخر ٥).

ـ الله هو الحق، ويحيي الموتى، وإنه على كل شيء قدير (٦).

ـ إن الساعة آتية: هذا تعليم الكتاب المنير، الذي لا جدال بدونه (٧ ـ ٩).

ختام (٩ ـ ١٠): للمجادل في البعث: في الدنيا خزي، ويوم القيامة عذاب الحريق.

ثانياً : **دعوة إلى الإيمان بالله** (١١ ـ ٢٤)

مطلع (١١): عبادة الله على حرف[٢]!

١) **توحيد**: باطل الشرك، وعاقبة الإيمان (١٢ ـ ١٤) ـ الآية ١٥ مدنية مقحمة.

يوم القيامة يفصل الله بين الناس في دينهم (١٦ ـ ١٧).

٢) برهان صوفي على التوحيد: كل الخليقة تسجد لله (١٨).

وقال أيضاً « إن السورة مما اختلف في مكيِّه ومدنيِّه، وإن كان المتفق أن الآيات (٣٨ ـ ٤١) مدنية ؛ وهي أول الآيات التي نزلت في مبادئ الجهاد على ما ذهب إليه الجمهور ، وما يلهمه مضمونها وصيغتها » (سيرة الرسول ٢ : ٢٢٧) فهذا الإذن قبل الفريضة في سورة البقرة .

(١) الآية ٢ « تذهل كل مرضع عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها » صورة إنجيلية : « الويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام » (متى ٢٤ : ١٩ ـ ٢٠) .

(٢) الآيات (١١ ـ ١٥) تشير إلى فتنة الارتداد عن الإسلام في آخر العهد بمكة ، مما يجعل هذه السورة من زمن سورة النحل .

٣) حديث الآخرة (١٩ ـ ٢٣) آخرة الكافر[١]: ثياب من نار، وحميم على الرؤوس ؛
آخرة المؤمن : جنات وأنهار، وأساور من ذهب
وعقد من لؤلؤ ، ولباس من حرير !

ختام (٢٤): هذا هو القول الطيب، والصراط الحميد.

*

السورة الثانية منها : (٢٥ ـ ٣٧) **مدنية:** تجديد فريضة الحج استعداداً لفتح مكة.

أولاً : تجديد فريضة الحج (٢٥ ـ ٣٧)

مطلع (٢٥): جعل الله المسجد الحرام سواء لجميع الناس[٢].

١) الكعبة من إبراهيم والحج إليها فريضة، وأولى بها أهل ملة إبراهيم[٣] (٢٦ ـ ٢٩).

٢) تعظيم حرمات الله، وشعائر الله، من تقوى القلوب[٤] (٣٠ ـ ٣٣).

ـ آخر الآية (٣٠) و (٣١) مقحمة على السياق.

٣) لكل أمة جعلنا منسكاً، والكعبة منسك العرب أجمعين (٣٤ ـ ٣٥).

---

(١) الآية (١٩) « هذان خصمان اختصموا » : الخصم يطلق على الواحد والجماعة (الجلالان) ؛ والأصح « اختصما » حملاً على ظاهر قوله (هذان خصمان) .

(٢) الآية ٢٥ « إن الذين كفروا ويصدون » ـ عطف المضارع على الماضي . وقوله « ومَن يردْ فيه بإلحاد ، بظلم » قيل أن كلمة (بظلم) ناسخة لكلمة (بإلحاد) مفسرة لها لأن أهل مكة لم يكونوا ملحدين بل مشركين . وقوله « نذقْه من عذاب أليم » جواب (منَ) ؛ والأصل فيه (نذقُه عذاباً أليماً) عدل عنه إلى التبعيض لضرورة الفاصلة .

ـ الآية ٢٧ « يأتوك رجالاً ، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » أي الضوامر حملاً على المعنى (الجلالان) ـ من يلبي الأذان للحج الرجال والركبان أم الضوامر ؟

(٣) الآية ٢٨ « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » قال النحاس (ص ١٨٧) : « قالوا إنها ناسخة لعادتهم فقد كانوا لا يأكلون من لحوم ضحيّتهم . وقيل هذا ندب لا إيجاب ، ويستحبون أن يتصدّق الحاج بالثلث ويطعم الثلث ، ويأكل الثلث هو وأهله ؛ واختلفوا في الادخار » .

(٤) الآية (٣٠) هنا ندب على إقامة شعائر الله ؛ وفي المائدة فريضة .

ومن شعائره ضحية الإبل للتقوى ((فلن ينال الله لحومها))[١] (٣٦ ـ ٣٧).

ختام: ((وبشر المحسنين)) (آخر الآية ٣٧).

ثانياً : الأذن بقتال أهل مكة، أهل الحرام، لظلمهم (٣٨ ـ ٤١)

مطلع (٣٨): إن الله يدافع عن الذين آمنوا.

١) الأذن بقتال أهل مكة، لأنهم أخرجوهم من ديارهم بغير حق[٢] (٣٩ ـ ٤٠).

٢) ضرورة القتال: للحفاظ على بيوت الله من الفساد والشرك[٣] (آخر ٤٠).

وتمكين المسلمين من إقامة التوحيد، والمعروف بين الناس (٤١).

ختام (آخر الآية ٤١): ولله عاقبة الأمور.

*

السورة الثالثة منها : (٤٢ ـ ٧٨) **متبعّضة** (بعضها مكي وبعضها مدني).

أولاً : تكذيب الرسول (٤٢ ـ ٦٠).

١) التكذيب عادة قديمة في الناس عاقبتها دائماً الهلاك (٤٢ ـ ٦٠).

٢) الاستعجال بالعذاب لا ينفع وأن يوماً واحداً عند ربك كألف سنة[٤] (٤٧ ـ ٥١).

٣) والمغالطة بالقرآن باطلة: لأن سهو النبي في التبليغ يحكمه الله. وأهل الكتاب

---

(١) الآية ٣٧ ((لن ينال الله لحومها ولا دماءَها ، بل يناله التقوى منكم)) : فلسفة رائعة للضحية ، وهي تعليم الأنبياء قابل (عاموس ٥ : ٢١) .

(٢) الآية (٣٩) ((أذن للذين يقاتلون)) : أول آية نزلت في الجهاد ، وهي ناسخة للمنع من القتال .

(٣) الآية (٤٠) عن الجلالين : يضع القرآن على قدم المساواة صوامع الرهبان وبيع النصارى وصلوات اليهود ومساجد المسلمين ، فحرمتها واحدة ، والعبادة فيها واحدة .

(٤) قوله ((إن يوماً واحداً عند ربك كألف سنة)) تعبير نبوي ، زبوري متواتر .

يعلمون أن هذا حق، ولو كان المشركون في شقاق ومرية[1] (٥٢ ـ ٥٧).

ـ الآيات (٥٨ ـ ٦٠) مدنية مقحمة على السياق.

*

ثانياً : سورة في ضرورة التوحيد (٦١ ـ ٧٤)

مطلع (٦٢): الله هو الحق، وغيره الباطل، وهو العلي الكبير[2].

١) براهين التوحيد (٦١ ـ ٧٢).

ـ قدرة الله التي تتجلى في خلقه تدل على وحدانيته (٦١ ـ ٦٦).

ـ الآيات (٦٧ ـ ٦٩) مقحمة من المدينة: النزاع على مناسك الحج!

ـ علم الله الواسع يدل على وحدانيته. وعلمه في كتاب (٧٠).

ـ استطراد (٧١ ـ ٧٢) يعبدون الباطل ويكادون يسطون بالموحدين!

٢) مثل التوحيد والشرك: يعجز الشركاء عن خلق ذباب أو حفظه[3] (٧٣ ـ ٧٤).

---

(١) الآية ٥٢ « وما أرسلنا من قبلك ... ألقى الشيطان في أمنيته » . قال النحاس : « في أمنيته أي في سره أو في قراءَته وعليه أكثر التأويل . وعن ابن عباس : (إذا تمنّى) أي حدّث ، (ألقى الشيطان في أمنيته) في حديثه أي في سرّه وخاطره ، ما يوهمه به أنه الصواب ؛ ثم نبهه إلى ذلك . وقد صح عنه (ص) أنه قال (أنه لَيُغَانُ على قلبي فاستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة) ومعنى (غين غيناً، غُطِّي عليه وألبس) فيكون الإلقاء الشيطاني في سر النبي ؛ وأكثر أهل التأويل على القول الآخر (في أمنيته أي قراءَته) . وروي في الذي نسخه الله تعالى مما ألقى الشيطان إلى محمد ص. أحاديث : عن الزهري وقتادة أنه حديث الغرانيق ؛ وزاد الواقدي : فسجد المشركون كلهم إلا الوليد بن مغيرة ؛ ثم قال : فنزل جبريل فقرأ عليه النبي (ص) هذا . فقال له : « ما جئتُك به! » ـ وتفسير الجلالين يثبتُ قصة الغرانيق ، وكذلك (أسباب النزول) . وقول القرآن « لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » تثبت صحة الأحاديث المنقولة بالتواتر. وقوله « الشقاق البعيد » فسره الجلالان : « الخلاف الطويل بين النبي والمشركين حيث جرى على لسانه ذكر آلهتهم بما يرضيهم، ثم أبطل ذلك » . وفكرة إمكان تدخل الشيطان في الوحي ، وإن أحكمه الله بعد إفساد الشيطان له ، شبهة مؤلمة على هذا الوحي . وهذا من غرائب القرآن ولا مثيل له في الكتاب .

(٢) الآية ٦٢ مكانها قبل الآية ٦١ التي تبدأ براهين التوحيد .

(٣) الآية (٧٣) « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوه » هو أسلوب إنجيلي متواتر .

ختام (٧٥ ـ ٧٧): الله يصطفي الرسل: فاعبدوا الله، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون.

ـ الآية (٧٨) ملحقة من المدينة: الجهاد الحق في سبيل ملة إبراهيم، التي هي الإسلام في الكتاب والقرآن[١].

*

* *

الرابعة عشرة : (١٠٤) **التحريم** (٦٦) « وقد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم » .

فذلكة : أسباب نزولها تنص على أنها نزلت في سببين : الأول في تحريم سريته مارية القبطية أم إبراهيم ؛ أخرج الطبراني بسند ضعيف من حديث أبي هريرة قال : خلا رسول الله ص. بمارية سريته في بيت حفصة فجاءت فوجدتها معه ، فقالت : يا رسول الله في بيتي ، دون بيوت نسائك ؟! قال فإنها حرام علي أن أمسها يا حفصة واكتمي هذا علي ، فخرجت حتى أتت عائشة فأخبرتها فأنزل الله تحلة الايمان » . والثاني في تحريم العسل عليه إرضاءً لعائشة وحفصة : « وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال : كان رسول الله ص. يشرب العسل عند سودة ، فدخل على عائشة فقالت إني أجد منك ريحاً ! ثم دخل على حفصة فقالت مثل ذلك . فقال أراه من شراب شربته عند سودة ، والله لا أشربه ، فنزلت التحلّة . وله شاهد في الصحيحين ، قال الحافظ يحتمل أن تكون الآية (١) قد نزلت في السببين معاً » .

قال عبد المتعال الصعيدي (النظم الفني في القرآن ٣٢٠) : « نزلت هذه السورة فيما كان من عائشة وحفصة حين شرب النبي ص. عسلاً عند زينب بنت جحش . فتواطأتا (غيرة منهما من الزوج الجديدة التي تذكر قصتها سورة الأحزاب) وقالتا له : إنّا نشم منك ريح المغافير، وريحه كريهة منكرة . فلما سمع منهما ذلك حرّم العسل على نفسه ، فنزلت هذه السورة لعتابه على تحريم العسل الذي أحلّ له ابتغاء مرضاة أزواجه ؛ وذكر أنه شرع لهم أن يتحلّلوا من أيمانهم بالكفّارة ، ليتحلّل من يمينه ويعود إلى شرب العسل ؛ وتهديد نسائه بطلاقهن إن لم يتبن عن هذه الغيرة فيما بينهنّ . ثم أمر النبي ص. بمجاهدة الكفار والمنافقين لئلا تشغله تلك الأمور من نسائه عنها » . وهكذا جاء حديث المغافير من عائشة وحفصة انتقاماً لحديث الإفك من جماعة زينب بنت جحش.

*

---

(١) الآية (٧٨) فيها تقديم وتأخير، والأصل : « وجاهدوا في الله حق جهاده ، وما جعلنا عليكم في الدين من حَرَج . وهو اجتباكم ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سمَّاكم للمسلمين من قبل وفي هذا ، ليكون الرسول شهيداً عليكم » .

قوله (وما جعلنا عليكم في الدين من حرج) ناسخ لما قبله (وجاهدوا في الله حقّ جهاده) .
لاحظ تحديد القرآن لملة إبراهيم : إنها الإسلام في الكتاب والقرآن على السواء ، وفي الكتاب قبل القرآن . وقوله (هو سماكم المسلمين من قبلُ وفي هذا) شُعر بأن القرآن أخذ اسم الإسلام عن أهل الكتاب .

مطلع (١ ـ ٢) التحريم، وتحليله[١].

١) الحادث (٣ ـ ٤) سرّ النبي؛ أظهر الله له إفشاءَه؛ فلا ينفع تنصّل أزواجه منه.

٢) تهديد المتظاهرات على النبي من نسائه بالطلاق[٢] (٤ ـ ٥).

٣) وعيد المؤمنين والمنافقين بنار وقودها الناس والحجارة[٣] إن لم يتوبوا توبة نصوحاً عن هذا الحديث (٦ ـ ٨) وتهديد الكفار والمنافقين بالغلظة والجهاد إن لم يكفّوا عنه (٩).

٤) ترهيب للكف عن الحديث بمثل امرأة لوط (١٠) وترغيب للتائبين عنه بمثل امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران التي صدقت بكلمات ربها وكتبه[٤] (١١).

*

* *

الخامسة عشرة : (أو ١٠٥) **التغابن** (٦٤) نشيد الحمد على توفيق النبي في آخر العهد بمكة.

فذلكة : التغابن سورة متبعضة فيها قسم مكي ، وقسم مدني ؛ يدل عليهما اختلاف الفاصلة . وربما في قوله « إنما أولادكم وأموالكم فتنة » عن الإنفاق ؛ إشارة إلى ما قبل صل الحديبية .

والسورة فيها من الناسخ موضع ، ولا منسوخ فيها .

السورة المكية (١ ـ ١٠) يوم القيامة هو يوم التغابن.

مطلع (١ ـ ٢): يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض. وهو الذي خلقكم!

١) توحيد (٣ ـ ٤).

خلق السماوات والأرض بالحق (٣) وصوركم وأحسن صوركم (٣).

يعلم ما في الكائنات، وما تسرون وما تعلنون (٤).

---

(١) الآية ٢ « قد فرض لكم تحلّة أيمانكم » : تحلّة اليمين بي صاحبه : فهل تبقى حرمة مأمونة لليمين ؟
(٢) في سورة النور نزلت براءة عائشة من حديث الإفك ، وفي سورة التحريم نزلت خيانة عائشة وحفصة لسرّ النبي !
(٣) الآية ٦ « عليها ملائكة غلاظ شداد » فكرة نصرانية شائعة (cf. Migne: Patr. gr. X p. 796)
(٤) الآية ١٢ « وصدقت بكلمات ربها وكتبه » وفي قراءة أخرى « بكلمة ربها وكتابه » أي بالمسيح والإنجيل (البيضاوي) .

٢) قصص بالإشارة (٥ ـ ٦).

ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم (٥).

قالوا: أبشر يهدوننا! وتولوا؛ واستغنى الله عنهم! (٦).

٣) حديث الآخرة (٧ ـ ٨).

زعموا أن لن يبعثوا: قل بلى وربي لتبعثُنَّ! (٧).

آمنوا بالرسول الذي ينبئكم بيوم الجمع: ذلك يوم التغابن (٨ ـ ٩).

ختام (٩ ـ١٠): مصير المؤمنين: جنات تجري من تحتها الأنهار؛ ومصير الكافرين، النار.

*

السورة المدنية (١١ ـ ١٨)

المصيبة بإذن الله: فأطيعوا الله والرسول (١١ ـ ١٣).

من أزواجكم وأولادكم عدو لكم؛ لا بل إنما أولادكم وأموالكم فتنة لكم (١٤ ـ ١٥).

فاتقوا الله[1] وأطيعوا وأنفقوا: هذا قرض حسن لله، يضاعفه لكم (١٦ ـ ١٧).

ختام (١٨): هو عالم الغيب والشهادة، العزيز الحكيم.

*

* *

السادسة عشرة : (أو ١٠٦) **الجمعة** (٦٢) نشيد الحمد بعد أحداث غزوة الخندق.

فذلكة : بعد القضاء على جميع اليهود في المدينة ، صاروا في سورة البينة ((شر البرية)) ؛ والآن في سورة الجمعة يمسون ، مثل الحمار يحمل أسفاراً ولا يدري ما يحمل . وهذا يوحي أنها نزلت ما بين الخندق والحديبية في مطلع العهد الثاني بالمدينة حيث يتم الانفصال نهائياً عن أهل الكتاب بتجديد فريضة الحج (سورة الحج) وبتأسيس يوم الجمعة يوم صلاة خاص بالمسلمين ؛ واختار يوم الجمعة للصلاة الرسمية الأسبوعية ، لأنه كان يوم العروبة الموروث عن أحد أجداده .

والسورة محكمة لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

---

(١) الآية ١٦ ((فاتقوا الله ما استطعتم)) ناسخة لقوله ((فاتقوا الله حق تقاته)) .

مطلع (١): تسبيح الله على الخلاص من اليهود في المدينة[١].

١) النبي الأمّي هو معلم الكتاب الحق للأميين، لا اليهود الذين حملوا التوراة كالحمار[٢] (٢ - ٥).

٢) كانوا يزعمون أنهم أولياء الله من دون الناس، فلاقاهم الموت الذي كانوا يفرون منه (٦ - ٨).

ختام السورة (آخر ٨): عالم الغيب والشهادة ينبئهم بما كانوا يعملون!

ملحق (٩ - ١١): احترام صلاة الجمعة[٣] بترك البيع وحضورها، والابتعاد في أثنائها عن التجارة[٤] واللهو.

*

* *

السابعة عشرة : (أو ١٠٧) **الفتح** (٤٨): **الحملة السلمية على مكة « الفتح المبين »** .

فذلكة : نزلت سورة الفتح في تبرئة سياسة النبي في هدنة الحديبية . ويسمّي ذاك الصلح « فتحاً مبيناً » لأنه كان الفتح السياسي لمكة تمهيداً للفتح العسكري . وكانت حملة الحديبية الدينية على مكة في أواخر السنة السادسة للهجرة ، وفي أشهر حجها أي في مطلع العام ٦٢٨م. تبعتها للحال غزوة خيبر ، في آذار ٦٢٨ ، للتعويض بغنائمها السهلة على ما فات المسلمين من الغنائم في الحملة السلمية على مكة . وتلتها في العام القابل ، آذار ٦٢٩م ، عمرة القضاء إلى مكة ، تنفيذاً لبنود معاهدة الحديبية . فنزلت السورة على مراحل تصف نصر الله لنبيّه ، ونصر دينه على الدين كله ، ولو كره المشركون ، وشكك المنافقون .

والسورة فيها من الناسخ موضع ، ولا منسوخ فيها .

*

---

(١) الآية ١ « الله هو الملك القدوس » تعبير نبوي متواتر عند أنبياء الكتاب الذين يسمون الله ، ملك إسرائيل، وقدوس إسرائيل . قابل أشعيا (٦) حيث صفة « قدوس » تأخذ كل روعتها .

(٢) الآية ٢ « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم » تشير إلى صفته « النبي الأمي » مما يجعل هذا الوصف في سورة الأعراف (١٥٦) من آخر العهد الأول بالمدينة .

(٣) الآية ٩ صلاة الجمعة : اختار يوم الجمعة للصلاة الرسمية في المساجد ، لأنه كان يوم العروبة يجتمع فيه العرب لكل أمر (قابل دروزة : عصر النبي ٤٤٠) فُرِضَ يوم خاص للعبادة الرسمية إقتداءً باليهود والنصارى . والصلاة إجبارية خمس مرات في اليوم ، ولكنها تجوز في كل مكان ؛ ليس من إجباري في الجامع إلا صلاة الجمعة عند الظهر . إنه يوم صلاة إجبارية، ولكن ليس يوم عطلة أو راحة بنص القرآن القاطع « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » .

(٤) الآية ١١ لا تعطينا صورة مشرفة عن تقوى الجماعة في عهد النبي.

مطلع (١ ـ ٣): ((إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً[١] ـ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر[٢] ـ وينصرك نصراً عزيزاً)) .

أولاً: **هدنة الحديبية** (٤ ـ ١٥) مظهر أول لهذا الفتح

١) قبل المعاهدة: سكينة الله تزيد المؤمنين إيماناً، والمنافقين والمشركين سوءاً (٤ ـ ٧). مبايعة الرضوان تحت الشجرة، **على الموت** تحمل المشركين على طلب الصلح[٣] (٨ ـ ١٠).

٢) بعد المعاهدة: مواقف المخلفين من الأعراب (١١ ـ ١٧).

الموقف الأول: اعتذارهم الواهي عن الزحف المقدس إلى مكة (١١ ـ ١٤).

الموقف الثاني: طلبهم الاشتراك بغزوة خيبر ذات المغانم السهلة: يرفض[٤] (١٥).

الموقف الثالث ـ مقحم من زمن متأخر ـ دعوتهم إلى حملة جديدة[٥] (١٦ ـ ١٧).

---

(١) الآية ١ ((إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)) هو فتح مكة بحسب الطبري ؛ ولكن فتح مكة اشترك فيه الأعراب وهنا يتخلفون ويعتذرون (١٦) فالفتح المذكور هو معاهدة الصلح في الحديبية التي سعى إليها المكيون بعد أن سمعوا بمبايعة النبي على الموت في الحملة السائرة إلى مكة ، كما جاءَ في أسباب النزول ((أخرج الحاكم وغيره قال نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها)) .

(٢) الآية ٢ ((ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) قال البيضاوي : ((جميع ما فرط منك مما يصح أن يعاتب عليه)) . وفي تفسير ابن عباس ((لكي يغفر لك الله ما سلف من ذنوبك قبل الوحي ، وما تأخر وما يكون بعد الوحي إلى الموت)) . وفي الزمخشري عن مجاهد ((ما تقدم في الجاهلية وما بعدها . وقيل ما تقدم من حديث مارية (التحريم) وما تأخر من امرأة زيد (الأحزاب))) ـ وهكذا يكون ما ورد من تبرئة للحادثتين ، في السورتين ، لم يرفع الشعور بالذنب إلا بعد هذا النصر على الشرك .

(٣) الآية ٩ ((لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلاً)) تضيع الضمائر بين الله ورسوله . والآية (١٠) كانت المبايعة على الموت (صحيح البخاري ٣ : ٢٩ ـ ٣٠) .

(٤) الآية ١٥ ((سيقول المخلفون من الأعراب إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها)) : لم تكن الحملة إلى الشمال في خيبر وفدك وتيماء من وادي القرى لنشر الإسلام بين اليهود ، بل ((انطلاقاً إلى مغانم ليأخذوها)) ... وما بين الآية (١٥) التي ترفض اشتراك المخلفين من الأعراب بالغزو، والآية (١٦) التي تدعوهم إليه ، تعارض يزول متى عرفنا أن الكلام عن موقفين مختلفين ، الأول في غزو خيبر حالاً بعد امتناعهم عن الاشتراك في الحملة السلمية على مكة ، والثاني في ظروف حملة أخرى اضطربت فيها الروايات .

(٥) الآية ١٦ ((قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون)) : الهدف هذا القتال أو الإسلام ، لا مجال لحلّ وسط : فمن هم هؤلاء القوم ؟ في أحاديث الطبري عن ابن عباس أنها تعني الفرس ؛ وعن الحسن البصري وقتادة أنها تعني الروم والفرس معاً ؛ وعن عكرمة وسعيد بن جبير أنها تقصد هوازن في معركة حنين سنة ٦٣٠ بعد فتح مكة . وقد تقصد الحملة على تبوك ضد العرب النصارى والروم في مشارف الشام ؛ أو بني حنيفة قوم مسيلمة الكذاب .

ثانياً : **فتح خيبر**، ومغانمها الكثيرة (١٨ ـ ٢٠)

كان مكافأة من الله بيعة الرضوان تحت الشجرة!

ثالثاً : **عمرة القضاء** إلى مكة سنة ٦٢٩م.

كانت تصديقاً لوعد الله بعد المعاهدة (٢١ ـ ٢٨)

إنها مكافأة ((أخرى)) لبيعة الرضوان في الحديبية (٢١).

حجز المشركين عن قتالكم ببطن مكة دليل آخر على رضى الله[1] (٢٢ ـ ٢٦).

بهذه العمرة صدق الله رسوله الرؤيا بدخوله المسجد الحرام، ممهداً له بفتح الحديبية (٢٧).

بذاك الفتح وهذه العمرة ظهر دين الحق على الدين كله (٢٨).

ختام (٢٩): محمد والذين معه أهل حرب وصلاة:

((سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة!

((ومثلهم في الإنجيل كزرع استوى على سوقه يعجب الزراع ويغيظ الكفار[2]!)) .

*

* *

الثامنة عشرة : (أو ١٠٨) **الحجرات** (٤٩) **آداب المسلمين من النبي.**

فذلكة : جاء في الطبري نقلاً عن البخاري أنه قام شجار بين الصحابة ، ما بين عمر بن الخطاب وأبي بكر الصديق بحضرة النبي ، وربما في شأن معاهدة الحديبية ، فنزلت السورة بالحكم في الحادثة ، وآداب المسلمين مع النبي في غيرها من الحوادث . وسيرة ابن هشام (٤ : ٢٠٦) تجعل نزولها في وفد بني تميم من عام الوفود .

قيل فيها من الناسخ موضعان ولا منسوخ فيها .

---

(١) الآية ٢٤ ((كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة)) أي واديها ، فلا تعني الحديبية التي هي في نجد مكة . فسر البيضاوي ((بطن مكة)) بداخلها ؛ ولكن قوله ((من بعد أن أظفركم عليهم)) يمنع من ذلك : لا يقصد الحديبية ، ولا فتح مكة الأكبر ، ولا يستقيم الحديث إلا بمحاولة قريش قتال المسلمين في عمرة القضاء فمنعهم الله بعد ظهور المسلمين عليهم في الحديبية .

(٢) الآية ٢٩ تظهر أن معرفة النبي للتوراة والإنجيل في ازدياد ؛ فقد صار يذكر تفاصيل دقيقة منهما مثل مَثَل الزرع في الإنجيل (مرقس ٢٦) .

ـ وقوله ((سيماهم في وجوههم من أثر السجود)) : السجود في الصلاة يجهله العرب ، وتكرهه اليهود ، وهو عادة رهبانية .

السورة الأولى منها: (١ ـ ١٣) من زمن الحديبية:

١) أدب المؤمنين مع رسول الله (١ ـ ٥): لا يتقدّموا عليه بالرأي ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت الرسول، ولا يجهروا له بالخطاب كجهر بعضهم لبعض، ولا ينادوه كالجهال من وراء الحجرات.

٢) سياسة المؤمنين في سماع الأخبار (٦ ـ ٨) تبيّنوا صدق الأخبار، ولا تضغطوا على النبي ليطيعكم.

٣) ترغيب المؤمنين في الصلح، وإكراه الباغي عليه (٩ ـ ١٠)[١].

٤) المحبة الأخوية الإسلامية (١١ ــ ١٢) لا سخرية، ولا لَمْز، ولا تنابذ بالألقاب. واجتنبوا كثيراً من الظنّ، ولا تجسّسوا، ولا يغتب بعضكم بعضاً: « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً » ؟

ختام (١٣): ولا تتفاخروا بالنسب، وإنما الفخر بالتقوى.

*

السورة الثانية منها : (١٤ ـ ١٨) بعد فتح مكة ودخول الأعراب في الإسلام:

ـ قالت الأعراب: آمنا! قولوا أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمان قلوبكم: المؤمنون الصادقون هم المجاهدون (١٤ ـ ١٦).

ـ يمنّون عليك أن أسلموا: قل لا تمنّوا عليَّ إسلامكم، بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم إلى الإسلام (١٧ ـ ١٨).

---

(١) الحجرات (٩ ــ ١٠) قال دروزة معقباً : « ومما روي أن الآيتين نزلتا بمناسبة نزاع بين عائلتين متصاهرتين انتهى إلى الاقتتال ، وهو ما تلهمه الآيتان ... على الفريق الثالث ألا يقف منه موقف الساكت المتفرج بل يسارع إلى فضة وإحقاق الحق لأهله بدون محاباة ، ونصرة المظلوم المبغي عليه بالسلاح إذا لم يرتدع الظالم .
« ولقد يكون من ملهمات تطبيقهما احتمال قيام حكومات إسلامية عدة ، ووجوب قيام الإخوة والتضامن والاتحاد بينها ؛ فإذا ما نشب خلاف وقتال بين حكومتين منها وجب على سائرها التدخل لحل المشكل ولو أدّى ذلك إلى قتاله » . (سيرة الرسول ٢ : ٢٥٦) .

التاسعة عشرة أو (١٠٩) **الممتحنة** (٦٠) تفسير لمعنى صلح الحديبية:

((عسى يجعل الله بينكم وبينهم مودة))

فذلكة : نزلت بعد معاهدة الحديبية تفسيراً للموقف الذي يجب أن يقفوه من ((المودة)) بينهم وبين أهل مكة ؛ ولأحد بنود المعاهدة، في استثناء المؤمنات المهاجرات إلى النبي. ((وقد أجمع المفسرون والرواة أن الآيات (١ ـ ٣) نزلت بين يدي الفتح المكي وبمناسبة إرسال أحد المسلمين لبعض زعماء مكة تحذيراً باستعداد النبي لغزو مكة (١) .

والسورة فيها من الناسخ موضع ومن المنسوخ ثلاثة .

أولاً : نوع المودة مع أهل مكة بعد عقد الصلح (١ ـ ٩)

١) الصلح لا يعني المودّة: فلا تسروا إليهم بالمودة[٢] (١ ـ ٢).

٢) مثل إبراهيم في تبرئته من قومه وأهله (٣ ـ ٧).

٣) لا ينهاكم الله عن موادّة الجميع، بل عن المودة مع الذين قاتلوكم وأخرجوكم[٣] من دياركم (٨ ـ ٩).

ثانياً : المؤمنات المهاجرات بعد عقد الصلح (١٠ ـ ١١)

١) لا تردوا المؤمنات المهاجرات، وأتوا أزواجهن ما أنفقوا؛ ولا تمسكوا بعِصَم زوجاتكم الكوافر إن أردن فراراً إليهم، واسألوا ما أنفقتم[٤] (١٠).

---

(١) دروزة: سيرة الرسول ٢ : ٢٩٨ .

(٢) الممتحنة ١ ـ ٣ قال دروزة : ((المروي أن الآيات نزلت بمناسبة أن أحد المسلمين أرسل رسالة إلى زعيم مكّي ينذره باستعداد النبي ص. لغزو مكة ؛ ومع احتمال صحة الرواية فإن الآيات تلهم أن العتاب المرير الذي احتوته (٧ ـ ٩) كان أوسع شمولاً ، وإن موقف المهاجرين نحو أقاربهم من مشركي مكة أكثر من أن يكون حادثاً فردياً ؛ كما أنها تحتوي دلالة على ما كان يثور في نفوسهم من أزمات لاضطرارهم إلى قتال أولئك الأقارب . وهناك ما يدل على تكرر المواقف والأزمات)) (سيرة الرسول ٢ : ٢٥٩) .

(٣) الآية ٨ البرّ بالمشركين . قال النحاس : ((قيل هو منسوخ بقتالهم . ومنهم من قال هي عامة محكمة : برّ المؤمن من بينه وبينه نسب أو قرابة من أهل الحرب غير منهي عنه وغير محرّم . وعن أسماء بنت أبي بكر وقد وفدت عليها أمّها وهي في عهد قريش فسمح لها الرسول أن تصلها)) .

(٤) الآية ١٠ ((إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فلا ترجعوهن إلى الكفار)) تفسير لأحد بنود معاهدة الحديبية . قال النحاس (٢٣٧) : ((نسخ الله بهذا ما كان النبي عاهد عليه قريشاً في الحديبية، أنه إذا جاءه

٢) وائتوا من الغنيمة من ذهبت زوجُه إلى الكفار، ولم يرد النفقة[1] (١١).

ثالثاً : مبايعة النساء المؤمنات، وشروطها الأدبية (١٢).

ملحق في اليهود (١٣)؛ لا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم، فقد يئسوا حتى من الآخرة!

*

* *

السورة العشرون : (أو ١١٠) **الصف** (٦١) ـ نشيد الحمد على فتح شمال الحجاز:

« بشر المؤمنين بالنصر والفتح القريب » .

فذلكة : هذه السورة دعوة إلى الجهاد والنفقة فيه ؛ ويبشر المؤمنين بنصر من الله وفتح قريب (١٣): مما يجعل السورة بين يدي غزوة الحديبية . والطائفة المؤمنة ستصير ظاهرة على الطائفة الكافرة . وفي السورة إشارات إلى بدءِ توجيه الدعوة القرآنية إلى اتباع عيسى والحواريين منذ مطلع العهد الثاني بالمدينة ، بعد تصفية يهود المدينة : فالمسيح قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه أحمد (٦) . مما يوحي بأنها نزلت قبل غزوة اليهود في وادي القرى ، لإيلاف النصارى العرب ممن حولهم في شمال الحجاز وأطراف الشام .

والسورة محكمة .

مطلع (١): نشيد الحمد على فتح وادي القرى: تسبح لله ما في السماوات وما في الأرض!

١) دعوة إلى الجهاد (٢ ـ ٦):

أحد منهم مسلماً رده إليهم : فنقض الله هذا في النساء . وقال بعضهم : في النساء والرجال » . وقوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) قال النحاس (٢٤٨) : هو منسوخ بقوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب): وقال قوم هي محكمة إلا أنها مخصوصة بمن كان من غير أهل الكتاب فإذا أسلم مجوسي أو وثني ولم تسلم امرأته فرّق بينهما ؛ وإن كان الزوجان نصرانيين وأسلمت الزوجة : فيه اختلاف » .

وقال أيضاً دروزة : « ولعل حكم الآية (١٠) بالتعويض على أزواج المسلمات المهاجرات مما اقتضته الحكمة لإرضاء معاهد يرى له شبهة من الحق ، وللتدليل على حسن النية في احترام الصلح من جانب النبي أيضاً ؛ ولم يرد في الروايات أن أزواج المهاجرات وذويهن قد رفضوا هذا الحل . ومما يلفت النظر أن الآية جعلت الحقوق متبادلة بين المسلمين والمشركين في التعويض عن النفقة . ففي هذا صور عما صار بين المسلمين والمشركين من ظروف عهدية وسلمية مستمرة ومحترمة من الطرفين » .

(١) الآية ١١ « فأتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » لفواته عليهم من جهة الكفار . وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين ثم ارتفع هذا الحكم (الجلالان) .

لِمَ التقاعس عن الجهاد؟ والله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص[1] (٢ ـ ٤).

ـ ترهيب بمثل تقاعس قوم موسى عن نصرته (٥).

ـ ترغيب ببشارة عيسى « بأحمد »[2] (٦).

ـ تحذير من التقاعس، لإطفاء نور الله، والله سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون (٧ ـ ٩).

٢) دعوة إلى الإنفاق في الجهاد (١٠ ـ ١٤).

ـ الجهاد بالمال والنفس تجارة تنجي من عذاب النار (١٠ ـ ١١).

ـ فيه غفران، وجنات عدن؛ وبشارة بنصر من الله وفتح قريب (١٢ ـ ١٣).

ختام (١٤) كونوا أنصار الله كالحوار بين أنصار عيسى الذين ظهروا على عدوهم، الطائفة من بني إسرائيل، التي كفرت بعيسى.

*

* *

---

(١) الآية ٤ « الذين يقاتلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص » : صورة كتابية « لكي يذكروا اسمي ويعبدوني صفاً مرصوصاً » (صوفونيا ٣ : ٩) .

(٢) الآية ٦ « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » : « الفارقليط » اسم الروح القدس في إنجيل يوحنا (قابل السيرة : تبشير يُحَنّس الحواري برسول الله ١ : ٢٤٨) فالروح القدس في إنجيل يوحنا يقيم مع الرسل ويكون فيهم : « يقيم معكم ويكون فيكم » (١٤ : ١٧) ؛ ويعلمكم كل شيء ويذكركم جميع ما قلتُ لكم » (١٤ ـ ٢٦) ؛ وهو يصدر من الله الآب ويشهد للمسيح ابن الآب : « روح الحق الذي ينبثق من الآب فهو يشهد لي » (١٥ : ٢٦) والحق هو يسوع المسيح (١٤ : ٦) فالروح القدس هو أيضاً روحه ؛ « روح الحق يرشدكم إلى الحقيقة كلها ، ويخبركم بما يأتي » (١٦ : ١٣) ؛ وبالروح القدس مع الآب والابن يجب أن يعمد الرسل الناس (متى ٢٨ : ١٩) وأعمال الرسل تشهد أن المسيح قبل رفعه وعدهم أن ينتظروا في أورشليم حتى ينالوا الروح القدس (١: ٤) وأنهم نالوه يوم عيد العنصرة عند اليهود ، عشرة أيام بعد صعود المسيح إلى السماء : « فامتلأوا كلهم من الروح القدس وطفقوا ينطقون بلغات أخرى كما آتاهم الروح أن ينطقوا » (٢ : ٤) : فالروح القدس ذات إلهية ، يصدر من الله ، ويقيم في نفس الرسل ، ويكون معهم ومع خلفائهم إلى منتهى الدهر ـ فهل ينطبق شيء من شهادة الإنجيل على « أحمد » القرآن ؟ وهذه الشهادة موجودة على رق إلى اليوم قبل القرآن بثلاثماية سنة .

البحث الثاني

فتح مكة، وجنوب الحجاز

(من غزوة مؤتة ٨ هـ = أيلول ٦٢٩- إلى فتح مكة والجنوب الحجازي٦٣٠)

« **إذا جاء نصر الله والفتح!** »
(سورة النصر)

تمهيد

أحداث هذه الفترة

تمتاز أحداث هذه الفترة بحملة عسكرية إلى الشمال في سرية مؤتة وبحملة عسكرية إلى الجنوب كانت القاضية على مكة.

١) سرية مؤتة (جمادى الأولى ٨ هـ = أيلول ٦٢٩).

لمّا أمن محمد غدر اليهود من جهة، وغدر قريش من جهة أخرى، اتجهت أنظاره إلى خارج الحجاز، خصوصاً إلى بلاد الشام تلك البلاد التي بارك الله حولها، حيث الجنات الأرضية تجري من تحتها الأنهار، وغاية الرحلات العربية التجارية من الهند واليمن إلى الشام.

وكان يقصد خصيصاً العرب النصارى في مشارف الشام والعراق، ويعرف أنهم في نزاع مع أسيادهم قيصر وكسرى؛ ولا شك أن العصبية العربية ستحملهم على قبول دعوته الدينية والقومية، في سبيل الاستقلال الديني والقومي.

وعرضت الفرصة بقتل رسله الخمسة عشر الذين أرسلهم إلى ذات الطَلَح يدعون للإسلام، لم ينجُ منهم إلا رئيسهم. رجع فأخبر النبي فجهّز ثلاثة آلاف لتأديبهم في جمادى الأولى سنة ٨ هـ = أيلول ٦٢٩م. واستعمل عليهم زيد بن حارثة. وكان أمر النبي

« إن أصيب زيد، فجعفر بن أبي طالب على الناس؛ وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

وخرج مع الجيش خالد بن الوليد ليدل على حسن إسلامه بحسن بلائه في الحرب.

وسمّي الجيش جيش الأمراء، والسرية سرية الأمراء.

سار القوم حتى بلغوا معان من البلقاء؛ ولقيهم شرحبيل عامل هرقل على الشام في جموع غفيرة من نصارى العرب[1] إلى مآب من البلقاء. والتقى الجمعان في قرية « مشارف ».

فانحاز المسلمون إلى مؤتة، قرب معان، يتحصنون بها من ملاقاة هذا العدو الذي يفوقهم عدَداً وعُدداً، والذي أحاط بهم من كل الجهات. فكان لا بد لهم من القتال، وإنما هي « إحدى الحسنَيْن: إمَّا ظهور وإما شهادة » ! ودارت رحى الحرب على المسلمين فقتل الأمراء الثلاثة زيد فجعفر فعبد الله بن رواحة. وآلى الأمر إلى خالد بن الوليد فأظهر مقدرة فائقة لاستخلاص باقي الجيش من الفناء فاقتنعوا من الهزيمة والغنيمة بالإياب.

وأصابت هذه الحملة الفاشلة نكسة في هيبة النبي والمسلمين، فعادت المناوشات بين أنصاره وأنصار قريش.

٢) فتح مكة الأكبر (رمضان ٨ هـ = كانون الثاني ٦٣٠).

بعد معاهدة الحديبية مع قريش دخلت خزاعة في عهد محمد، ودخل بنو بكر في عهد قريش ولمَّا فشلت حملة مؤتة، تنادى بنو بكر إلى ثاراتهم من خزاعة، حلفاء محمد، بتحريض من قريش. وقاتل مع بني الديل من بكر جماعة من قريش، عند الوتير وهو ماء بأسفل مكة. فاستنصرت خزاعة النبي، واستصرخ النبي جميع المسلمين إلى حملة نهائية على مكة.

وكان الإسلام قد فشا في نجد، ودخل في الإسلام ألوف من سُلَيْم وعلى رأسهم العباس بن مرداس، ومن أشجع ومن غطفان حلفاء خيبر قبل نكبتها، ومن عيسى وذبيان وفزارة. ومشى جيش المسلمين من عشرة آلاف في يَلَب الحديد يملئون الصحراء جلبة ودويّاً.

---

(١) الروايات الإسلامية تذكر أن جيش الروم كان نحو مئة ألف أو مئتي ألف بقيادة هرقل نفسه أو أخيه . ولكن المؤرخ الرومي تاوفانس يذكر أن جيش الروم كان من العرب النصارى المقيمين على الثغور لحمايتها من الأغراب وهو لا يبلغ تلك الأرقام الخيالية . Cf. Blachère: Problème de Mahomet p. 113

خشي أهل مكة العاقبة فأوفدوا زعيمهم أبا سفيان يتلافى الحال، ففشل وعاد خائباً. واستنفروا حلفاءَهم، ولكن معظمهم تأخر في مسيره، مثل هوازن وثقيف؛ ولم ينضم إلى القرشيين إلا بنو بكر من الأعراب، **وأحابيش مكة**، وهم الغرباء النازلون في ضواحي مكة والمختلطون من شتى القبائل والأجناس[١].

وبلغ الجيش الزاحف على مكة مَرَّ الظهران على أربعة فراسخ من مكة. فخرج العباس عم النبي في قوم من بني هاشم إلى النبي فأسلم وانخرط في جيش الفتح. فأركبه بغلته يتنقل عليها بين الكتائب، يجاوزها ليستطلع أخبار قريش ويفاوض أبا سفيان إن أمكن[٢]. وإذا به يلتقي بأبي سفيان يستطلع لقريش. فأقنعه أن لا سبيل لمكة بمقاومة جيوش المسلمين التي يراها. وأركبه في عجز البغلة وسارا بين نيران الكتائب حتى دخلا على النبي.

« النبي ـ ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلاّ الله؟

« أبو سفيان ـ بأبي أنت وأمي: ما أحملك وأكرمك وأوصلك!أمّا والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد.

« النبي ـ ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

« أبو سفيان ـ بأبي وأمي، ما أحملك وأكرمك وأوصلك! أمّا والله هذه فإن في النفس **منها حتى الآن شيئاً!**

فدخل العباس موجها القول إلى أبي سفيان أن يسلم قبل أن تُضْرب عنقه. ولم يجد أبو سفيان أمام هذا إلاّ أن يُسلم.

وتوجه العباس بالقول إلى النبي عليه السلام: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال رسول الله: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن! ومن أغلق بابه فهو آمن! ومن دخل المسجد فهو آمن! ... وقال أبو سفيان للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً!

قال العباس: يا أبا سفيان إنها النبوة! قال: فنعم اذن[٣]» .

---

(١) سيرة الرسول (٢ : ٢٩٩) .
(٢) محمد فروخ العرب والإسلام ٥٢ .
(٣) هيكل : حياة محمد ٤٠٤ ـ ٤٠٦ . قابل سيرة ابن هشام ٤٥ ـ ٤٦ .

فقفل أبو سفيان زعيم المعارضة مسلماً ينادي بالإسلام؛ حينئذ رأى القرشيون أن لا طاقة لهم بالمقاومة فاستسلموا. ودخل المسلمون مكة بدون قتال. ووقف محمد على باب الكعبة يخطب في الناس: « لا إله إلا الله، وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. يا معشر قريش، ما ترون إني فاعل بكم؟ قالوا. خيراً! أخ كريم وابن أخ كريم! قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء » ! فكان العفو العام عن مكة وقريش.

ودخل الكعبة يطهّرها من الأصنام. روى الأزرقي[1]: « فلما كان يوم الفتح دخل رسول الله ص البيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم. ثم أمر بثوب فبُلَّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست ... ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور إلاّ ما تحت يديَّ. فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأمه! » .

واستثنى محمد من العفو سبعة عشر نفراً آذوه. ثم كلموه في أمرهم فعفا عنهم سوى أربعة أمر بقتلهم ولو تحت أستار الكعبة.

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ينظم شؤونها ويفقه أهلها في الدين.

٣) غزوة حنين ضد هوازن (٨ هـ - ٦٣٠).

أراد النبي أن يستغل نصره العظيم على قريش بإخضاع جنوب الحجاز كله لسلطانه. فأجمع القبائل من هوازن بنحو أربعة آلاف وعزموا أن يسيروا لحرب المسلمين. فضمّ محمد إلى جيشه ألفين من مكة، ولقيهم باثني عشر ألفاً وقيل ستة عشر ألفاً في وادي حنين وهو من أودية تهامة على بعد ثلاثين كيلو متراً ونيفاً إلى الشرق من مكة. فلما توسط المسلمون الوادي، هبط عليهم القوم من الأعالي وفرقوا جيش المسلمين. ويظهر أن التخاذل كان بسبب نفاق أهل مكة، عساها تدور الدائرة على المسلمين، وذلك لقول أبي سفيان وهم يفرون: إنهم لا يردّهم إلا البحر! ولم يثبت مع النبي في المعركة سوى كتيبته الخضراء، التي عدَّلت الموقف وسمحت للكتائب بتنظيم صفوفها والعودة إلى النصر. وحجزوا الغنائم والسبايا في الجعرانة. وبعد الرجوع من حصار الطائف، فرز الخمس له، وقسم الفيّء على المحاربين، واختصّ زعماء مكة « المؤلفة قلوبهم » بالنصيب الأوفى:

---

(١) أخبار مكة ١ : ١٠٤.

فأعطى مائة من الإبل كلا من أبي سفيان وابنه معاوية، والحارث بن الحارث بن كَلَدَة، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزّى وسائر الأشراف ورؤساء العشائر! وأعطى خمسين من الإبل مَن كانوا دون هؤلاء شأناً. وجاء وفد من هوازن مسلمين يستردون السبايا، فردّها عليهم من دون الأنعام. فعتب الأنصار على النبي لتمييزه قومه بالغنائم من دونهم. فجمعهم وقال لهم: « يا معشر الأنصار ما قالة بلغتني عنكمُ؟ وجِدة، وجدتموها في أنفسكم؟ أوجدتم يا معشر الأنصار في لـُعَاعة من الدنيا **تألفت بها قوماً ليُسْلِموا** ووكلتكم إلى إسلامكم! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم[1]! » . فكانت براعة من النبي لا مثيل لها راعتهم فرضوا.

٤) حصار الطائف.

بعد نصر حنين، مشى المسلمون إلى حصار الطائف. ولم ينس النبي كيف ردّوه رداً غير جميل لمَّا التجأ إليهم شريداً طريداً. فامتنعت ثقيف في حصون الطائف. ووقف المسلمون لديها حائرين. فطلب النبي من بني دوس وكان لهم علم بالرماية بالمنجنيق وبمهاجمة الحصون. ورمى المسلمون سور الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات من الخشب دخل تحتها نفر. فأحمى رجل ثقيف قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، وفرّ مَن تحتها فنالوهم بالنبال وقتلوا منهم. واضطر محمد أن يرفع الحصار خائباً. ورجع إلى مكة معتمراً. ونزلت سورة الحديد تسبح بحمد الله على نصر نبيه في فتح مكة. وكانت سورة المائدة تنزل منذ عمرة القضاء التي كانت فاتحة لفتح مكة؛ إلى تشريعات بعد فتح مكة، ومحاورات مع النصارى انتهت إلى المؤتمر الأكبر مع وفد نجران في عام الوفود.

*

* *

الحادية والعشرون : (أو ١١٠) **الحديد** (٥٧): نشيد الحمد على فتح مكة.

فذلكة : لا يعرف زمن نزول سورة الحديد . ولعل في الآية (١٠) إشارة إلى فتح مكة . وينقل الطبري أنها تقصد فتح الحديبية ، كما ذكرت سورة الفتح ؛ أو فتح مكة الأكبر سنة ٦٣٠م .

---

(١) هيكل : حياة محمد (٤٢٤) وقابل سيرة ابن هشام في الحادث نفسه .

قال دروزة: « سورة الحديد نزلت بعد الفتح المكي على ما يستفاد من بعض نصوصها (سيرة الرسول ٢ : ١٤٤) . ونحن نميل إلى هذا الرأي ونرى في سورة الحديد نشيد الحمد على الفتح الأعظم ؛ وفي ذاك اليوم صح قوله : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٢٥) . قال أيضاً « ويبدو من خلال الآيات (١٠ ـ ١١) أنها أنزلت بعد الفتح المكي وأن النبي ص قد وسّع دعوته إلى الإنفاق والجهاد حتى يتمكن من التنكيل بأعداء المسلمين بعد أن زال العائق المهم وهو مكة » (سيرة الرسول ٢ : ٢٠٧) .

والسورة محكمة ، لا منسوخ فيها ولا ناسخ .

١) نشيد الحمد على النصر بفتح مكة (١ ـ ٦).

٢) دعوة أولى إلى الإيمان والإنفاق (٧ ـ ١٥).

ـ دعوة أهل مكة إلى الإيمان بالرسول؛ هذا ميثاقكم، الذي بآياته يخرجكم من الظلمات إلى النور (٧ ـ ٩).

ـ دعوة إلى الإنفاق في سبيل الجهاد:

لا يستوي مَن أنفق وقاتل قبل الفتح أو من ينفق ويقاتل بعد الفتح (١٠).

الإنفاق في الجهاد قرض لله حسن، له الجنة (١١ ـ ١٢).

ـ ثم إن المنافقين والمنافقات في الإيمان والإنفاق، لا نور لهم في القيامة[1] (١٣ ـ ١٥).

٣) دعوة ثانية إلى الإيمان والإنفاق (١٦ ـ ٢١).

ـ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله؟ ولا يصيروا كأهل الكتاب في القساوة! (١٦ ـ ١٧).

ـ الصدقة قرض لله مضاعف: والمؤمنون الصادقون هم الصديقون والشهداء (١٨ ـ ١٩).

ـ إنما الحياة الدنيا متاع الغرور كمطر عابر: فسابقوا إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض (٢٠ ـ ٢١).

٤) ما بين فتح مكة وغزوة الطائف الفاشلة (٢٢ ـ ٢٧).

ـ موقف المسلمين: المصيبة من الله[2] لكيلا تأسوا على ما فاتكم، وتفرحوا فرح مختال

---

(١) الآية ١٣ «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم »تعبير إنجيلي : (متى ٢٥ : ٨) «قالت الجاهلات للحكيمات : أعطيننا من زيتكن فإن مصابيحنا تنطفئ » .

(٢) الآية ٢٢ «ما أصاب من مصيبة في الأرض ، ولا في أنفسكم ، إلا في كتاب من قبل أن نبرَأها »فيه تعليم صريح قاطع على تعليم القرآن القضاء والقدر كركن من أركانه .

فخور بما آتاكم (٢٢ ـ ٢٤). وقد أنزل الله مع النبي الكتاب والميزان (العدل) والحديد[١] (٢٥).

ـ موقف اليهود: جعل الله في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب، فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون (٢٦).

ـ موقف النصارى: قفى الله بعيسى وآتاه الإنجيل وجعل في قلوب الذين اتبعوه رحمة ورأفة؛ وابتدعوا رهبانية ما رعوها حق رعايتها[٢]؛ وكثير منهم فاسقون (٢٧).

ختام (٢٨) فآمنوا بالرسول يؤتكم الله نصيبين من رحمته، ليعلم أهل الكتاب عجزهم وفضل الله عليكم[٣].

*

* *

الثانية والعشرون: (أو ١١١) **المائدة: « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم »**

فذلكة : المائدة سورة متشعبة تطاول نزولها من عمرة القضاء سنة ٦٢٩م ، تنفيذاً لمعاهدة الحديبية، إلى عام الوفود سنة ٦٣١م والظاهرة الكبرى فيها أنها تحوي موقف القرآن من النصرانية في العهد الأخير بمكة، خصوصاً ذاك الجدل القرآني مع وفد نجران المسيحي في عام الوفود . والظاهرة الأخرى أنها تضم التشريعات القرآنية في الحلال والحرام ، وفي القضاء في أحوال أهل الكتاب الشخصية بموجب كتابهم؛ حيث يعلن نهائياً استقلال الشرائع الثلاث المنزلة في التوراة والإنجيل والقرآن مع « هيمنة القرآن عن الاقتضاء » .

والخلاف الأكبر بين المسلمين والمستشرقين على السواء، هو على آخر السور نزولاً: أهي المائدة أم براءة = التوبة فإنه على ذلك يبنى معرفة الناسخ والمنسوخ في التشريع وفي موقف القرآن الأخير من النصرانية ، لأن موقفه متعارض بين المائدة (٨٥) وبراءة (٣٠ ـ ٣١) .

---

(١) الآية ٢٥ فلسفة القرآن بالنسبة للكتاب : جعل الله في ذرية إبراهيم النبوة والكتاب ، ولكن أنزل مع محمد الكتاب والعدل والحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس ؛ والحديد ليس فقط لنشر التوحيد ، بل فيه « منافع للناس » .

(٢) الآيتان ٢٦ و ٢٧ توجزان موقف اليهود والنصارى من الدعوة القرآنية بعد الفتح : من اليهود مهتد، وكثير منهم فاسقون . ويمدح النصارى أحسن المدح « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رحمة ورأفة » ولو كان كثير منهم فاسقين ؛ ولا يذكر اهتداء أحد منهم : ليسوا بحاجة ، فهم حتى الآن حزب واحد مع المسلمين ، ولو بدأ النبي يشكون من الرهبان « الذين ما رعوا الرهبانية حق رعايتها » .

(٣) الآية ٢٨ بدأ القرآن يجعل في إسلام القرآن الفضل على إسلام التوراة والإنجيل : فليس أهل الكتاب ، أصحاب فضل الله وحبه ورضوانه (كما كان ذلك في مكة) ؛ بل أمسى أهل القرآن أصحاب « الكفلين من رحمة الله » .

جاء في الإتقان (١ : ٢٧) : « أخرج مسلم عن ابن عباس : آخر سورة نزلت (النصر) » ومضمونها يعني أنها من بعد فتح مكة ، في عام الوفود (٦٣١ م) . « وأخرج الترمذي والحاكم عن عائشة : آخر سورة نزلت المائدة ؛ فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه . وأخرجا أيضاً عن عبد الله ابن عمر قال : آخر سورة نزلت المائدة والفتح (أي جاء نصر الله والفتح) . وقال القاضي أبو بكر في (الانتصار) : هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ص. » وفي الجلالين « روى البخاري عن البرّاء أن براءة (التوبة) آخر سورة نزلت » . ونحن نميل إلى هذا القول ، لا بل نجزم بأن صدر براءَة في قتال الكتابيين وخاصة المسيحيين منهم ، هو آخر ما نزل من القرآن ؛ وفيه موقف القرآن الأخير ، في وصية محمد الأخيرة لأمته ، من المسيحية . والتاريخ الإسلامي شاهد عدل على تنفيذ الوصية . فلو كانت المائدة آخر السور نزولاً، وهي تشيد بمودة النصارى للمسلمين ، لكان وجه التاريخ قد تبدَّل وتحوّل . ومطلع المائدة أيضاً يأمر بالوفاء بالعقود (في معاهدة الحديبية) ، وصدر سورة التوبة ينقض تلك العقود والعهود . ثم إن معظم (التوبة) في مشاكل غزوة تبوك ، وهي الأخيرة في حياة الرسول .

يظهر أن (المائدة) سورة من أربع سور : ما نزل في عمرة القضاء ٦٢٩م ، وما نزل من التشريعات بعد فتح مكة ٦٣٠ ؛ وما نزل في محاورة وفد نجران ٦٣١م ؛ وقد أقحموا في (المائدة) فصلاً في اليهود والمنافقين ، يتصل أسلوباً وموضوعاً بما أنزل بين بدر وأحد ، في سورة آل عمران : فموالاة اليهود والمنافقين لا محل لها بعد تصفية يهود المدينة وإخضاع يهود خيبر وفدك ووادي القرى في الشمال لسلطان المسلمين . وقد عمد جامعو القرآن ، عن قصد أو غير قصد ، إلى تبديل فصل آل عمران (٢٣ ـ ٦٤) بفصل من المائدة (١٢ ـ ٨٦) لكي يظهر أن جدال القرآن كان مع اليهود والنصارى على السواء ، من آل عمران إلى المائدة ، والتنديد بالنصارى كان منذ الهجرة وآية المائدة (٨٥) تدحض ذلك . والفضيحة ظاهرة : لم يقم جدل وخصام وقتال بين محمد والنصارى طيلة العهد بالمدينة كما يظهر من موقف القرآن المحبّب منهم طيلة العهد حتى آية المائدة (٨٥) التي تشهد إلى آخر سنة بمودة النصارى . كما أنه لم يكن ممكناً أن يقوم خصام بين النبي واليهود ، أو أن تكون موالاة بين المنافقين واليهود بعد فتح مكة وسيطرة المسلمين على الحجاز ؛ ولم يعد لهم قدرة على إشعال نار الحرب ضد المسلمين : « كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » (مائدة ٦٤) فلو جرى تناقل بين الفصلين من السورتين لاستقام المنطق والتاريخ والحق . وهكذا فإن نصف سورة المائدة ليس منها مقحم عليها من زمن (آل عمران) .

قيل في (المائدة) من الناسخ سبعة مواضع ومن المنسوخ تسعة . قال النحاس (في الناسخ والمنسوخ) : « اختلف العلماء في هذه السورة : فمنهم مَن قال إنها آخر سورة نزلت فلا يجوز أن يكون فيها منسوخ . وقال أبو جعفر : فيها ناسخ ، وليس فيها منسوخ سوى الآية « لا تحلّوا شعائر الله » . (٣)

*

السورة الأولى منها : (١ ـ ١٢) **تشريعات في عمرة القضاء سنة ٦٢٩م[1].**

---

(١) الآيات (١ ـ ١٢) في أسباب النزول للسيوطي أنها نزلت في عمرة القضاء التي كانت تنفيذاً لهدنة الحديبية . وقال دروزة : « في السورة مجموعات يرجح أنها نزلت قبل الفتح : فإن من غير المستبعد أن تكون كلمة (العقود) الواردة في الآية الأولى قد عنت صلح الحديبية ، إذ اعتبرت تعرّض المسلمين لصد الحجاج عن الحج ، وإخلال حرمة الأشهر الحرم ، وتقاليد الحج الأخرى ، نقضاً له » (سيرة الرسول ٢ : ٢٩٧) .

فصل أول (أحكام المناسك[١] (٢ ـ ٧).

١) تشريع عام: بعض أحكام العمرة والحج (٢ ـ ٤).

ـ أحل لهم بهيمة الأنعام وهم حُرُم، وحرم عليهم الصيد وهم حرم (٢).

ـ نهى أن يحلّوا شعائر الله أو حرمات الحج، وأن يتعرّضوا للحجاج والمعتمرين (٣).

ـ وأحل لهم ما حرّمه من الصيد إذا حلّوا[٣].

ـ ونهاهم أن يحملهم ضدّ المشركين لهم من العمرة عام الحديبية، على الاعتداء عليهم[٢] (٣).

ـ واستثنى من تحليل الأنعام: الميتة والدم ولحم الخنزير[٣] ... (٤).

ـ في الآية (٤) إقحام يتنافر مع الآية « اليوم أكملت لكم دينكم[٤] » .

٢) في المستثنى من تحليل الأنعام: « يسألونك ما أُحل لهم؟ ـ قل الطيبات وصيد الجوارح[٥] » .

٣) تشريع خاص: « اليوم أحلّ لكم الطيبات » ومنها طعام أهل الكتاب، وزواج الكتابيات[٦] (٦).

---

(١) الآية (١) « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » مرتبطة موضوعاً بالآيات (٨ ـ ١١) فصلت بينها أحكام المناسك .

(٢) الآية (٣) « لا تحلوا شعائر الله والبيت الحرام والقلائد » . قال النحاس : « اختلف فيها فذهب جماعة إلى أن الأحكام الخمسة فيها منسوخة . وذهب بعضهم (قتادة) إلى أن المنسوخ فيها (القلائد). وقيل كان يحج المؤمنون والمشركون معاً إلى البيت فنهى أن يُمنع أحدهم ، من مؤمن وكافر ، من الحج إلى البيت ؛ ثم نسخ هذا المنع في براءة (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) . وذهب بعضهم إلى أنها محكمة ، قال عطاء : لا نسخ فيها لأن معنى قوله (لا تحلّوا شعائر الله) أي لا تخالفوا معالمه من أمر ونهي » .

(٣) الآية (٤) « اليوم يئس ... اليوم أكملت لكم دينكم » : نزل يوم عرفة عام حجة الوداع (الجلالان) .

(٤) الآية (٤) قوله (ولا يجرمنكم شنآنُ قوم أن تعتدوا) منسوخ بآية السيف (في براءة) : « فإن جاز قتال الكافر جاز أن يُعتدى عليه » (النحاس) .

(٥) الآية (٥) تستثني من تحريم الميتة ، صيد الجوارح لهم . وهي فتوى لاثنين من بني طي (أسباب النزول) .

(٦) الآية (٦) طعام أهل الكتاب ونساؤهم . قال النحاس (١١٧ ـ ١١٨) « فيها ثلاثة أقوال : فمنهم مَن قال أحلّ لنا طعام أهل الكتاب وإن ذكر عليه اسم الله ، فكان ناسخاً لقوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وما أهلّ به لغير الله) ؛ وقال عطاء : كلّ ذبيحة النصراني وإن قال باسم المسيح أو غيره ، لأن الله قد أحلّ ذبائحهم وقد علم ما يقولون . وقال غيرهم : ليس هذا ناسخاً ولكنه مستثنى من ذلك . وقال آخرون ليس بنسخ ولا استثناء ، ولكن إذا ذكر أهل الكتاب غير اسم الله لم تؤكل ذبيحتهم (مقالة علي بن

٤) أحكام الوضوء والتيمّم للصلاة[1] (٧).

*

فصل ثان: أحكام العقود (١ ثم ٨ ـ ١١) الوفاء لعهد الحديبية واجب:

ـ « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » (١).

ـ هذا واجب من ميثاق الله الذي واثقكم به (٨).

ـ فلا تحملكم عداوة المشركين على نقض الميثاق (٩ ـ ١١).

ـ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كفَّ أيديهم عنكم وجعلهم يرضون بالصلح معكم (١٢).

*

السورة الثانية منها: (١٣ ـ ٨٦): **موقف اليهود من الدعوة** (من زمن آل عمران).

فصل أول: حملة ودعوة واستفتاء (١٣ ـ ٥٣).

أبي طالب وحده) . واختلفوا في ذبائح بني تغلب النصارى : فعن الحسن قال ما علمتُ أحداً من أصحاب محمد ص حرّم ذبائح بني تغلب إلا علي بن أبي طالب . فأما المجوس فالعلماء مجمعون إلا من شذّ منهم ، أن ذبائحهم لا تؤكل ، ولا يُتزوّج فيهم ، لأنهم ليسوا أهل كتاب . والحديث الذي سنّوا به سنة أهل الكتاب لهم ، إنما هو في الجزية » . ـ فالسنة إذن تبيح طعام أهل الكتاب وذبائحهم بلا قيد ولا شرط .

(١) الآية (٧) « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ... فلم تجدوا ماء فتيمّموا صعيداً طيباً » أي تراباً طاهراً . قال النحاس (١١٩) : « فيها سبعة أقوال : قالوا هي ناسخة لقوله (ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) ، وقالوا هي ناسخة لسنة رسول الله قبل نزولها : فكان إذا أحدث لا يكلم أحداً حتى يتوضأ للصلاة . وقالوا بل هي منسوخة بفعل النبي لأنه لو لم تُنسخ لوجب على كل قائم للصلاة ، الطهارة وإن كان متطهراً ؛ فإذا كان متطهراً فلا يجدد طهوره عند القيام للصلاة . وقالوا عن علي بن أبي طالب أنه كان يتوضأ لكل صلاة ، وعلى كل من قام إلى الصلاة أن يتوضأ . وقال قوم إنها على الندب . ومنهم من قال إن الآية مخصوصة لكل من قام من النوم . والقول السابع إن الآية يراد بها مَن لم يكن على طهارة . ـ واختلفوا في الغسل والمسح : هل كلاهما مقبولان أم واجبان ؟ فقال قوم : الغسل والمسح واجبان بكتاب الله لأن القراءة بالنصب والخفض مستفيضة . وقال أبو جعفر : مَن نفى شيئاً وأثبتّه غيره فلا حجة للنافي ، وهذا موجود في الأحكام والمعقول . وقد أثبت المسح جماعة كثيرة من أصحاب الرسول » .

وفي (أسباب النزول) : « آية المائدة تسمى آية الوضوء ، وآية النساء لا ذكر للوضوء فيها ، فيتجه تخصيصها بآية التيمّم . ـ في الآيات (٢ و٥ و٦) نزل تحليل الإبل خصوصاً ؛ كانت محرّمة على اليهود وكان العرب يقتدون بكثير من فعالهم ، فنزل التحليل في ثلاث آيات حتى استحلوها ، بعكسهم .

أولاً : حملة على اليهود[١]، ودعوة لهم للإيمان بالرسول (١٣ ـ ٢١)

١) حملة أولى على اليهود (١٣ ــ ١٤) نقضوا ميثاق النقباء بتحريف الكلم عن مواضعه.

ـ الآية (١٥) مقحمة[٢] على السياق: كذلك النصارى نسوا حظاً من ذكرهم.

٢) دعوة أولى لليهود: قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم ممّا كنتم تخفون من الكتاب (١٦ ـ ١٨).

ـ الآية (١٩) مقحمة على السياق: تكفير تأليه المسيح.

٣) حملة ثانية على اليهود لقولهم: نحن أبناء الله من دون الناس (٢٠) كلمة ((النصارى مقحمة)) .

٤) دعوة ثانية لليهود: قد جاءكم رسولنا على فترة من الرسل[٣] (٢١).

ثانياً: قصص توراتي (٢٢ ـ ٣٥).

١) قصة موسى وخصام قومه له عند دخول الأرض المقدسة (٢٢ ـ ٢٩)

٢) قصة قابيل وهابيل، والغراب[٤] (٣٠ ـ ٣٥).

---

(١) الآية (١٦) ((مما كنتم تخفون من الكتاب)) : قال الجلالان : ((كآية الرجم وصفه النبي)) .
(٢) الآيات (١٩ ـ ٢١) في بنوة المسيح والمسيحيين من الله : مقحمة كلها على السياق ، موضوعاً وفاصلة . وقوله ((قل فلِمَ يعذبكم بذنوبكم)) (٢٠) كانت حملة المسيحيين على اليهود لادعائهم أنهم شعب الله المختار دون العالمين ، فانتقلت إلى القرآن . قابل Migne Patr. Or. LXXXVI. 624.
(٣) الآية (٢١) ((على فترة من الرسل)) قال الجلالان ((ومدة ذلك خمسمائة وتسع وستون سنة)) .
(٤) الآيات (٣٠ ـ ٣٥) قصة هابيل وقابيل أقرب إلى التلمود منها إلى التوراة : لا تذكر التوراة الجدال بين الأخوين وتجده في التلمود (ترجوم يوناتان بن عزيّا) . وتجهل التوراة قصة الغراب يريه كيف يواري سوءة أخيه ، وتجدها في التلمود (مدراش تنحوما ١٠) . وفي (فرقا رابي اليعازر ٢١) آدم هو الذي يتعلم من الغراب ومن هابيل . ولا تذكر التوراة توبة قابيل بعد قتل أخيه وقد وردت في التلمود المذكور . وقول القرآن ((من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه مَن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً)) تجهل التوراة ، وقد ورد في المشنة (سنهدرين : مدراش على التكوين ٤ : ١٠) قال : ((صوت دماء أخيك يصرخ إلي : يعني دمه ودم ذريته ولهذا السبب خلق آدم وحده ليعلمك أنه من أهلك نفساً من إسرائيل فالكتاب يعدّه كأنه أهلك الناس جميعاً ؛ وكل من أحيا نفساً من إسرائيل ، فالكتاب يعدّه كأنه أحيا العالم جميعاً)) .

إقحام : ١) قصة العرنيين[1] الذين مثّل بهم الرسول (٣٦ ـ ٤٠).

٢) تشريع بالمناسبة: « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » (٤١ ـ ٤٣).

٣) تحريض من المنافقين: « لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » (٤٤).

ثالثاً : استفتاءٌ يهودي في حدّ الزنى (٤٤ ـ ٥٣).

١) الحادث: يهود خيبر أو فدك يستفتون النبي في تحريف حد الزنى[2] (٤٤ ـ ٤٦).

---

(١) الآيات (٣٦ ـ ٤٠) قال الجلالان : « نزلت في العُرنيين لما قدموا المدينة وهم مرضى فأذن لهم أن يخرجوا إلى الإبل ويشربوا من أبوالها وألبانها . فلما صحّوا قتلوا راعي النبي ص واستاقوا الإبل » : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا ويصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض) . قال النحاس (١٢٦ ـ ١٢٧) : « فيها أقوال : قالوا هي ناسخة لتمثيل الرسول ص بالعُرنيّين ، فقد سمل عيونهم وتركهم حتى ماتوا فوُعِظ ونسِخ فعله بهذا الحكم . وقال غيرهم إنما فعل الرسول ذلك على الاجتهاد كما فعل بالغنائم . واختلفوا في معنى (أو) هل هي للتخيير أو للترتيب . واختلف العلماء فيمن يلزمه اسم « محاربة الله » على خمسة أقوال : المحارب لله ورسوله هو المشرك المعاند، لا بل المرتدّ ، لا بل مَن فسق من المشركين والمسلمين . والقول الخامس تحملُ الآية على ظاهرها في أهل الحرب من المشركين : فهذا أحسن ما قيل فيها وهو قول أكثر الفقهاء . ثم اختلفوا أيضاً في العقوبة : هل الإمام مخيّر فيها ، أم أن العقوبة على قدر الجناية ؟ قال قوم بالتخيير ، وعارض من يقول بالترتيب ، بحديث عثمان وابن مسعود وعائشة عن النبي ص (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان! أو زنى بعد إحصان ! أو قتل نفس بغير نفس !) قال أبو جعفر : اختلف الذين قالوا بالترتيب ، واختلفوا بعضهم عن بعض حتى وقع في ذلك اضطراب كثير » .

(٢) الآيات (٤٤ ـ ٥١) « سماعون لقوم آخرين » من اليهود ، وهم أهل خيبر : زنى فيهم محصنان، فكرهوا رجمهما ، فبعثوا إلى قريظة ليسألوا النبي ص عن حكمهما ؛ (يحرّفون الكلم عن مواضعه) كآية الرجم المحرّفة بالجلد » (الجلالان) . وفي (الأسباب) : « دعى النبي رجلاً من علماء اليهود فقال : أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى : هكذا تجدون حدّ الزنى في كتابكم ؟ فقال : لا واللهِ ، ولولا أنشدتني بهذا لم أخبرك : نجد حد الزنى في كتابنا الرجم ؛ ولكن لمّا كثر في إشرافنا أجمعنا على التحميم والجلد » . وفي حديث آخر، كان السؤال من أهل فدك فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود في المدينة أن اسألوا محمداً عن ذلك : فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه ؛ وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه » . ـ وهذا يدل على أن هذه الفصول من سورة المائدة نزلت لمّا كانت قريظة في المدينة ، لا بعد الخندق والقضاء على يهود المدينة . وبعد فتح مكة حين نزلت سورة المائدة .

وقال دروزة : « بعضهم روى أنها نزلت في حادث دم . وهذه الرواية أكثر اتساقاً مع سياق الآيات التي أتت بعدها لأنها ذكرت أحكام التوراة في حوادث الدماء . ومن قبيل الاستطراد نلفت النظر إلى ما احتوته الآيات من جعل الخيرة لليهود في التقاضي لدى النبي وعدمه ، وفي إيجاب القضاء بالقسط إذا ما تقاضوا لديه ، إذ حُفظت لهم حريتهم القضائية ، وأقرت لهم القضاء بأحكام التوراة . ولقد نوهت الآيات التالية لها بما في التوراة من نور

٣) تشريع بالمناسبة: لكل كتاب منزل شرعة مستقلة:

ـ التوراة فيها حكم الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فيها فأولئك هم الظالمون (٤٧ ـ ٤٨).

ـ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٤٩ ـ ٥٠).

ـ نزل القرآن مهيمناً على الكتاب: التخيير في الحكم بين الكتابيين (٥١).

ـ المبدأُ العام النهائي: « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة[1] » (٥١).

٣) نتيجة الاستغناء: « وأن احكم بينهم بما أنزل الله؛ ولا تتبع أهواءَهم » (٥٢ ـ ٥٣).

*

فصل ثانٍ: تحريض المسلمين على نقض أحلافهم مع اليهود[2] (٥٤ ـ ٦٧).

خطاب أول (٥٤ ـ ٥٩) محالفة اليهود نفاقية[3] وفاشلة: وحزب الله هم

وهدى توكيداً لهذا الإقرار : ففي هذا شاهد على ما جنح إليه الإسلام من احترام حرية اليهود القضائية، واحترام أحكام التوراة القضائية ، وإقرارهم عليها ، مع التوصية بالقسط إذا ما أرادوا التقاضي لديه ، ورأى أن يقضي بينهم دون أن يكون لمواقفهم الجحودية أي تأثير في ذلك » (سيرة الرسول ٢ : ٧٥) . وهذان التحليل والتعليل ينطبقان بأولى حجة على النصارى أهل « المودّة » .

وقال النحاس في آية التخيير : (فإن جاؤوكم فاحكم بينهم أو اعرض عنهم) : « من العلماء من قال الآية محكمة ، والإمام مخيّر : إن شاء حكم ، وإن شاء ردّهم إلى أحكامهم . وقال الحسن والشيعي والنخعي : التخيير محكم . ومنهم من قال : نسختها الآية التي بعدها (وأن احكمْ بينهم بما أنزل الله) ؛ واستشهد الشافعي بقوله (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) أي تجري عليهم أحكام المسلمين . وهو أيضاً قول الكوفيين مثل أبي حنيفة . غير أن أبا حنيفة يقول : إذا جاءت المرأة والزوج فعليه أن يحكم بالعدل ؛ فأن جاءت المرأة وحدها ولم يرض الزوج ، لم يحكم » .

(١) الآية (٥١) « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة » . يختلف عن قوله في مكة : « وإن أمتكم هذه أمة واحدة » (مؤمنون ٥٢ أنبياء ٩١) . قال دروزة: « وذكر النصارى في الآية (٥١) قد جاء استطرادياً » (سيرة الرسول ٢ : ١٦٣) لا بل مقحم إقحاماً .

(٢) هذا الفصل (٥٤ ـ ٦٧) في نقض الأحلاف مع اليهود : شهادة أخرى على أنه ليس من زمن نزول سورة المائدة بل من زمن آل عمران حيث كان التحالف مع اليهود ممكناً لهم ؛ أما بعد فتح مكة فهل ذلك ممكن ؟ وهل يقدر اليهود أن يشعلوا حرباً ؟

(٣) الآية ٥٤ « ولا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض » : أقحموا فيها ذكر النصارى إقحاماً ؛ وهذا الإقحام يتعارض مع السورة كلها، وخصوصاً مع الآية التالية (٨٥) التي تشيد بمودّة النصارى

الغالبون[1]!.

خطاب ثانٍ (٦٠ ـ ٦٧) واليهود يهزؤون بدينكم؛ ويوقدون نار الحرب ضدكم.

*

فصل ثالث: تحريض أهل الكتاب على إقامة التوراة والإنجيل (٦٨ ـ ٧٤).

خطاب أول (٦٨ ـ ٧٢) يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل[2].

خطاب ثانٍ (٧٣ ـ ٧٤) لا تنسوا ميثاق الله في قبول أنبيائه: فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون[3]!

*

للمسلمين على العالمين . وفي (أسباب النزول) للسيوطي : « أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن عباس بن الصامت أنه في أبيه وعبد الله بن أُبَيْ ، إذ اختلفا في شأن بني قينقاع ، نزلت القصة في المائدة » . وعقّب دروزة : « الصدام مع النصارى : لم يكن في المدينة جالية (نصرانية) ذات شأن وكيان يمكن أن يقع بينها وبين النبي والمسلمين صدام، وأن يصدر منها مواقف عملية مؤذية وخطرة كما كان شأن اليهود . هذا إلى أن الآيات القرآنية المدنية لم تحتو حملات عنيفة قاسية عليهم ، بل وصفتهم بأوصاف محببة إطلاقاً . وهذا ما جعلنا نرجح أن موضوع الآيات (٥١ ـ ٥٢ و٥٧ ـ ٥٨) التي نهى فيها المسلمين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياءهم اليهود مباشرة، وان ذكر النصارى في الآية (٥١) قد جاء استطرادياً . وترجيحنا مستلهم من الآية (٥٢) من نعي على المنافقين أن يتمسكوا بأوليائهم خشية الدوائر : واليهود هم الذين كان بينهم وبين المنافقين ولاء متصل بما قبل الهجرة ومحتجّ به » (سيرة الرسول ٢ : ٢٦٣) . والإقحام ظاهر لتعارضه مع السورة كلها والآية (٨٥) وأصل الآية « ولا تتخذوا اليهود أولياء » .

(١) الآيات (٥٤ ـ ٥٦) نجد فيها الحزبين من المسلمين ، المجاهدين والقاعدين ، كما صادفناهما في سورة النساء (٩٥) وهنا يصير المجاهدون « حزب الله » . وذكر النصارى الجحودي في الآيات (٦٥ ـ ٦٦) هو « من قبيل التعميم والاستطراد » (سيرة الرسول ٢ : ٧٦) لا بل هو مقحم إقحاماً على الآيات والسورة كلها لأنه يتعارض مع السورة ومع الآية (٨٥) .

(٢) الآية (٧١) « لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل » : ورد في (أسباب النزول) : « جاء رافع وسلام بن مشكم ومالك بن الصيف فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا ؟ قال: بلى ! ولكنكم أحدثتم وجحدتم بما فيها وكتمتم ما أمرتم أن تبيّنوه للناس . قالوا : فإنا نأخذ بما في أيدينا فإنا على الهدى والحق ! فنزلت » . ـ وهذا يدل على أن هذا الفصل أيضاً من قبل القضاء على اليهود في المدينة .

(٣) الآية (٧٣) « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » . وقوله (والصابئون) رفع بين منصوبين والكتابة بالرفع من خطإ الكاتب، كتبها وهو ناعس، والأصل (والصابئين) كما في البقرة (٥٩).

فصل مقحم: تأليه المسيح والمقالة بالثلاثة (٧٥ ـ ٨٠).

(تجده فيما بعد في جدال القرآن لوفد نجران).

*

فصل رابع: حملة أخيرة على اليهود (٨١ ـ ٨٩).

ـ لعنهم داود وعيسى ابن مريم: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه! (٨١ ـ ٨٢).

ـ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا من أهل مكة والأحزاب[٦] (٨٣ ـ ٨٥).

ـ لذلك أشد الناس عداوة للمسلمين: اليهود والذين أشركوا: وأقربهم مودة النصارى[١] ورهبانهم وقسّيسوهم! (٨٥ ـ ٨٩).

*

السورة الثالثة منها: (٩٠ ـ ١١١) تشريع وتعليم من بعد فتح مكة.

١) يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ لكم[٢] (٩٠ ـ ٩١).

٢) (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم: كفارة اليمين المقصودة (٩٣).

وهاتان الشهادتان (بقرة ٥٩ ومائدة ٧٣) تجعلان التوحيد والإسلام ، وحدة دينيّة قائمة بين الكتابيين والمسلمين طيلة العهد في المدينة أيضاً ؛ وإذا جرى خلاف عقائدي بينهم ، فالقرآن لا يفصل فيه بل يرفع الأمر إلى الله يفصل فيه يوم القيامة (الحج ١٧) أو يدعو أهل الكتاب إلى « كلمة سواء » (آل عمران ٦٤). والخلاف الحقيقي سياسي أو طائفي على الزعامة في الحجاز ، لا على الإسلام والتوحيد .

(١) الآية (٨٥) « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى » : في أسباب النزول أنها نزلت في النجاشي وأصحابه ، ورهبانه لما تلى عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم ! أو في أصحاب النجاشي الثلاثين الذين أوفدهم إلى الرسول يستطلعون أخباره فقرأ عليهم سورة (يسن) فبكوا فنزلت ـ والآية (٨٥) إذا قورنت بالآية (٧٢) التي تجعل الكتابيين والمسلمين سواء في التوحيد، تدل على أن الخلاف بين اليهود والمسلمين سياسي أكثر منه ديني ؛ وإن النصارى حتى آخر العهد بالمدينة كانوا براءً من الخلافات الدينية والسياسية مع المسلمين .

(٢) الآية ٩٠ « يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحلّ لكم » جاء في الأسباب : « أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن رجالاً من الصحابة حرّموا النساء واللحم على أنفسهم وأخذوا الشفار ليقطعوا مذاكيرهم لكي تنقطع الشهوة عنهم ، ويتفرغوا للعبادة فنزلت . وفي رواية السدي أنهم كانوا عشرة ؛ منهم في رواية عكرمة : ابن مظعون، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، والمقداد بن الأسود ، وسالم مولى حذيفة . وفي رواية ابن عباس منهم أيضاً أبو بكر وعمر بن الخطاب : توافقوا أن يجبوا أنفسهم ويعتزلوا النساء ، ولا يأكلوا لحماً ولا دسماً ، ويلبسوا المسوح ، ولا يأكلوا من الطعام إلا قوتاً وأن يسيحوا في الأرض كهيئة الرهبان فنزلت » . وقد أُثر عن الرسول الحديث : « لا رهبانية في الإسلام » !

٣) اجتناب الخمر والميسر والأنصاب والأزلام[1] (٩٣ ـ ٩٦).

٤) تحريم صيد البر في الإحرام، وتحليل صيد البحر. جزاء وكفارة التحريم (٩٧ ـ ٩٩).

٥) البيت الحرام والشهر الحرام أمن للناس فلا يحل القتال فيها (١٠٠ ـ ١٠٣).

---

(١) الآية ٩٣ ((إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه)) قال الجلالان : ((الخمر هو المسكر الذي يخامر العقل ؛ والميسر القمار ؛ والأنصاب الأصنام ؛ والأزلام قداح الاستقسام ؛ رجس خبيث مستقذر، فاجتنبوه)) .

وقد ورد ذكر الأزلام أي القداح أو السهام للاستقسام ، في نبوة حزقيال (٢١ : ٢١) . والميسر نوع من القمار كان محرماً عند اليونان والرومان كما ذكرته مجلة القيصر يستنيانس ؛ وكل لعب فيه مقامرة كان محرّماً على أرباب الدين عند النصارى ؛ وكان رهبانهم يبالغون في تحريم الميسر والألعاب حتى الشطرنج . راجع في (المستطرف) قصة علي بن أبي طالب يستفهم عنها . والتلمود يعد الميسر من المنكرات ويوجب توبيخ المقامر ورفض شهادته . وقوله (إنما يريد الشيطان أن يوغر بينكم الشحناء والبغضاء) هو ذات الوصف الوارد في سفر الأمثال (٢٣ : ٢٩ـ ٣٢) .

نقول، على حدّ قول القرآن ، ليس كل خمر محرّمة ، بل المسكر الذي يخامر العقل وهذا التحديد يوافق قول الكتاب بإباحة ((قليل من الخمر يفرّح قلب الإنسان)) ؛ وقوله ((فاجتنبوه)) ليس بقوله ((حُرّم عليكم)) ممّا يوافق التشريع الكتابي . ويبقى حدّ السكر في الإنجيل أقوى من حدّه في القرآن : ففي القرآن ((اجتنبوه)) أما في الإنجيل فحدّه حدّ الزنى: ((والسكيرون والزناة لا يدخلون ملكوت الله)) .

والقول بأن القرآن حرّم الخمر من حيث هي ، لا السكر فقط ((المسكر الذي يخامر العقل)) (الجلالان) هو قول يناقض مبادئ القرآن العامة : فسورة المائدة تصأرّح مراراً بأن ((اليوم أحلّ لكم الطيبات)) التي لا تتفق والرهبانية في الإسلام (٥ و٦ و٩٠) ؛ ويقول ((ثم كلوا (واشربوا) مما يذكر عليه اسم الله (أنعام ١١٨) ؛ ويقول : ((يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيّباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان)) (بقرة ١٦٨) وبالقياس : واشربوا كذلك ((يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله)) (بقرة ١٧٢) ؛ ثم يردّد بتواتر ((ما جعلنا عليكم في الدين من حرج)) . وتعاليمه الخاصة : الخمر آية من آيات الله في مكة (نحل ٦٧) فلا تمسى بحد ذاتها، بل في سوء استعمالها ((رجساً من عمل الشيطان)) ؛ والخمر فيها إثم كبير ، ولكن فيها أيضاً ((منافع للناس)) (بقرة) فكيف تصير هذه المنافع رجساً ، في حدّ ذاتها ؟ والنهي الصريح في القرآن هو ((لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)) (آل عمران) لكي يعلموا ما يقولون في الصلاة : وهذا التقييد يفيد أنه يقصد، لا الخمر من حيث هي، بل الخمر التي تخامر العقل . ولا سند ثابت بأن آية (المائدة) في اجتناب الخمر قد نزلت بعد النهي المحدود في (آل عمران) لأن هذه الفصول في (المائدة) نزلت في زمن آل عمران كما يتضح من مضامينها . فالقرآن يعلّم إذن أن الخمر آية من آيات الله ، وفيها منافع للناس ؛ ولكن في سوء استعمالها إثم كبير يوقظ الشحناء والبغضاء، ويصل إلى الاستهتار في الصلاة : لذلك يجب تحريم السكر من الخمر ، كما من كل مسكر، لا تحريم الخمر من حيث هي، وبالنتيجة كل الكحولات من حيث هي ، لأن فيها منافع للناس ، وهي آية من آيات الله : وهذا هو تعليم التوراة والإنجيل والقرآن . ولا صحة لقولهم بتدرّج القرآن في التحريم من البقرة إلى آل عمران إلى المائدة (كما في أسباب النزول) فكلها تحديدات للمحذور من الخمر والمحظور ، لا نسخ آية بآية .

٦) منع السؤال في القرآن: سأل قوم من قبلكم فأصبحوا كافرين (١٠٤ ـ ١٠٥).

٧) إبطال ما كانوا يهدونه لأصنامهم (١٠٦ ـ ١٠٧).

٨) إبطال الاعتداء على المرتدين عن الإسلام[١] (١٠٨).

٩) حكم الشهادة[٢] في الوصية عند الموت في دار الإسلام أو في دار الغربة (١٠٩ ـ ١١١).

*

السورة الرابعة منها : **مجادلة وفد نجران في المسيح والمسيحية عام ٦٣١م.**

فصل أول (الآية ١٥ و١٩) تأليه المسيح كفر!

نسوا حظاً من ذكرهم، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة (١٥).

لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم (١٩).

*

فصل ثانٍ (٧٥ ـ ٨٠) تأليه المسيح، والقول بالثلاثة، غلو في الدين لم يعلمه المسيح[٣].

---

(١) الآية ١٠٨ « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم : لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم ؛ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » قال الجلالان : « قيل المراد لا يضرّكم من ضلّ من أهل الكتاب . وقيل المراد غيرهم » أي المسلمون . والآية صريحة في أبطال الاعتداء عن المرتد عن الإسلام . قال البيضاوي: « فيها وعد ووعيد للفريقين ، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بذنب غيره » .

(٢) الآية ١٠٩ حكم الشهادة . قال النحاس « اختلفوا فيها على خمسة أقوال : منهم مَن قال هي منسوخة ومنهم مَن قال هي محكمة . وهي من أشكل ما في الناسخ والمنسوخ . والخلاف على قوله (أو آخران من غيركم) . (أو) هل هي للتقييد أو للتخيير وهو الظاهر . ولفظة (الغير) تعني شهادة أهل الكتاب أو الكفار بحق المسلمين . قالوا : إن شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة ، في السفر إذا كانت وصية . وقال قوم كان هذا ونُسخ. وقال قوم الآية كلها للمسلمين إذا شهدوا فلا منسوخ فيها . وقالوا الشهادة هنا بمعنى الحضور، وقيل بمعنى اليمين . وعن أبي حنيفة لا تجوز شهادة كافر بحال ؛ كما لا تجوز شهادة فاسق بالإجماع : وتجوز شهادة الكفار بعضهم على بعض » .

(٣) الآيات (٧٥ ـ ٨٠) فيها تكفير مقالة اليعقوبية « إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم » ؛ وتكفير مقالة بعض الفرق المسيحية البائدة : « إن الله ثالث ثلاثة » ؛ وقوله « ولا تقولوا : ثلاثة » ضد التثليث المسيحي العربي المنحرف . فالقرآن لا يرى في عقائد النصرانية الثلاث سوى تأليه بشر ، هو عيسى بن مريم ، ويعطي البرهان على بطلان تأليه عيسى وأمه أنهما « كانا يأكلان الطعان » ! ويرى أن التثليث المسيحي قائم على الله ، والبشر عيسى ابن مريم، وأمه (١١٩) . وحسب زعم النصارى في كل فئاتهم ليس التثليث في ذلك ، وما تأليه مريم سوى تطرّف عند بعض نصارى العرب الجهال ، لا تقرّه النصرانية جمعاء ، فلم يقل أحد خارج الجزيرة ،

ـ لقد كفّر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم! لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة (٧٥ ـ ٧٧).

ـ فالمسيح ابن مريم إلا رسول، وأمه صديقه: كانا يأكلان الطعام! (٧٨ ـ ٧٩).

ـ قل يا أهل الكتاب: لا تغلوا في دينكم، ولا تتّبعوا أهواء المضلين (٨٠).

*

فصل ثالث (١١٢ ـ ١٢٣) استجواب المسيح في يوم الدين، واستنكاره تأليهَهُ[1].

استفتاح (١١٢) استجواب الرسل في يوم الدين.

١) **استجواب** عيسى ابن مريم (١١٣ ـ ١١٩).

يذكّره الله بنعمة الخارقة عليه ويقول: « أأنت قلت للناس: اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله » ؟

ـ الآيات (١١٥ ـ ١١٨) معجزة المائدة ـ مقحمة على الاستجواب[2].

في المسيحية، على لسان المسيح « اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » (١١٩) فمريم ليست عندهم ذات موضوع في التثليث . ولا يقول أحد من النصارى بتأليه البشر عيسى ابن مريم ؛ فليس في القضية تأليه بل تجسّد كلمة الله الذاتية ، روحاً من الله ، في مريم كما تقول آية النساء (١٧٠) : ليس الأمر عند الراسخين في العلم من المسيحيين ، عبر الأجيال كلها ، تأليه ، بل اتحاد عنصر بشري عيسى ابن مريم ، بعنصر إلهي، هو كلمة الله الذاتية ، الصادر من الله « روحاً منه تعالى ، في شخصية المسيح . فتثليث القرآن المنكر ، ليست بتثليث الإنجيل والمسيحية ؛ بل هو صورة واقعية لاعتقاد بعض نصارى العرب الجهال المنحرفين عن الدين المسيحي القيّم .

(١) جاء في مجلة لواء الإسلام (صفر ١٣٨٠: يوليه ١٩٦٠ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧) : « روى الشيخان عن عبادة بن الصامت ر. قال : « قال رسول الله ص. (مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ؛ والجنة حق ، والنار حق ؛ أدخله الله الجنة على ما كان عليه من عمل) . كل كائن قد نشأ بكلمته تعالى وأمره التكويني ، لكن نشأة عيسى كانت بمجرّد هذه (الكلمة) من غير واسطة الأسباب المألوفة ، فهو بشر عجيب الشأن في التكوين وآية من آيات القدرة العليا التي هي فوق تلك النواميس . والإخبار عن عسى عليه السلام بأنه (روح) مع أنه مركب ككل إنسان من روح وجسم ، ذلك لأن روحانيته عليه السلام كانت غالبة على جثمانيته ، فكأنه روح بحت . ونفخ (الروح) في عيسى كان بيد التكوين الإلهية الصرفة ، فلم يُسبق بالمقدمات البشرية كما في عامة الناس » . ـ وهكذا يشهد القرآن الكريم والحديث الصحيح بأن محمداً عبد الله ورسوله مثل المسيح، ولكن المسيح امتاز عنه بصفتين في شخصيته : إنه كلمة الله وروح الله .

(٢) الآيات (١١٥ ـ ١١٨) معجزة المائدة : مقحمة على خطاب الله في استجواب عيسى في يوم الدين : فلا يعقل أن يتدخل الحواريون في يوم الدين يقاطعون استجواب الله الديّان الذي يجيبهم « قال الله : إني

٢) جواب عيسى ابن مريم (١١٩ ـ ١٢١): جواب يتدرج بأدب جم.

قال سبحانك: ما يكون لي أن أقول ما ليس بحق! (١١٩).

إن كنتُ قلته، فإنك أنت علام الغيوب (١١٩).

ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به: أن اعبدوا الله ربي وربكم! (١٢٠).

وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم فلمّا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم[١] (١٢٠).

إن تعذبهم فإنهم عبادك أو أن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١٢١).

٣) حكم الله: هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم! رضي الله عنهم ورضوا عنه: ذلك الفوز العظيم!

ختام: لله ملك السماوات والأرض، وما فيهن، وهو على شيء قدير (١٢٣).

*

* *

الثانية والعشرون أيضاً : « فاتحة آل عمران » (٣٣ ـ ٦٤) « **تعالوا إلى كلمة سواء** »

فذلكة: جاء في أسباب نزول سورة آل عمران : « أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع أن النصارى أتوا إلى النبي ص فخاصموه في عيسى فأنزل الله (آلم الله لا إله إلا هو، الحيّ القيوم) إلى بضع وثمانين آية منها . وقال ابن إسحاق :حدثني محمد بن سهل ابن أبي أمامة قال : لمّا قدم أهل نجران على رسول الله ص يسألونه عن عيسى بن مريم نزلت فيهم فاتحة آل عمران إلى الثمانين منها . أخرجه البيهقي في الدلائل » . المقصود (بصدر آل عمران) ليس الآيات (١ ـ ٨٠) كلّها ، بل الآيات (٣٣ ـ ٦٤) لا غير ، إذ ما قبل وما بعد ، جدال خاص مع اليهود ، وقصة المسيح وأمه وأجداده في آل عمران أقحم على السياق إقحاماً ، ولا مبرّر له ، سوى القصد بإقحام جدال النصارى مع جدال اليهود في القرآن . ولذلك فرّقوا ما جاء في القرآن من جدال النصارى ، عام الوفود (٦٣١م)

منزّلها عليكم » بل قصة المائدة مستقلة بذاتها (١١٥ ـ ١١٨) أقحمت تفسيراً للآية (١١٤) في سبب إيمان الحواريين الأكبر بالمسيح . ومعجزة المائدة في القرآن هي سر القربان في الإنجيل « إن موسى لم يعطكم الخبز من السماء ولكنّ أبي يعطيكم خبز السماء الحقيقي لأن خبز الله هو الذي ينزل من السماء ويهب الحياة للعالم ... أنا الخبز الحي النازل من السماء : إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد » (يوحنا ٦ : ٣٢ ـ ٥١) وهذا هو الرزق الذي ذكره القرآن وجعله عيداً دائماً لأولهم وآخرهم (١١٧) . ولكن القرآن أورد الخبر بأسلوب قصة المائدة الهابطة في رؤيا على بطرس زعيم الحواريين (أعمال ١٠ : ٩ ـ ١٦) .

(١) الآية (١٢٠) هذه آخر شهادة في القرآن عن آخرة المسيح ؛ وهي تؤكد وفاة المسيح بعد نزوله الأول لأن انحراف النصارى المذكور في الآية (١١٥) كان بعده ، لا بعد نزوله في آخر العالم كما وهم بعضهم ؛ والوفاة المذكورة تعني الموت صراحة لأنها ترد عكس الحياة « ما دمتُ فيهم » . وهذه الشهادة عن موت المسيح ورفعه التي لا شهادة بعدها ، تقضي على كل تفسير معاكس للآيات السابقة لها .

في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة . ولا تنكر أنه جرى قبل ذلك تبادل وجهات نظر بين النبي والمسيحيين في المدينة كما في مكة ؛ ولكن ما ورد في تلك الآيات من تلك السور ، يدل على أن أكثره من جدال أهل نجران الرسمي في عام الوفود . ولذلك نقلنا هذا الفصل من سورة آل عمران إلى موضعه هنا مع سورة المائدة ، وبذلك تكتمل صورة المؤتمر الديني الإسلامي المسيحي في آخر عهد النبي عام ٦٣١ .

نقل الطبري في تفسيره (١) : ((وكانوا ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم ، منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم : العاقب ، أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبد المسيح ؛ والسيّد ثِمالهم (عمادهم) وصاحب رحلهم ومجتمعهم واسمه الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم ، وكانت ملوك الروم من أهل النصرانية قد شرّفوه وموّلوه وأخدموه وبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات . قدموا وعليهم الحبَرات من جبب وأردية ، وما رأينا بعدهم وفداً مثلهم . فدخلوا على النبي في مسجده وحين صلّى العصر . وحانت صلاتهم فقاموا يصلون في مسجد رسول الله ص. فقال رسول الله ص. ((دعوهم)) فصلوا إلى المشرق . وكلّم الثلاثة رسول الله ص.، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم . وفي ختام جدالهم دعاهم رسول الله ص. إلى المباهلة فأبوا ذلك ، وسألوه قبول الجزية منهم ، فقبلها ص. وانصرفوا إلى بلادهم)) .

وسورة ((آل عمران)) هذه من فاتحة وثلاثة فصول وخاتمة .

*

فاتحة (٣٣ ـ ٣٤) إن الله اصطفى آل عمران أجداد المسيح على العالمين.

فصل أول (٣٥ ـ ٤٤) **أم المسيح وسابقه.**

أولاً : مولد مريم أم المسيح (٣٥ ـ ٣٦).

ـ نذر الوليد لله[٢] (٣٥ ـ ٣٦).

---

(١) تحقيق الأخوين شاكر : المجلد السادس ص ٥١ و١٥٢ ـ ١٥٣. وننقل هنا تفسير الطبري على آل عمران ، لأننا في كتابنا (الإنجيل في القرآن) نقلنا تفاسير الزمخشري والبيضاوي والرازي ، فاطلبها هناك.

(٢) الآية ٣٥ ـ ((إذ قالت امرأة عمران)) ((هي أم مريم ، وكان اسمها حنة ابنة فاقوذ)) (الطبري) . هنا يسمّي أم مريم ((امرأة عمران)) وفي سورة مريم (٢٨) يسمي مريم ((أخت هارون)) : فأم المسيح هي بنت عمران وأخت هارون (تحريم ١٢ فرقان ٣٧) فهل عمران هو أبو موسى وهارون وأختهما مريم النبية (خروج ٦ : ٢٠ العدد ٢٦ : ٥٩) ؟ وكانت مريم النبية أخت موسى الكليم تسمّى تارة ((مريم النبية)) وتارة ((أخت هارون)) لأن هارون أخاها عالها في مصر مدة غياب موسى في مدين حتى نسبت له (عدد ١٢ : ١ وخروج ١٥ : ٢٠) ؛ والمشكل في الآثار المسيحية أن أبا مريم اسمه يواكيم ، ولا ذكر فيها لأخ لمريم أم المسيح ، اسمه هارون . فهذا الموقف من المضائق في القرآن .

((إني نذرت لك ما في بطني محرراً)) أي ((محرراً لعبادتك)) ، عتيقة من كل شيء سواك ، مفرغة لك خاصة .

ـ عصمة مريم من الشيطان بالاستعاذة منه[١] (آخر ٣٦).

ثانياً : حداثة مريم أم المسيح (٣٧).

حداثتها: فتقبلها ربها (من أمها) بقبول حسن؛ وأنبتها نباتاً حسناً[٢] » .

كفالة زكريا لها: « وكفّلها زكريا[٣] » .

غذاؤك المعجز في المحراب (الهيكل)[٤].

وكانوا إنما يحررون الذكور . وقد تزوج زكريا وعمران أختان فكانت أم يحيى عند زكريا ، وكانت أم مريم عند عمران . فهلك عمران وأم مريم حامل بها ، فهي جنين في بطنها » (الطبري).

(١) الآية ٣٦ « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » فلم يجعل له عليها سبيلاً . وهنا ينقل الطبري الحديث الذي يفسّر هذه الاستعاذة بصيغ مختلفة : « عن أبي هريرة : ما من نفس مولود يولد إلا والشيطان ينال منه تلك الطعنة ، ولها يستهل الصبي صارخاً ، إلا ما كان من مريم وابنها ؛ فإنها لما وضعتها أمها قالت « إني أعيذك » فضرب دونهما حجاب فطعن فيه » . صيغة أخرى لأبي هريرة : « كل مولود يولد من بني آدم يمسّه الشيطان بإصبعه إلا مريم وابنها » . صيغة أخرى له : « ما من مولود يولد إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم » . وعن ابن عباس : « ما من مولود إلا وقد استهل غير المسيح ابن مريم وأمه ، لم يسلّط عليهما الشيطان ولم ينهزهما » . وعن قتادة : « كل بني آدم طعن الشيطان في جنبه إلا عيسى ابن مريم وأمه جعل بينهما وبينه حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليها شيء . وذكر لنا أنهما كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها سائر بني آدم. وذكر لنا أن عيسى كان يمشي على البحر كما يمشي على البر مما أعطاه الله من اليقين والإخلاص » . وعن الربيع : « كل آدمي طعن الشيطان في جنبه غير عيسى وأمه ، كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها بنو آدم . وقال عيسى ص. أعاذني وأمي من الشيطان الرجيم فلم يكن له علينا سبيل » . ـ وهذا الحديث المتواتر يُعلّم تعليم النصرانية عن الخطيئة الآدمية وسريانها إلى ذريته ، ويمثلها بمسّ الشيطان وطعنته ونهزه وتسلطه وعصمة المسيح وأمه من هذه الخطيئة الأصلية ، ويزيد ابن عباس والربيع ، العصمة الفعلية على العصمة الأصلية : وهذه هي الميزة الأولى التي يخصها بها الله من دون العالمين .

(٢) الآية ٣٧ « وأنبتها نباتاً حسناً : أنبتها ربها في غذائه ورزقه نباتاً حسناً حتى تمّت فكملت امرأة بالغة تامة: وهذه هي الميزة الثانية التي ميزها بها الله على العالمين .

(٣) « وكفلها زكريا » حضنها فكانت معه في المحراب . والمحراب كلمة حبشية تعني الهيكل (الإتقان) .

(٤) « وجد عندها رزقاً » قيل هو من الله لغذائها ؛ وعن ابن عباس : وجد عندها ثمار الجنة وفاكهة الصيف في الشتاء ، وفاكهة الشتاء في الصيف : وهذه هي الميزة الثالثة التي يميزها بها الله على العالمين .

ـ وقصة مريم في آل عمران أقرب إلى إنجيل يعقوب المنحول (ف ٣٠ ـ ٣٩) منه إلى الإنجيل الرسمي : نجد في إنجيل يعقوب المنحول شهوة الولد عند حنة أم مريم ، ونذر امرأة عمران جنينها للرب ، وتقدمة مريم للهيكل وهي بنت ثلاث سنوات ، حيث تأكل من يد ملاك إلى سن الثلاثة عشرة ، وإقامتها في الهيكل (المحراب) حيث لم يكن يدخل سوى الكهنة في نوبات خدمتهم ، وتربية مريم بين كهنة الهيكل ولم تكن التوراة تجيز ذلك . فهذا القصص النصراني الشعبي حمله الرهبان معهم إلى الجزيرة ونزل به القرآن .

ثالثاً : قصة مولد يحيى[١] (٣٨ ـ ٤١).

رابعاً: نُسْك مريم في الهيكل (٤٢ ـ ٤٣).

« إن الله اصطفاك على نساء العالمين[٢].

فاقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .

ختام الفصل: « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك[٣] » (٤٤).

*

فصل ثانٍ: مولد المسيح ورسالته (٤٥ ـ ٥٨).

أولاً : مولد عيسى ابن مريم[٤] (٤٥ ـ ٤٨).

---

(١) الآية ٣٨ « فنادته الملائكة « أي ناداه ، وكذلك تفعل العرب في جماعة الذكور أنّث أفعالها إذا تقدّمت أسماءها . وقوله « الملائكة » يراد به الجمع ، وقيل هو جبريل وحده ، فإن قال قائل كيف جاز أن يقول الملائكة وهو واحد ؟ قيل ذلك جائز في كلام العرب تُخبر عن الواحد بمذهب الجمع » (الطبري) .

ـ الآية ٣٩ « مصدقاً بكلمة من الله » قال الطبري « يعني بعيسى ابن مريم . وعن الربيع قال : كان يحيى أوّل من صدّق بعيسى أنه كلمة من الله وروح منه . وعن الضحّاك : كان يحيى أول من صدّق بعيسى وشهد أنه كلمة من الله ، وكان يحيى ابن خالة عيسى . وعن ابن عباس : كانت أم يحيى تقول لمريم : « إني أجد الذي في بطني يسجد للذي في بطنك : فذلك تصديقه بعيسى ، سجوده في بطن أمه ، وهو أول من صدّق بعيسى وكلمة عيسى . وقال أبو جعفر : زعم بعض أهل العلم أن معنى قوله « كلمة الله » أي كتاب من الله ، من قول العرب (أنشدني كلمة كذا) أي قصيدة كذا ، جهلاً منه بتأويل الكلمة ، واجتراءً على ترجمة القرآن برأيه » .

ـ « سيداً » شريفاً في العلم والعبادة؛ « حصوراً » ممتنعاً من جماع النساء ، لا يشتهيها ولا يقربها ولا يأتيها .

ـ الآية ٤١ « اجعل لي آية ! ـ قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً » قابل إنجيل لوقا (ف ١) .

(٢) الآية ٤٢ « إن الله اصطفاكِ » اختارك واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته . « وطهّرك » أي طهّر دينك من الريب والأدناس التي في أديان بني آدم . « واصطفاك على نساء العالمين » قال الرسول : خير نساء الجنة مريم بنت عمران ، وخير نسائها أيضاً خديجة بنت خويلد . وعن فاطمة أنه قال لها : أنتِ سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول . وعن عمار بن سعد أنه قال: فُضّلت خديجة على نساء أمّتي كما فضّلت مريم على العالمين » فكلمة « عالمين » هنا تعني كل زمان لا زمانها فقط.

(٣) الآية ٤٤ « ذلك من أنباء الغيب » هنا ينتهي الفصل الأول ، وما جاء فيه من « أنباء الغيب » فهو وحي جديد . بينما الفصل الثاني (٤٥ ـ ٥٨) فهو « من الذكر الحكيم » وهو منقول عن الذكر السابق .

(٤) مولد عيسى . نقل الطبري (٦ : ٣٤١) عن ابن منبّه : لما وُلد عيسى أنت الشياطين إبليس فقالوا : أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها ! فقال : هذا في حادث حدث ! وقال : مكانكم ! فطار حتى جاء خافقي

ـ **ألقابه** منذ البشارة به: إنه كلمة من الله؛ وإنه المسيح، عيسى، ابن مريم[١] (٤٥).

ـ **أوصاف شخصيته:** وجيهاً في الدنيا والآخرة؛ ومن المقرَّبين (٤٥). يكلم الناس في المهد وكهلاً، ومن الصالحين[٢].

ـ **معجزة ولادته:** وُلد بمعجزة من دون مسّ بشر لأمه[٣]! (٤٦ ـ ٤٧).

ـ **ميزة نبوّته:** يعلم مباشرة من الله الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل[٤] (٤٨).

ثانياً: رسالة السيد المسيح (٤٩ ـ ٥١).

ـ **معجزات:** رسالته (٤٩): خلق الطيور؛ إبراء الأكمة والأبرص؛ إحياء الموتى؛ كشف الغيب[٥].

الأرض فلم يجد شيئاً ؛ ثم جاء البحار فلم يجد شيئاً ! ثم طار فوجد عيسى قد وُلد عند مذود حمار ، وإذا الملائكة قد حقّت حوله. فرجع إليهم فقال : إن نبيّاً قد وُلد البارحة ما حملت أنثى ولا وضعت إلا أنا بحضرتها إلا هذه ! فايأسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة)) فمولد عيسى هو الذي يقضي على الوثنية والأصنام .

(١) الآية ٤٥ ((بكلمة منه ، اسمه المسيح ، عيسى ، ابن مريم)) أربعة ألقاب تسمّيه . والكلمة لا تعني أمراً من الله ، بل هي اسم عيسى لأن كل التوابع على التذكير . قال العلامة أبو السعود ((بكلمة منه)) قوله ((من)) لابتداء الغاية أي بكلمة كائنة منه عزّ وجلّ ؛ ((ابن مريم)) تنبيهاً لها على أنه يولد من غير أب فلا ينسب إلا إلى أمه ، وبذلك فضلت على نساء العالمين . قال الطبري ((المسيح مسحه الله فطهّره من الذنوب : وقال آخرون : مُسِح بالبركة)) . قابل تفسير الألقاب الأربعة في الزمخشري والرازي . وفي هذه الألقاب الأربعة أربع ميزات انفرد بها المسيح على العالمين .

(٢) الآية ٤٦ تجمع أربعة أوصاف للمسيح قال الطبري : ((وجيهاً : ذو وجه ومنزلة عالية عند الله وشرف وكرامة)) . وأجمع المفسرون أن الوجاهة في الدنيا هي النبوة ، وفي الآخرة الشفاعة يوم الدين ، وعلوّ الدرجة في الجنة . ((ومن المقربين)) قال الطبري : يعني أنه ممن يقرّبه الله يوم القيامة ، فيسكنه في جواره ويدنيه منه)) . وفي هذه الأوصاف الأربعة ميزات أربع انفرد بها المسيح على العالمين ، وإن شاركه في الصلاح والبتولية آل يحيى (الآية ٣٩) .

(٣) الآية ٤٧ بتعابير ثلاثة يؤكد ولادة المسيح البتولية بدون مسيس بشر : هو كذلك ، الله يخلق ما يشاء وكيف يشاء ، ويخلق بدون وسط بقوله ((كن)) . وقوله ((فيكون)) من المضائق في القرآن ، أصله ((فكان)) وعدل لضرورة الفاصلة . وفي سورة مريم يظهر كأن الملاك واسطة الحبل المعجز ؛ أما في سورة آل عمران فالمعجزة بعمل مباشر من الله . وهذه ميزة تاسعة للمسيح من دون العالمين .

(٤) الآية ٤٨ ((ويعلمه)) قال الطبري ((كما أوجده من غير بعل ولا فحل كذلك يعلمه الكتاب)) أي بدون وسط ، والوحي كله . وهاتان ميزتان انفرد بهما المسيح على العالمين والمرسلين .

(٥) الآية ٤٩ ((بآية التنوين للتفخيم، والتنكير دليل العدد : يذكر القرآن للمسيح معجزة النطق في ولادته (٤٧) ومعجزة خلق الطيور في حداثته ، ويذكر له معجزتين في دعوته ، إبراء الأكمة أي الأعمى

ـ **موضوع** رسالته (٥٠ ـ ٥١) تصديق التوراة، تحليل بعض أحكامها؛ تجديد دعوة التوحيد.

ثالثاً: آخرة المسيح (٥٢ ـ ٥٨).

ـ اختيار أنصار المسيح على الإسلام الإنجيلي[١] (٥٢ ـ ٥٣).

مكْرُ اليهود بالمسيح ورفعه إلى السماء[٢] (٥٤ ـ ٥٥).

منذ مولده والأبرص ؛ وإحياء الموتى . وهذه المعجزات كلها آية رسالته ؛ وقد انفرد المسيح بهذه الرسالة وهذه المعجزات التي تؤيدها على الأنبياء والمرسلين ، وهي تفصيل لما ورد موجزاً في سورة البقرة « وآتيناه البينات وأيدناه بروح القدس » . فقد جعل القرآن المعجزة دليلاً على النبوة في رسالة عيسى ، ولم يجعلها دليلاً على رسالة محمد « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون » . ومعجزة خلق الطير ليست من الإنجيل الرسمي بل من إنجيل متى المنحول (ف ٢٨) .

قال الطبري: « عن ابن إسحاق ، لمّا بلغ عيسى تسع سنين أو عشراً أدخلته أمه الكتّاب ، فكان عند رجل من المكتبين يعلمه كما يعلم الغلمان، فلا يذهب يعلمه شيئاً إلا بدره إلى علمه قبل أن يعلمه إياه . ويُحدّث الغلمان بما يصنع آباؤهم . ويخبرهم بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون ..: وزعم فيه أنه ربما اجتمع على عيسى (أثناء دعوته) من المرضى في الجماعة الواحدة نحو خمسين ألفاً ، مَن أطاق منهم يبلغه ، ومَن لم يطق أتاه عيسى ؛ وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله ... ومعجزاته من خلق الطير من الطين وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، لا يطيقها أحد من البشر إلا مَن أعطاه الله ذلك علَماً على صدقه . وآية له أيضاً على صدقه وحقيقة قوله ، أنباؤه بكل الغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر عليه » . ـ وفي هذه البينات على رسالة عيسى ميزة ثانية عشرة انفرد بها على المرسلين .

(١) الآية ٥٢ صدى لدعوة الرسل . نقل الطبري : « وانطلق عيسى ابن مريم فمر بالحواريين وهم يصطادون السمك فقال ما تصنعون ؟ فقالوا : نصطاد السمك . فقال : أما تمشون نصطاد الناس ، فآمنوا به وانطلقوا معه » . فصاروا حواريه : « سموا كذلك لبياض ثيابهم ؛ وقال آخرون : لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب ـ وهذا ينقضه حديث صيد السمك ـ وقيل : الحواريون هم خاصة الأنبياء وصفوتهم ، وأصفياء الأنبياء الذين تصلح لهم الخلافة » .

(٢) الآية ٥٥ « إني متوفيك » قال الطبري : « توفاه ورفعه إليه . ثم اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة فقال بعضهم هي وفاة النوم أي منيّمك ورافعك إليّ . وقال آخرون : الوفاة القبض ، إني قابضك إليّ من الأرض حياً . وقال آخرون معنى ذلك : إني متوفيك وفاة موت ؛ وعن ابن عباس : إني متوفيك أي إني مميتك . وقال آخرون فيه تقديم وتأخير : يرفعه ثم ينزله ويميته كي لا يجمع الله عليه ميتتين » . ـ فالقرآن يعتقد مثل الإنجيل برجوع المسيح في آخر الدنيا « وانه لَعَلم للساعة » ؛ ولكن بينما في الإنجيل يرجع ليدين العالم ، ولا يجري عليه موت ، في الحديث الإسلامي يرجع لإظهار التوحيد على الدين كله ، ونقل كعب الأحبار عن النبي : كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها . وفي معجزة الرفع حياً ميزة ثالثة عشرة انفرد بها عيسى على العالمين والمرسلين .

ـ عاقبة الإيمان بالمسيح: رفعة المسيحيين الدائمة على اليهود[١] (٥٥).

ـ عاقبة أخرى: عذاب الكافرين به في الدنيا والآخرة (٥٦) ومكافأة المؤمنين به[٢] (٥٧).
ختام الفصل (٥٨) « ذلك من الآيات والذكر الحكيم[٣] » .

فصل ثالث: شخصية المسيح (٥٩ ـ ٦٣).

ـ وجوده المعجز: « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم »[٤] (٥٩ ـ ٦٠).

ـ الدعوة إلى المباهلة بالملاعنة على القول الحق في حقيقة أمره[٥] (٦١).

ختام الفصل: « إن هذا لهو القصص الحق: وما من إله إلا الله » (٦٢ ـ ٦٣).

خاتمة السورة (٦٤): دعوة المسيحيين إلى « كلمة سواء[٦] » في التوحيد الخالص.

*
* *

---

(١) الآية ٥٥ « وجاعل الذين اتبعوك فوق » من هم؟ عن السدي : هم المؤمنون به . وعن الحسن هم المسلمون . وقيل بل هم الروم . وقال آخرون : وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة ؛ وقال ابن وهب : ليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب (الطبري). وفي هذا الوعد لأتباع عيسى ميزة رابعة عشرة لعيسى على العالمين .

(٢) الآية ٥٦ ـ ٥٧ عاقبة الكفر بعيسى والإيمان به ، قال الطبري: « فأمّا الذين جحدوا نبوتك وقالوا فيك الباطل فإني أعذبهم عذاباً شديداً أما في الدنيا فبالقتل والسباء والذلة والمسكنة ، وأما في الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبداً وأما الذين آمنوا بك يا عيسى ، فاقرّوا بنبوتك ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به فيعطيهم جزاء أعمالهم كاملاً » .

وهكذا يظهر من القرآن أن الدينونة من خلاص أو هلاك قائمة على الإيمان بالمسيح أو الكفر به . وفي هذا الوعد والوعيد ميزة خامسة عشرة للمسيح انفرد بها على المرسلين أجمعين .

(٣) الآية ٥٨ « ذلك من الذكر الحكيم » فهو تنزيل مكرّر. والآية خاتمة ذكر المسيح وأمه .

(٤) الآية ٥٩ « إن مثل عيسى » قال الطبري : « فليس خلقي عيسى من أمه بغير فحل بأعجب من خلقي آدم من غير ذكر أو أنثى » ـ وهو من قبيل تشبيه الغريب بالأغرب . ولكن خلق آدم ليس بمعجزة لأنه ليس من قبيل خرق العادة وناموس الطبيعة ، كما هو الحال في ميلاد المسيح ؛ والخلق عمل إلهي لا معجزة بحد ذاته.

(٥) الآية ٦١ المباهلة . قال الطبري « أمره أن يدعوهم إلى الملاعنة . فلما فعل ذلك امتنعوا عن الملاعنة ودعوا إلى المصالحة كما نصحهم عاقل منهم : إن كان نبياً ثم دعا عليكم لا يغضبه الله فيكم أبداً ؛ ولئن كان ملكاً فظهر عليكم لا يستبقيكم أبداً . فلما غدوا غدا النبي ص محتضناً الحسن آخذاً بيد الحسين وفاطمة تمشي خلفه فدعاهم إلى الذي فارقوه عليه فقالوا (نعوذ بالله) مراراً . قال فإن أبيتم فاسلموا ؛ فإن أبيتم فاعطوا الجزية ، فإن أبيتم فأنبذ إليكم على سواء . فقالوا : ما لنا طاقة بحرب العرب ولكن نؤدي الجزية فصالحوه على صلح » .

(٦) الآية ٦٤ « تعالوا إلى كلمة سواء » أي كلمة عدل . قال الطبري : « اختلف أهل العربية في وجه إتباع « سواء » في الإعراب من « كلمة » فهو اسم لا صفة . واختلف أهل التأويل فيمن نزلت ، فقال بعضهم

البحث الثالث

فتح الجزيرة من اليمن إلى الشمال

- « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء » - آل عمران ٦٤
- « قاتلوا ... حتى يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون » - توبة٣٠

تمهيد

الأحداث الأخيرة من حياة النبي.

بعد أن اطمئن النبي إلى سيطرته التامة على الحجاز الشمالي والجنوبي، وجّه أنظاره وبعوثه وسراياه وغزواته إلى اليمن وإلى الشمال من الجزيرة العربية. وبدأ بعد رجوعه من الفتح الأكبر لمكة بتنظيم جباية الأموال أو « الصدقات » أو الزكاة المفروضة.

١) جباية « العشر » من المسلمين، والخراج من المعاهدين

قال حسين هيكل في (حياة محمد)[١]: « لم يكن بدّ من أن يدفع المسلمون زكاة العشر، وأن يدفع العرب الذين أصرّوا على جاهليتهم ما يُفرض عليهم من خراج. وقد يحرجهم ذلك، وقد يدعوهم إلى التذمّر وإلى أكثر من التذمّر. لكن ما اتّصل بالدين الجديد، من نظام في شبه الجزيرة جديد، لم يجعل من جمع العشر والخراج مخرجاً. ولهذه الغاية أوفد محمد عاشريه، بعد قليل من عوده من مكة، ليجمعوا له عشر إيراد القبائل التي دانت

نزلت في يهود ؛ وقال آخرون نزلت في الوفد من نصارى نجران . وقال أبو جعفر عنى بها أهل الكتابيين لأنه لا دلالة على أنه مخصوص ، ولا أثر صحيح على اختصاصه » . - بل هي ختام نصارى نجران ، وإقحام جدال هؤلاء النصارى في جدال اليهود حمل الطبري وسواه على الوهم . ختم القرآن الجدال على التفاهم والمصالحة مع النصارى ، لأنهم في عام الوفود (٦٣١م) لم يزالوا « أهل المودة » (مائدة ٨٥) .

(١) حياة محمد ٤٣٨ .

للإسلام من غير أن يتعرّضوا لأصول أموالها. فتلقتهم القبائل بالترحاب لم يند عن ذلك غير فرع من بني تميم، وغير بني المصطلق[١])) . ولكنهم اعتذروا إلى النبي وانقادوا مع سائر الناس.

وفريضة العشر التي فرضها النبي على رعايا الأمة الإسلامية كانت سُنّة مشروعة في الكنيسة المسيحية، في الوصية السابعة من وصاياها: ((أوفِ بركة العشر)) ؛ وترجمها القرآن بالصدقة.

*

٢) في العهد المدني الثاني: دعوة النصارى، وجدالهم، وإخضاعهم للجزية

استفتح النبي العهد المدني الثاني من دعوته بتذكير النصارى العرب ببشارة المسيح ووعده بإرسال الروح القدس الفارقليط؛ وقال لهم إنه هو ((أحمد)) (صف ٦). وأنذرهم بالكف عن الغلو في دينهم بشأن المسيح وأمه. أخيراً دعاهم إلى ((كلمة سواء)) في الإسلام الإنجيلي القرآني. ولما لم يستجيبوا للدعوة، أمر بإخضاعهم للدولة الإسلامية، وعنوان ذلك الجزية المفروضة عليهم. وطيلة العهد كانت الدعوة تتراوح بين التودّد والتهديد.

قال الأستاذ دروزة[٢]: ((كان غالب سكان مشارف الشام نصارى تابعين لنفوذ دولة نصرانية كبرى. وقد ذكرت الروايات أخبارَ اعتداء بعض قبائل هذه المشارف كقضاعة وبني كلب، على قوافل التجار؛ وخبرَ قتل أحد رسل رسول الله في هذه المنطقة؛ وأخبار سرايا جهادية مثل سرية ذات الأطلاع التي قُتل أكثر رجالها بيد قبائل العرب (دفاعاً عن ثغور المملكة الموكولة إليهم)؛ ومثل سرية دومة الجندل، ومثل سرية مؤتة المشهورة التي وصلت إلى أبواب البلقاء ودارت الدائرة فيها على المسلمين، ونجت برجعة ماهرة تولاّها خالد بن الوليد. وقد بدأت هذه السرايا (ضد العرب النصارى في الشمال) منذ السنة الهجرية السادسة (بعد أن صفّى يهود المدينة وأخضع يهود الشمال) . وهكذا يكون **الصدام المسلّح** بين النبي والمسلمين من جهة، وسكان المشارف من جهة أخرى، قد بدأ منذ أوائل النصف الثاني من العهد المدني، واستمرّ)) .

*

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٤٦ .
(٢) سيرة الرسول ٢ : ١٦٤ .

٣) غزوة تبوك ضدّ العرب النصارى على الحدود الرومية

(رجب ٩ هـ = تشرين الأول ٦٣٠)

ختم محمد جهادهُ مع العرب النصارى بحملة كبرى على مراكزهم القوية في مشارف الشام على حدود المملكة الرومية التي كانوا يحمونها من غزوات الأعراب على المعمورة، وذلك في رجب من السنة التاسعة للهجرة أي في تشرين الأول ٦٣٠م، بعد فتح مكة وجنوب الحجاز بنحو سنة.

اطمأن إلى سيطرته على الحجاز كله، واطمأن إلى تصفية حساب اليهود، فوجّه في آخر أيامه أنظاره إلى العرب النصارى، وكانوا الكثرة الساحقة في اليمن، ومشارف الشام. بدأ بالشمال لأن دويلات العرب النصارى فيها كانت أضعف من دول اليمن، وأضعف من أن تقاومه. وجهّز للقائهم أكبر حملة في حياته، ربما تحسّباً من جيش الروم المعسكر في منطقة حمص مع قائده المظفّر هرقل.

وإنها لخطة ثابتة في السيرة النبوية، من أن الرسول كان إذا فشل في حملة على جهة استعاض عنها بحملة على جهة أخرى؛ ولما فشل في حصار الطائف وقفل إلى المدينة مع الأنصار، دعا إلى حملة كبيرة إلى الشمال. وقد يكون السبب أيضاً الانتقام من أولئك العرب النصارى الذين يشايعون غير قومهم، فيكونون بذلك خطراً على الدولة الإسلامية الناشئة. وقال الأستاذ دروزة[١]: ((وممّا ورد عن أسبابها المباشرة أن النبي قد بلغه تجمّع جموع كثيرة على حدود الشام تريد غزو الحجاز ردّاً على حملة مؤتة. كما ورد أن قبائل العرب في هذه الحدود تجرأت أكثر من ذي قبل على القوافل بعد ما كان من عاقبة حملة مؤتة المحزنة ما كان[٢]. فرأى النبي ص. أن يجمع أكبر عدد ممكن من المسلمين ويخرج بهم بنفسه إلى هذه الحدود إرهاباً للعدو. فاستنفر الناس واستعانهم بالمال، ولم يزل بهم محرّضاً مُرغيّاً، ومنذراً منذّداً (كما تنص سورة التوبة) حتى تمكّن من جمع جيش عظيم بلغ ثلاثين ألفاً ونيّفاً من مشاة وركبان؛ وحتى تمكن من جمع عدّة وافرة من السلاح

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ١٦٨ .

(٢) هذا السببان اللذان يوردهما الأستاذ يتعارضان : طالما جيش الثغور العربي كفى لصد الأعراب في مؤتة، والتعدي على القوافل العربية ، فلم يكن من حاجة إلى الجيش النظامي لشن حملة على الحجاز غير واردة .

والخيل والإبل والماشية والطعام والثياب، بالرغم مما كان من شدة الحر، وعسر الوقت حتى سمّي الجيش ((بجيش العسرة)) . ((وأخرج الطبراني عن ابن عباس أن النبي ص. قال: اغزوا تغنموا بنات الأصفر! فقال ناس من المنافقين: إنه ليفتنكم بالنساء! فأنزل الله: ((ومنهم من يقول إئذن لي ولا تفتنّي[١])) . وخرج النبي بجيشه العظيم في شهر رجب؛ ((وضرب عبد الله بن أبَي معه على حدة عسكره أسفل منه . وكان فيما يزعمون ليس **بأقل العسكرين.** فلمّا سار رسول الله ص. تخلّف عنه عبد الله بن أُبَي فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الريب[٢]. ووصل النبي تبوك بعد عشرين يوماً وعسكر فيها ولم يتعدَّها)) . وأضاف عمر فروخ[٣]: ((ولكن الروم لم يتعرّضوا للرسول. فعقد الرسول معاهدات مع البلدان المتاخمة للحجاز كأيلة (العقبة) وأذرح، وجرباء ومَقُنَا (منقبا؟) وفرض على كل بلدة جزية معينة[٤])) . وكان العهد معهم على المسالمة والمناصحة منهم، وعلى الحماية والذمة من المسلمين. وعدم تعرّض جيش الروم، القافل من سحق جيش كسرى، للعرب؛ واكتفاء النبي بتلك المعاهدات مع الأمارات العربية، يعنيان أن الروم لم يفكّروا بغزو الحجاز، وأن النبي أيضاً لم يكن يفكّر بغزو الروم، بل حصر كل همه في جَمْع كلمة العرب أجمعين في وحدة قومية إن لم تكن دينيّة. وكان له من غزوة تبوك ما أراد، فخضع له جميع عرب الشمال من نصارى ويهود.

وكانت غزوة تبوك ((آخر غزوات النبي ص. ومن أهمها مدى ومعنى وكثرة عدد وبعْد شقّة، إن لم نقل أهمّها[٥])) . وفرضت غزوة تبوك الجرّارة هيبتها على الجزيرة كلها فكان من نتائجها: مبايعة الوفود للنبي في السنة ذاتها، ثم تحريم الحج إلى المسجد الحرام على المشركين سنة عشر، وحجة الوداع المهيبة في مائة ألف مسلم، مع خضوع اليمن بسيف علي ابن أبي طالب ونجران بسيف خالد بن الوليد سنة إحدى عشرة.

وفي غزوة تبوك وملابساتها نزلت سورة التوبة (القسم الثاني منها).

*

---

(١) السيوطي : أسباب نزول الآية ٥٠ من التوبة .
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ١٦٢ .
(٣) العرب والإسلام ٥٤ .
(٤) قابل سيرة ابن هشام ٤ : ١٦٨ .
(٥) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١٦٨ .

٤) قصة مسجد الضرار (توبة ١٠٨).

في عودة النبي من غزوة تبوك قضى على آخر محاولة لتثبيت الكيان المسيحي في المدينة والحجاز. أورد السيوطي في أسباب نزول الآية ١٠٨ من سورة التوبة: « والذين اتخذوا مسجداً، ضِراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين، وإرصاداً لمن حارب الله والرسول من قبل » : قال ابن عباس: لما بنى رسول الله ص. مسجد قباء خرج رجال من الأنصار فبنوا مسجد النفاق. فقال لهم أبو عامر الراهب: ابتنوا مسجدكم واستعدوا بما استطعتم من قوّة وسلاح وإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم (وقد طالت عودة الراهب) أتوا النبي وهو مجهّز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنَّا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة، وإنَّا نحبُّ أن تأتينا فتصلِّي لنا فيه. قال: إني على جناح سفر، ولو قد قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلَّينا لكم فيه. فلمّا رجع من تبوك نزل بذي أوان على ساعة من المدينة فأنزل الله الآية (١٠٨ من التوبة) فدعا رجلين فقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وأحرقاه ففعلا. لأن النبي عرف عند منقلبه من تبوك أن المنافقين عرضوا بمسجد يبنونه، أن يضاهوا به مسجد قباء، حتى إذا قدم أبو عامر الراهب يكون إمامهم فيه. وكان الذين بنوه للراهب أبي عامر اثني عشر رجلاً[1] » .

وبهدم مسجد الراهب نفّذ النبي ما تركه لأمته وصيةً على فراش الموت: « لا يجتمعنَّ في جزيرة العرب دينان » !

*

٥) حجّ أبي بكر بالناس سنة تسع: نزول (البراءَة) من المشركين

جاء في السيرة[2]: « أقام رسول الله ص. بقية شهر رمضان وشوالاً وذا القعدة ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع في (ثلاثماية مسلم) ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشكر على منازلهم من حجهم. فخرج أبو بكر ومنْ معه من المسلمين. ونزلت (براءة) في نقض ما بين رسول الله ص. وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم (منذ الحديبية): أن لا يُصدّ عن البيت أحد جاءَه، ولا يخاف أحد في الشهر الحرام.

---

(١) قابل أيضاً سيرة ابن هشام ٤ : ١٧٣ ـ ١٧٥ .
(٢) لابن هشام ٤ : ١٨٨ ـ ١٩٣ .

وكان ذلك عهداً عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك. وكان بين ذلك عهود بين رسول الله ص. وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجالٍ مسمّاة. نزل: « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين (أي لأهل العهد العام من أهل الشرك). وأذان من الله ورسوله إلى الناس، يوم الحج الأكبر، إن الله بريء من المشركين ورسوله (أي بعد هذه الحجة) ... إلا الذين عاهدتم من المشركين، فأتموا لهم عهدهم إلى مدّته (أي العهد الخاص إلى مدة). فإذا انسلخ الأشهر الحرام (يعني الأربعة التي ضرب لهم أجلاً) فاقتلوا المشركين حيث وجدتموه » . فدعا عليَّ بن أبي طالب ر. فقال له لا يؤدّي عني إلا رجل من أهل بيتي، أخرج بهذه القصة من صدر براءَة وأذّن بالناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى: أنه لا يدخل الجنة كافر! ولا يحج بعد العام مشرك! ولا يطوّف بالبيت عريان! ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدّته! فخرج علي على ناقة رسول الله، الغضْباء، حتى إذا كان يوم النحر،قام عليّ فأذّن بالناس بالذي أمر رسول الله ص. » وختم: « إنما المشركون نَجْسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » !

ولما اطمأن النبي إلى سلطانه، الموطّد على الحجاز، المتغلغل في سائر الجزيرة، حَرَّم الكعبة على المشركين؛ وهي أكبر ضربة كان يمكنه أن يوجهها إليهم ليحملهم على الإسلام حملاً. قال دروزة[1]: « وقد احتوت الآية (توبة ١٠٨) دلالة على توطيد الإسلام وشموله في مكة، وما صار إليه من قوة وعزّة جانب. غير أنها إلى هذا انطوت على معنى من معاني إعلان المقاطعة وسدّ الأبواب في وجه من بقي على شركه بعد الفتح. ولعل أهل الطائف هم المقصودون في الدرجة الأولى بهذا لأنهم أهمّ مَن بقي على شركه من سكان الحجاز. ولعلهم أسرعوا إلى الاتصال بالنبي حينما أعلن « تحريم دخول المشركين إليها » . وتروي السيرة أن بني ثقيف، أهل الطائف، كانوا أول من بايع النبي بعد رجوعه من تبوك. فكان تحريم الكعبة على المشركين ضربة معلّم ماهر، كان لها أثر كبير في مبايعة الوفود، بعد الرهبة التي انتشرت في الجزيرة من غزوة تبوك الجرّارة.

وجد المسلمون غضاضة على أرزاقهم في تحريم الكعبة على المشركين وما يفوتهم من مغانم الحج والعمرة، التي كان معوّل معيشة أهل مكة عليها: « وإن خفتم عيلة فسوف

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ٣٠٢ .

يغنيكم الله من فضله إن شاء » (توبة ٢٨)، فعوّض عليهم بالجزية التي فرضها في قتال أهل الكتاب، وكانت سبباً من أسباب جهادهم وقتالهم.

*

٦) عام الوفود (سنة تسع = ٢٠ آذار ٦٣٠ ـ ٨ آذار ٦٣١)

عوامل ثلاثة دفعت العرب إلى مبايعة الرسول على الإسلام أو على السِلْم معه: فتح مكة، وغزوة تبوك، وتحريم الكعبة على المشركين. جاء في السيرة[١]: « كانت العرب تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ص. وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام، وصريح ولْد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا يُنكرون ذلك. وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ص. وخلافه. فلما افتُتحت مكة، ودانت له قريش، ودوّخها الإسلام، **وعرفت العرب أن لا طاقة لها بحرب رسول الله ص.**، ولا عداوته، فدخلوا في دين الله أفواجاً يضربون إليه من كل وجه » .

وكانت الطائف أول من أسرع إلى المبايعة لأنها كانت هي المقصودة الأولى من تحريم مكة على المشركين: « وقدم رسول الله ص. المدينة من تبوك في رمضان وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف[٢] » ترددت ثقيف كثيراً قبل هذه الخطوة الأخيرة التي لم يعد لهم منها مفرّ. وقد فرح النبي وزعماء الصحابة كثيراً بمبايعة ثقيف، ولكن المفاوضة على المبايعة كانت شاقّة: طلبت ثقيف من النبي بقاء صنمهم اللات ثلاث سنين، ثم سنتين، ثم سنة، ثم شهراً بعد رجوعهم اتقاء سفهائهم ونسائهم وذراريهم؛ فلم يقبل النبي. ثم طلبوا إعفاءَهم من الصلاة فأجاب: لا خير في دين لا صلاة فيه! فقالوا: يا محمد سنؤتيكها وإن كانت دناءَة. واستعذروا من تكسير أصنامهم بأيديهم فعذرهم وأرسل معهم أبا سفيان ابن حرب، والمغيرة بن شعبة، ليقوما بهدم اللات؛ ففعلا. « وبإسلام الطائف كان الحجاز كله قد أسلم[٣] » .

قال ابن إسحاق: لمّا افتتح رسول الله مكة، أو فرغ نم تبوك، وأسلمت ثقيف

---

(١) لابن هشام ٤ : ٢٠٥ .
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ١٨٢ .
(٣) حسين هيكل: حياة محمد ٤٥١ .

وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل جهة. وكان ذلك سنة تسع وإنها كانت تسمّى سنة الوفود[١] » .

وفي سنة تسع (٦٣٠ ـ ٦٣١) أسلم بعد ثقيف بنو أسد في نجد، وبنو تميم. ثم تتالت وفود اليمن وما حولها بعد ذلك، سنة عشر للهجرة[٢] (٦٣١ ـ ٦٣٢).

والوفد الذي ترك أكبر الأثر في القرآن (آل عمران ٢٣ ـ ٦٤ والمائدة) كان وفد نجران النصراني. « وكان مؤلفاً من ستين شخصاً، منهم أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من كبار رجال دينهم (الأسقف والسيد والعاقب). فاجتمعوا بالنبي ص في مسجده وعليهم الحبرات. وجرت بينهم مناظرة (في عدة جلسات) كان أهم مواضيعها ولادة عيسى عليه السلام وصلته بالله ورسالته. وقد جادلوه مستشهدين بما قرره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه. وردّ عليهم مندّداً بتأويلاتهم التي لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدأ التوحيد المطلق الذي قرره القرآن ودعا إليه. ولكنهم لم يقتنعوا وظلوا يدّعون أنهم على الحق. فطلبهم إلى المباهلة أي أن يدعو ويدعون هم بأن تكون لعنة الله على الكاذبين. فلم يجيبوا الطلب ووادعوه وانصرفوا[٣] » . وكانت كلمة الختام معهم دعوتهم إلى « كلمة سواء » في التوحيد الإنجيلي القرآني. فلمّا رفضوا هذه الدعوة نزل الأمر بقتال النصارى حتى « يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (براءة ٣٠).

« ثم بعث رسول الله ص خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى، سنة عشر (٦٣١ ـ ٦٣٢) إلى بني الحارث بنجران. وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً: فإن استجابوا فاقبلْ منهم وإن لم يفعلوا فقاتلهم. فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: **أيها الناس اسلموا تسلموا!** فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه[٤] » .

ومن الوفود الشرقية وفد بني حنيفة جماعة (مسلمة الكذاب). تمثّل مسلمة بمثل محمد، فادّعى النبوة في بني حنيفة ودعاهم إلى التوحيد الذي كان شائعاً بينهم بدعوة النصرانية

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٠٥ .
(٢) عمر فروخ: العرب والإسلام ٥٤ .
(٣) دروزة: سيرة الرسول ٢ : ١٤٨ .
(٤) السيرة ٤ : ٢٣٩ .

الشرقية أي النسطورية. واتّسم توحيده بعبادة الرحمان، مثل دعوة القرآن، ولذلك لقبوه (رحمان اليمامة). وتوطّد أمره طيلة حياة النبي. وفد بنو حنيفة على النبي وبايعوه؛ ولمّا رجعوا فتنهم صاحبهم، وكتب إلى النبي: « من مُسلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: سلام عليك. أما بعد فإني قد أشركت في الأمر معك. وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض؛ ولكن قريشاً قوماً يعتدون[1] » . فردّ عليه النبي رداً قاسياً. ولكن « أصفقت معه حنيفة على ذلك » واجمعوا عليه. وذلك آخر سنة عشر.

وكما حسد مسلمة النبي على نبوته وملكه، حسده الأسود العنسي سيد صنعاء، وصاحب اليمن بعد موت بدهان عامل كسرى عليه. ادّعى النبوءة في صنعاء وخرج على عامل النبي العاشر وطرده، وسار من الجنوب يطرد عمال محمد على اليمن، الذين يجبون العشور أي الصدقات، وتقدم إلى نجران وقتل ابن بدهان ووارث عرشه وبنى بزوجه ونشر بكل الأصقاع سلطانه. فبعث محمد إلى عماله في اليمن أن يحيطوا بالأسود أو يقتلوه. ونجح المسلمون في تأليب اليمن من جديد على الأسود، وقتلته زوجه، انتقاماً لزوجها الأول بدهان[2]. وطيّع سيفا الإسلام، علي وخالد، اليمن للإسلام، ورجعا إلى النبي في حجة الوداع.

وفي عام الوفود بايع النبي وفد من بني أسد في نجد. ولكن ظلّ أكثرهم يتبع نبياً آخر، أخذ يقتفي آثار محمد، مع قوم في نجد: « قام طُليحة، زعيم بني أسد واحد أشاوس العرب في الحرب، ومن ذوي السلطان في نجد، وزعم أنه نبي ورسول. لكنه بقي خائفاً من الانتقاض على محمد طوال حياة النبي، ولم يعلن الثورة إلا بعد أن قبض الله إليه ورسوله. وهزم ابن الوليد طليحة في ثورته هذه، فانضمّ من جديد إلى صفوف المسلمين وحسن إسلامه[3] » .

وهذه الوفود من الحجاز ونجران وحضرموت، واليمامة ونجد تعني أن الإسلام فشا في الجزيرة العربية كلها؛ ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أن الجزيرة العربية كلها قد أسلمت على أيام النبي. بل إن مناطق عديدة في الجنوب والشرق والشمال من الجزيرة ظل بعيداً عن الإسلام وسلطانه. وحروب الردّة بعد موت النبي تظهر أن أكثر مبايعات

---

(١) السيرة ٤ : ٢٤٧ .
(٢) هيكل : حياة محمد ٤٧٧ .
(٣) حسين هيكل : حياة محمد ٤٧٧ .

الوفود كان شكلياً، رهبة منهم أو رغبة، وعامل الإيمان الخالص كان فيهم ضعيفاً كما تشهد سورة التوبة: « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً (٩٨) ومن الأعراب مَن يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر (٩٩) وممن حولكم من الأعراب منافقون، ومن أهل المدينة مرقوا على النفاق (١٠٢) أولا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين » (١٣٧) عند نزول القرآن. فإذا كانت هذه حال الحجاز فكم بالأحرى أطراف الجزيرة !

ومع ذلك كانت مبايعة الوفود مشهداً رائعاً، وفاتحة خير في إسلام الجزيرة العربية كلها. ولذلك خُتم القرآن بهذا النشيد المعجز:

« إذا جاء نصر الله والفتح ! ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً
فسبّح بحمد ربك ! واستغفره ، انه كان توّاباً ! »

*

٧) حجة البلاغ والوداع (آخر ذي القعدة سنة عشر = آذار ٦٣٢م).

كان لا بد للرسول، الذي اعتمر مرّتين قبل فتح مكة وبعدها، أن يحجّ في الناس مرة حتى يبين لهم مناسك الحج الإسلامي. فتجهز للحج وأمر الناس بالتجهّز له. وكانت دعوة عامة تجاوبت أصداؤها في كل الجزيرة فخرج مع رسول الله نحو مائة ألف من المسلمين. « خرج رسول الله ص إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة، لا يذكر ولا يذكر الناس إلا الحج! ثم مضى على حجه فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سُنن حجهم: من الموقف ورمي الجمار، وطواف بالبيت وما أحل لهم من حجهم وما حُرّم عليهم. وخطب الناس خطبته » . وتلا الآية: « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم: فلا تخشوهم واخشوني! اليوم أكملت لكم دينكم! وأتممت عليكم نعمتي! ورضيت لكم الإسلام ديناً! » (مائدة ٤). ثم صاح: اللهم هل بلّغت؟ فقال الناس: اللهمّ نعم! فقال: اللهمّ فاشهد! فكانت حجة البلاغ وحجة الوداع، ذلك أن رسول الله لم يحج بعدها[1] » . ففي آخر صف عام ١١ هـ (آخر أيار سنة ٦٣٢م) مرض الرسول وأخذته الحمّى. ثم توفى يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ للهجرة (٨ حزيران ٦٣٢م).

*
* *

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٤٨ ـ ٢٥٣ . ـ وفي خطبة النبي ، في حجة الوداع ، يذكر المرأة بقوله : « واستوصوا بالنساء خيراً ، فانهنّ عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً (السيرة ٢ : ٢٥١) : فالمرأة في عصمة الرجل لا تملك من أمرها شيئاً لأنها « عانية » عند الرجل أي أسيرة : هكذا أوجز النبي بخطبته الوداعية فلسفة القرآن في شخصية المرأة .

الثالثة والعشرون : (أو ١١٣) **براءَة أو التوبة (٩): حملة تبوك على النصارى العرب**

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٣٧)

فذلكة: قال الجلالان: « روى البخاري عن البرّاء أنها آخر سورة نزلت » .

وجاء في الإتقان : « نقل الفريابي : إن أول ما نزل من براءة (انفروا خفافاً وثقالاً ـ ٤٢) ثم نزل أولها ثم نزل آخرها . وأخرج ابن أشته في (المصاحف) : إن قوله (انفروا) هو أول آية نزلت منها في الغزوة ؛ فلما رجع من تبوك نزلت براءة إلا ثمانياً وثلاثين آية من أولها » . فهذه نزلت فيما بعد . وعليه يكون القسم الثاني من سورة براءة = التوبة قد نزل قبل صدورها . لذلك فالسورة من سورتين منفصلتين موضوعاً وزماناً : أولاً سورة التوبة على التخصيص (٣٩ ـ ١٢٠) ثانياً سورة « براءة » على التخصيص (١ ـ ٣٨) وكلاهما فيهما فصول مقحمة من قبل فتح مكة ومن بعد الفتح (١٤ ـ ٢٨) . وعليه يكون نص سورة براءة الذي تلا عليّ بن أبي طالب بالنيابة عن النبي ، في الحج الأكبر (عام ٦٣١م) ثلاث عشرة آية في نقض العهد العام مع المشركين ، وأذن بقتالهم حيثما وُجدوا (١ ـ ١٣) على قول مجاهد ؛ وألحق بها الآية (٢٩) بتحريم المسجد الحرام على المشركين .

هذه السورة هي آخر ما نزل من القرآن (لا المائدة) لأنها تنقض موقف القرآن كله من النصارى : كانوا حتى سورة المائدة (٨٥) أهل « المودة » للمسلمين من دون الناس أجمعين ؛ ففرضت هذه السورة، (براءة = التوبة) ، قتالهم مثل المشركين ، أسوة باليهود ، مع الفارق الكبير بإخضاعهم للجزية أي للدولة الإسلامية ، لا للذين الإسلامي ؛ وعلى هذه السورة ، من دون القرآن كله ، عاش المسلمون وسار التاريخ الإسلامي .

قيل في السورة من المنسوخ سنة مواضع ، ومن الناسخ تسعة ، ومن الغريب أن يكون في آخر سورة نزلت منسوخاً ؛ وقد يأتي الناسخ فيها إلى جنب المنسوخ ، وقد تكون الآية الناسخة (١٠٠) بين منسوختين (٩٨ و١٠٢) .

*
* *

« سورة براءة » : (١ ـ ٣٨) **وصية القرآن الأخيرة لأمته[1].**

فصل أول (١ ـ ١٣)[2]: نقض العهد بعدم الاعتداء: قتال المشركين حتى يؤمنوا.

---

(١) صدر براءة هو شرعة محمد الأخيرة في قتال المشركين والكتابيين على السواء ، وهذه الشرعة هي وصية محمد الأخيرة لأمته ، وهي التي طبعت الإسلام نهائياً بطابعها الخاص . لذلك فهي آخر سورة نزلت من القرآن ، وفيها موقف القرآن الأخير من الكتابيين خصوصاً النصارى .

(٢) الآية ١ جاء في (المستدرك) عن مالك : « إن أول سورة براءة سقط ، وسقطت معه البسملة ، فقد ثبت أنها كنت تعدل البقرة بطولها » . وقيل اسقطوا البسملة منها ، وجمعوا إليها (الأنفال) حتى يجعلوها من السبع الطوال .

١) براءة عامة[١] من المشركين، سوى أهل العهود الخاصة مثل عهد الحديبية (١ ـ ٥).

٢) قتال شامل متواصل للمشركين العرب حتى يؤمنوا عنوة واقتداراً، باستثناء المستجير[٢] (٦ ـ ٧).

٣) تبرير نقض العهد مع المشركين: لا عهد لهم (٨ ـ ١٣)

وكفرهم يشهد عليهم[٣] (١٨ ـ ١٩).

*

فصل مقحم (١٤ ـ ١٨) من قبل فتح مكة ومن بعده.

---

(١) الآية ١ « براءة » : ـ إلى الذين عاهدتم من « المشركين » يسنّ نبذ العهد مع المشركين : فهل يكفي فارق الدين ، في العُرف الدولي ، لنقض المعاهدات ؟

قال النحاس : « للعلماء في هذه الآية سبعة أقوال عن العهد ومدته » . وقال دروزة : « لم يُروَ فيما نعرف أنه كان بين النبي ومشركي مكة ومنطقتها وقبائلها عهد غير عهد الحديبية » (سيرة الرسول ٢ : ٢١). وقال أيضاً : إن المعاهدين الذين ظلوا أوفياء، والمعاهدين الناكثين من المشركين هم غير أهل مكة الذين خضعوا للإسلام ودانوا به عقب الفتح ، وهم قبائل من منطقة مكة منهم ثقيف في الطائف التي لم يتمكن النبي من فتحها حينما حاصرها عقب الفتح » . (٢ : ٢٤٦) .

(٢) الآية ٦ « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموه » : قال النحاس : « قالوا هي ناسخة لقوله (فإمّا منّاً بعد وإما فداءً) . وقالوا إنها منسوخة به . وقال آخرون : الآيتان محكمتان والخيار للإمام . وقال النحاس : نسخ بهذه الآية مائة وثلاثة عشر موضعاً في القرآن . وقال ابن حزم : نسخ بهذه الآية مائة وأربع عشرة آية في ثمانٍ وأربعين سورة » (الناسخ والمنسوخ ٢٦٥). ونقل الإتقان (٢ : ٢٤) : « وقال ابن العربي : كل ما في القرآن من الصفح عن الكفار والتولّي والإعراض والكف عنهم منسوخ بآية السيف . ثم نسخ آخرها أولها » . هذا القول « فإن تابوا فخلوا سبيلهم » . هو استثناء لا نسخ .

وجهاد المشركين شريعة توراتية تلمودية (تثنية ٢٠ : ١٦ ـ ١٨) طبّقها محمد على مشركي العرب كما طبّقها يشوع بن نون خليفة موسى على مشركي الكنعانيين .

قال دروزة : « ففي سورة التوبة لآيات ٧ ـ ١٦ يلهم مضمونها أنها نزلت قبيل فتح مكة وفي صدد الحث والاستنفار إلى غزوها كما يُلهم أن ذلك قد كان بسبب نكث بدأ من جانب أهل مكة المعاهدين » (سيرة الرسول ٢ : ٢٩٨) .

(٣) هاتان الآيتان (١٨ ـ ١٩) تابعتان للبراءة من عهد المشركين ؛ ونصهما الصريح « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ... إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » يحرم دخول المسجد الحرام والصلاة فيه للمشركين وحدهم ، لا للذين يؤمنون بالله واليوم الآخر كأهل الكتاب ؛ وقياس المنع على الكتابيين، كقياس قتالهم مثل المشركين ظلم نصّ القرآن براء منه ، وقتال الكتابيين هو لإخضاعهم لسلطان الإسلام لا لدين الإسلام ، فهم أهل التوحيد الأول ويحق لهم أن يعمروا مساجد الله ، والمسجد الحرام ذاته .

١) قبل الفتح: تحريض على غزو مكة: نكثوا بعهد الحديبية[١] (١٤ ـ ١٧).

٢) من بعد الفتح: إلغاء امتيازات سادة مكة[٢] (٢٠ ـ ٢٣).

٣) قبل الفتح: تحريض على قتال الأهل المصرّين على الشرك والتبرئة منهم[٣] (٢٤ ـ ٢٥).

٤) بعد الفتح: ذكرى غزوة حنين ضد هوازن (٢٦ ـ ٢٨).

*

ملحق أول (٢٩) نقض العهد بعدم الاعتداء على الحجيج، بتحريم الكعبة على المشركين لأنهم نجس[٤]!

*

---

(١) الآية ١٤ « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم (عهودهم ، ومنها عهد الحديبية) وهموا بإخراج الرسول (في عمرة القضاء) وهم بدؤكم أول مرة (حيث قاتلوا خزاعة حلفاءكم مع بني بكر) . قابل الجلالين .
قال دروزة : « هذه الآيات ١٤ ـ ١٥ نزلت قبل الفتح تحريضاً على قتال أهل مكة كما هو ظاهر » (سيرة الرسول ١ : ٢٥٩) .
ـ والآية (١٥) « قاتلوهم يعذبهم الله ، ويشف صدور قوم مؤمنين » . تجعل من غزو مكة شفاءً لصدور المؤمنين .
(٢) الآية ٢٠ « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » . نزلت رداً على من قال ذلك وهو العباس أو غيره (الجلالان) فالذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا أعظم درجة من أهل الحرم الذين آمنوا بعد الفتح (٢١) .
(٣) الآية ٢٤ ـ ٢٥ قال دروزة : هذه الآيات يلهم مضمونها أنها نزلت كذلك قبيل الفتح ، وفي صدد الحث والاستنفار إلى غزو مكة ، حتى لا يتأثر المهاجرون بروابط الرحم والقربى والمصلحة المادية التي كانت تربط كثيراً منهم بأهلها » (سيرة ٢ : ٢٩١) . وقال أيضاً عن الموالاة : « لا نرى محلاً للتوهم : فحسن المعاشرة أو الصحبة شيء، والتولي والتناحر شيء آخر » (٢ : ٢٥٠) .
(٤) الآية ٢٩ « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » تحرم اقتراب الكعبة على المشركين ، وتصفهم بأنهم « نَجَس » وهو تعبير توراتي ، ردّده الأنبياء بشدة (حزقيال ٤٤ : ٧ و٩).
قال النحاس في (الناسخ والمنسوخ ص ١٦٥) : « قال أبو جعفر الآية ناسخة لما كان رسول الله صالح عليه المشركين أن لا يُمنع من البيت أحد . واختلف العلماء في حكم هذه الآية وفي دخول المشركين الحرم وسائر المساجد قال مالك : يُمنع المشركون والكتابيون من دخول الحرم وكل المساجد لأنهم نجَس أي لا يغتسلون من الجناية . وقال الشافعي يمنعون من دخول الحرم ولا يمنعون من دخول سائر المساجد . وقال أبو حنيفة لا يُمنع اليهود والنصارى عن دخول المسجد الحرام ولا من دخول سائر المساجد ، لأن المشركين الممنوعين هم أهل الأوثان لقوله « إنما المشركون نجس » فهو مخصوص بمن « لا كتاب له » وقال النحاس: « وهذا قول

فصل ثان، قبل غزوة تبوك (٣٠ ـ ٣٦): قتال الكتابيين حتى يدفعوا الجزية!

المبدأ (٣٠) قاتلوا الذين لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ... من أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية[١].

خارج عن قول الجماعة من أهل العلم واللغة ؛ وأكبر من هذا أن في كتاب الله نصاً تسميته لليهود والنصارى بالمشركين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ... سبحانه عمّا يشركون) هذا نص القرآن » (صفحة ٥٧) . ونقول إنّ الحق ما قال أبو حنيفة ، فالنص مخصوص بالمشركين محصور فيهم ، ووصف القرآن الكتابيين بالمشركين في الآيات (٣٠ ـ ٣٢) هو مخصوص ببعض الكتابيين لا بجميعهم كما يقول دروزة : « إن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة المذكورة في الآية ٣٠ (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، مِنَ الذين أوتوا الكتاب) إلى أن كفر الكتابيين برسالة النبي والدين الذي أتى به سبب مطلق ، وقالوا إنه موجب التشريع ؛ فإن هناك ما يحمل على التوقف في التسليم بذلك ، لأنه يقتضي أن يكون المسلمون مأمورين بمقاتلة كل كتابي إطلاقاً إذا جحد رسالة النبي ، مع أن الآية قد احتوت حرف التبعيض (مِنَ) الذي لا شك في أنه يعترض ذلك القول الإطلاقي » (سيرة الرسول ٢ : ١٦٦) . لذلك فقتال الكتابيين مشروط ، وشرك بعضهم مخصوص فلا ينطبق على الجميع تحريم دخولهم سائر المساجد والمسجد الحرام ذاته . هذان التبعيض والتخصيص في الآيات ، ووحدة التوحيد في الكتاب الإمام والقرآن كما تنص الآية (١١١) من السورة ذاتها تعطي الحق كله لتفسير أبي حنيفة .

(١) الآية ٣٠ قتال الكتابيين ، والنصارى منهم خصوصاً ؛ قال دروزة : « الآية الأولى (٣٠) تشريعية ، والأخرى (٣١ ـ ٣٤) تنطوي على حكمة التشريع بالإضافة إلى ما في الأولى من هذه الحكمة . وقد يدخل في الآيات اليهود والنصارى معاً ؛ غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي على ما تلهمه ظروفها، ولم يكن قد بقي يهود في الحجاز ، كما أنها نزلت بين يدي غزوة تبوك التي هي من مشارف الشام والتي غالب سكان مناطقها نصارى ، وبين يدي آيات (٣٨ ـ ٤٢) أجمعت الروايات على أنها في صدد الاستنفار إلى هذه الغزوة . فهذه الآيات وتلك ، والحالة هذه تنطوي على إشارات قرآنية إلى الصدام بين النبي والمسلمين من جهة والنصارى من جهة أخرى » (سيرة الرسول ٢ : ١٦٥ ـ ١٦٦) . وفي القرآن المجيد (٤٦) يقول بأن قتال أهل الكتاب مشروط بشرطين : بالذين لا يؤمنون منهم بالله واليوم الآخر (٣٠) وبالذين يصدون منهم عن سبيل الله بالبغي والعدوان . فليس القتال معهم قتالاً مبدئياً غير مشروط كما مع المشركين (٦) وقتال الكتابيين على كل حال مشروط بغايته وهي إخضاعهم للجزية لا لدين الإسلام . وهكذا يظهر كذب من يفتري على القرآن بأنه ساوى بين الكتابيين والمشركين في الحال والقتال .

وقال النحاس : « بآية قتال الكتابيين (٣٠) نسخ القرآن تسع آيات من ثماني سور : في البقرة (فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) وفي آل عمران (لن يضروكم إلا أذى) وفيها (وإن تصبروا وتتقوا) وفي المائدة (فاعفُ عنهم واصفح) وفي الأنعام (وذر الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً) وفي الأنفال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وفي العنكبوت (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وفي الشورى (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم : لا حجة بيننا وبينكم) . ونقول هذه المنسوخات تصح في اليهود . ولكن النسخ الضائع بين (براءة ٣٠) والمائدة (٨٥) وهو ما يتعلق بالنصارى وموقف القرآن الأخير منهم هل هو في المائدة كما يزعم

الأسباب الموجبة: ضاهوا المشركين بأقوالهم في عزيز والمسيح[1] (٣١).

ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله (٣٢).

ـ يريدون أن يطفئوا نور الله وهو الهدى ودين الحق[2] (٣٣ ـ ٣٤).

ـ يصدون عن الإسلام ولا ينفقون في الجهاد (٣٥ ـ ٣٦).

*

ملحق ثان (٣٧ ـ ٣٨) فتوى في « النسيء » :

الشهر النسيء زيادة في الكفر: فقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة.

*

* *

سورة التوبة: (٣٩ ـ ١٣٠) **في ملابسات غزوة تبوك.**

القسم الأول : قبل حملة تبوك (٣٩ ـ ١٠٧)

فصل أول (٣٩ ـ ٥٨) الدعوة إلى الغزوة، وموقف المنافقين من أحياء العرب منها:

١) انفروا خفافاً وثقالاً (٤٢) إن لم ينفروا يعذبهم الله ويستبدل غيرهم.

البعض أم في براءة كما يقول آخرون فهل يأمر القرآن في آخر أمره بقتال أهل المودة طيلة عمره ورسالته ، وقال النحاس « قالوا في مدلولها : هي ناسخة للعفو عنهم . وقيل هي ناسخة للآية الأولى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) بدّل القتال بالجزية . وقال أبو جعفر (قاتلوا) لا يكون إلا من اثنين ، فخرج من هذا الرهبان والنساء والصبيان » . وخرج المؤمنون بالله واليوم الآخر والمسالمون .

(١) في الآيات ٣٠ ـ ٣٤ تعابير تصم المسيحيين بالشرْك والإفك والكفر بما يقولون عن المسيح ابن مريم ورهبانهم كما يقول اليهود عن عزير إنه ابن الله . وفي سورة المائدة (٨٥) والنساء (١٧٠) يصف مقاتلهم هذه « بالغلو » : التطورات السياسية تتبعها تطورات عقائدية .

(٢) هذه الآية مقحمة على السورة والسياق فهي تذكر الاستعلاء على المشركين وتدعو لفتح مكة ؛ وأقحمت لكي يتم تطبيقها على النصارى الذين يشركهم في العداوة لليهود وفي القتال المفروض على المشركين .

(٣) الآية ٤٢ « انفروا خفافاً وثقالاً » إنها أول آية نزلت في غزوة تبوك وقال الجلالان : « أقوياء وضعفاء أو أغنياء وفقراء . وهي منسوخة بآية (ليس على الضعفاء حرج) ٩٢ . ـ وعن الآية (٣٩) قال الجلالان : « نزل لما دعى الناس إلى غزوة تبوك وكانوا في عسرة وشدة حر فشق عليهم » ؛ وعن الآية (٤٠) : « عن ابن عباس : استنفر رسول الله ص أحياء من العرب فتثاقلوا عنه ، فنزلت » . وقال النحاس عن الآية (٤٠) : « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ـ نسختها الآية (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) . وقال غيرهم الآيتان محكمتان » .

وينصر الله النبي كما نصره وحيداً في هجرته « ثاني اثنين في الغار[١] » (٣٩ ـ ٤٢).

٢) استئذان المنافقين النبي عن الجهاد[٢] » : إنما يستأذن الكافرون أهل الفتنة (٤٣ ـ ٤٩).
٣) يتربصون بالنبي والمسلمين الدوائر: هل تتربصون بنا إلا إحدى الحسنين (٥٠ ـ ٥٣).
٤) فلن تقبل منهم النفقة لأنهم ينفقون كارهين، وهم قوم يفرقون (٥٤ ـ ٥٨).

*

فصل مقحم (٥٩ ـ ٧٣) تذمّر المنافقين في توزيع الغنائم يوم حنين:

خطاب أول (٥٦ ـ ٧٣) تذمرهم إيذاء للنبي واستهزاء به!

١) الحادث: انتقاد النبي في تخصيص « المؤلفة قلوبهم » من كبار قريش بغنائم حنين دون الأنصار[٣] (٥٩ ـ ٦١).

٢) معناه: إيذاء للنبي ويحلفون عليه كذباً؛ واستهزاء به ويعتذرون منه رياءً (٦٢ ـ ٦٧).
٣) نتيجة مع المنافقين والمنافقات: عليهم لعنة الله ولهم جهنم (٦٨ ـ ٧١).

٤) نتيجته مع المؤمنين والمؤمنات: رحمة الله في الدنيا، وجنات عدن في الآخرة ورضوان الله[٤] (٧٢ ـ ٧٣).

خطاب ثانٍ، بروي مختلف (٧٤ ـ ٧٥): تذمرهم كلمة كفر: فجاهدهم مثل الكفار[٥]!

*

---

(١) الآية ٤١ لم يصف القرآن كيفية هجرة النبي من مكة إلى المدينة إلا في آخر حياته لما استتبّ له الأمر.
(٢) الآية ٤٤ « عفا الله عنك لِمَ أذنتَ لهم » يظهر أنها مقحمة على السياق . قال الجلالان : « أخرج ابن جرير : اثنتان فعلهما رسول الله ص لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسرى » . وقال النحاس : هذه الآيات الثلاث (٤٢ ـ ٤٤) نُسخت بقوله (فأذن لمن شئت منهم) أو بآية النور قبلها (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) . وقال غيرهم : « هذه الآيات كلها محكمات لأنها نزلت في الذين ارتابت قلوبهم » .
(٣) الآية ٦١ « إنما الصدقات للمؤلفة قلوبهم » قال دروزة : « وجد بعض الأنصار في أنفسهم حينما رأوا النبي ص قد وزع الغنائم على المستجدين ولم يعط الأنصار منها شيئاً » (سيرة الرسول ٢ : ٣٠٢) وقوله « إنما الصدقات للفقراء والمساكين » قال فيه النحاس (ص ١٦٩) : « نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن . (وجعلت الزكاة فريضة ، وعددت المنتفعين بها) . واختلفوا في الفارق بين الفقراء والمساكين على أحد عشر قولاً . منها قول عكرمة : الفقراء من اليهود والنصارى ، والمساكين من المسلمين . واختلفوا أيضاً في تقسيم الزكاة وفي مَن يحل له أخذها : ومذهب مالك والشافعي : تحل لكل محتاج على قدر حاجته » .
(٤) الآية ٧٢ « ورضوان من الله أكبر » : قد تكون المرة الوحيدة في القرآن يذكر فيها رضوان الله في الجنة فوق اللذات الحسية .
(٥) الآية ٧٤ « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم » وكان يقول في البقرة : « لا إكراه في الدين » .

فصل ثانٍ (٧٦ ـ ٩٠) اعتذار المخلّفين أولي الطَول عن الجهاد في تبوك.

١) منهم (ثعلبة بن حاطب) يحنث بعهده لله على النفقة إذا رزقه الله (٧٦ ـ ٧٩).

٢) الذين يسخرون من المتبرعين سخر الله منهم: فلن يجديهم استغفار النبي لهم[١] من الله شيئاً (٨٠ ـ ٨١).

٣) فرح المخلّفون بالقعود عن الجهاد في الحر: فقل لن تخرجوا معي أبداً واقعدوا مع الخالفين (٨٢ ـ ٨٤).

ـ حديث مقحم من بعد الغزوة: منع النبي من الصلاة على ابن أُبَي زعيم المنافقين[٢] في المدينة (٨٥ ـ ٨٦).

٤) أولو الطَوْل يستأذنون عن الجهاد كلما نزلت فيه سورة: رضوا أن يكونوا مع الخوالف (٨٧ ـ ٩٠).

*

فصل ثالث (٩١ ـ ١٠٧) موقف الأعراب من حملة تبوك.

١) المعذرون من الأعراب والفقراء ليس عليهم حرج (٩١ ـ ٩٣).

٢) إنما السبيل على الأغنياء منهم: رضوا أن يكونوا مع الخوالف! ويعتذرون إليكم كذباً، ويحلفون إليكم نفاقاً لترضوا عنهم: فالله لا يرضى عنهم! فالأعراب أشد كفراً ونفاقاً! ويتربصون بكم الدوائر (٩٤ ـ ٩٩).

٣) من الأعراب مخلصون مثل السابقين من المهاجرين والأنصار، ومنهم منافقون مثل أهل المدينة مردوداً على النفاق (١٠٠ ـ ١٠٢).

قال الأستاذ دروزة : « في سورة التوبة مقاطع عدة في صدد مواقف المنافقين إزاء الدعوة إلى الجهاد في غزوة تبوك والصدام مع النصارى » (سيرة ٢ : ٢٠٨) وقد بلغت حملة القرآن على المنافقين ذروتها في سورة التوبة ، كما بلغ موقفهم ذروته في صدد غزوة تبوك . ويُستدل من ذلك على أنه كان يسوء العرب أن يتعرّض محمد للنصارى بالأذى ، بعد أن أشاد بمودتهم الدائمة مدى حياته في القرآن كله . ولكن هكذا اقتضت سياسة الدولة العليا من حيث لا يعلمون .

(١) الآية ٨١ « استغفر لهم أولا تستغفر لهم » قيل نسخها بقوله « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً » (توبة ٨٥) وقيل هذا تهديد لا نسخ فيه . وقيل إنها للتخيير .

(٢) الآية ٨٥ « ولا تصل » قيل هي ناسخة لعمل النبي الذي صلى على المنافق الأكبر عبد الله بن أبَي إيلافاً لابنه .

٤) وآخرون اعترفوا بذنوبهم: خذ منهم صدقة تزكيهم؛
ومنهم مُرجَون لأمر الله[1] (١٠٣ ـ ١٠٧).

*

القسم الثاني : بعد حملة تبوك (١٠٨ ـ ١٣٠).

فصل أول (١٠٨ ـ ١١١) قصة مسجد الضرار.

أقامه بنو غانم بن عوف بتحريض من الراهب العربي أبو عامر لمنافسة النبي[2].

*

فصل ثانٍ (١١٢ ـ ١٢٢) بشرى الله بتوبته على النبي والصحابة في ساعة العسرة.

١) مبايعة لله على القتال لها الجنة، وعد من الله في التوراة والإنجيل والقرآن[3] وذلك هو الفوز العظيم (١١٢ ـ ١١٣).

٢) « وبشّر المؤمنين (١١٣): لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة المخلفين (١١٨ ـ ١١٩).

---

(١) الآيات ٩٨ و١٠٠ و١٠٢ فيها من غريب الناسخ والمنسوخ إذ قيل إن الآية « ومن الأعراب من يؤمن » (١٠٠) هي ناسخة لما قبلها (٩٨) ولما بعدها (١٠٢) .

(٢) الآية ١٠٨ استأذن أهل قباء ، حيث كانت صلاة النبي عند مقدمة في الهجرة ، ببناء مسجد لهم ليصلوا فيه فأذن لهم . قال دروز : « وكان راهب عربي اسمه أبو عامر قد تلاحى مع النبي ص وأقسم أن يحاربه أينما وُجد محارباً له ، فلما انتصر المسلمون في فتح مكة ويوم حنين تآمر مع المنافقين على أن يبنوا مسجداً في قباء ليكون مركز اجتماعاتهم ، وينتظروا عودته من بلاد الروم حيث أزمع أن يذهب ليدبّر المكايد للنبي والمسلمين ، فاستأذنوا النبي ص ببناء مسجد مثل رفاقهم فأذن لهم ورجوه أن يصلي فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من غزوة تبوك . وقد أرسل فور عودته إلى المدينة مَن هدمه وحرقه » ، (سيرة الرسول ٢ : ٢٠٥) ـ وهذا الحادث دليل على وجود رهبان عرب ونصارى عرب في المدينة ، و'نهم لم يصطدموا مع النبي إلا مدة غزوة تبوك . والراهب أبو عامر في المدينة ما قاد المعارضة السرية فيها للنبي إلا عندما شعر أن النبي يريد أن يقضي على المسيحية بين العرب بالتجهيز الجبار لحملة تبوك ضد العرب النصارى على حدود الحجاز والشام .

(٣) الآية ١١٢ « إن الله اشترى » ؛ « نزلت الآية في ظروف غزوة تبوك، وحين أوبة الحملة من الرحلة إلى المدينة كما يُستلهم من سياقها . والآيات (١١٩ ـ ١٢١) مثل الآية السابقة نزلت في ظروف غزوة تبوك ، وحين أوبة الحملة من الرحلة ، إلى المدينة . وقد احتوت عتاباً ما للذين تخلفوا أو حدثتهم أنفسهم بالتخلف عن الحملة من مخلصي المسلمين من سكان المدينة والأعراب » (سيرة الرسول ٢ : ٢٥٠ ـ ٢٥١).

ـ الآيات (١١٤ ـ ١١٧) مقحمة على السياق: تحريم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى!

٣) عتاب لأهل المدينة والأعراب لتخلفهم عن الجهاد والنفقة[١] (١٢٠ ـ ١٢٢).

*

فصل ثالث (١٢٣ ـ ١٢٨) دعوة المسلمين إلى الجهاد العام ضدّ الكفار العرب.

١) كيفية الاستغفار الأخير: طائفة للجهاد، طائفة للتفقه في الدين[٢] (١٢٣).

٢) كيفية الجهاد الأخير: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة (١٢٤).

٣) الأسباب الموجبة: يستهزئون بالسور الجديدة (١٢٥ ـ ١٢٦).

ـ يفتنون في كل عام مرة أو مرتين[٣]! (١٢٧).

---

(١) الآية ١٢٢ « وما كان للمؤمنين لينفروا كافة » : « والآية مما نزل عقب الأوبة من غزوة تبوك. وقد احتوت الآية مبدأ من مبادئ الجهاد الإسلامي : النفرة على حسب الضرورة . ولعل المبدأ مما سوّغ للعلماء أن يقولوا أن الجهاد فرض كفاية ، إذا اشترك فيه فريق سقط عن الباقي ، وإن لم يقم به أحد أثِم الكل ... ولعل هذه المسارعة إلى استجابة الدعوة بالحملة ، فكان في ذلك مشقة كبرى خففتها عنهم الآية ، كان منهم حين استنفر النبي ص إلى غزو البلقاء وأخذ يجهّز من أجل ذلك جيش أسامة بعد عودته بقليل من تبوك » (سيرة الرسول ٢ : ٢٥٢) .

(٢) الآية ١٢٣ « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » قال الأستاذ دروزة : « إن الآية تقرر مبدأ آخر (على مبدإ : الجهاد فرض كفاية) من مبادئ الجهاد الإسلامي من الناحية التنظيمية ، وهو عدم توزيع المسلمين قواهم ، ومقاتلة الأقرب فالأقرب إليهم من الكفار وعدم الهوادة معهم . أو مقاتلة كل صقع إسلامي مَن في منطقته منهم . وإن كنا نرجّح الأول . ونعتقد أن الآية إنما تدعو إلى قتال الكفار الأعداء ، وليست هي بسبيل تعميم القتال لكل كافر ، حيادياً كان أو معاهداً أو مسالماً أو عاجزاً » (سيرة الرسول ٢ : ٢٥٢) . وقيل إن هذه الآية (١٢٣) نزلت مبكرة ثم نسخت بفقرة « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (٣٦) وهي بسبيل تعميم القتال على كل كافر ؛ قال دروزة : « ويبدو هذا القول غريباً » . تزول الغرابة إذا فهمنا أنه يقصد مشركي العرب في الجزيرة . وقال النحاس : إن الآية « وما كان المؤمنون لينفروا كافة (١٢٣) » ناسخة لما قبلها « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله » (١٢١) وقيل الآيتان محكمتان الآية (١٢١) توجب التلبية، والثانية (١٢٣) تنظمها .

(٣) الآية ١٢٧ « أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون » : أي فتنة تقصد ؟ ـ قال الجلالان : يُبتلون بالقحط والأمراض ؛ وقال البيضاوي : يبتلون بأصناف البليات أو بالجهاد . وعندي أن الفتنة تقصد شكهم في القرآن عند نزوله مرة أو مرتين في السنة ـ مما يوحي أنه كان ينزل في كل سنة من أواخر حياة النبي سورة أو سورتان ـ وتفسير الفتنة بالريبة من القرآن لأنها مذكورة بين آيتين تنصان على

ـ وإذا نزلت سورة تغامزوا وانصرفوا[1].
ختام السورة (١٢٩ ـ ١٣٠) لقد جائكم رسول من أنفسكم: فإن تولوا فقل حسبي الله!

*

الرابعة والعشرون: (أو ١١٤) **النصر** (١١٠) « فسبّح بحمد ربك » .

فذلكة : في ترتيب المسلمين والمستشرقين خلاف كبير على موضع (النصر) من النزول . وكثيرون على أنها من آخر العهد المدني الأول . ولكن موضوعها في ذكر الفتح الذي يعقبه دخول الناس في دين الله أفواجاً لا ينسجم إلا مع فتح مكة (٦٣٠م) الذي أعقبه الوفود ومبايعة قبائل العرب للنبي (٦٣١م) . وأصح ما ورد عنها ما نقله السيوطي في الإتقان (٢ : ١٠٧) : « آخر سورة نزلت سورة النصر ، فيها الإشعار بالوفاة كما أخرج البخاري عن ابن عباس إذ سأله عمر قال : أجل ضرب لمحمد ؛ نُعيتْ له نفسه » ... فقال عمر إني لا أعلم منها إلا ما تقول » . وردّده ابن خلدون في مقدمته (٢) : « إنها نعي النبي ص » .

فقد نزلت في عام الوفود ولمّا يتم نزول سورة براءة . قال الجلالان : « نزلت بمنى في حجة الوداع . وهي آخر ما نزل من السور ... وعلم بها أنه قد اقترب أجله » .

نزول القرآن : « وإذا ما نزلت سورة فمنهم مَن يقول أيكم زادته هذه إيماناً » (١٢٥) « وإذا ما نزلت سور نظر بعضهم إلى بعض » (١٢٨) . وهكذا فإن آخر فصل نزل من القرآن يصف شك العرب فيه ، وفتنتهم عنه ، وتغامزهم فيه ، وانصرافهم عنه ، وهذا بعد أن استتب سلطان النبي على الحجاز والجزيرة . وتنقل السيرة (٤ : ٤٤) مشهداً لهذه الريبة في إسلام زعيم مكة أبي سفيان ، وقد خُيّر بين القتل والإسلام : فآمن بسهولة بالشهادة للتوحيد ، أمّا عن الشهادة للنبوة فقد قال : « أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً » .
(١) الآية (١٢٩) : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » : آخر آية من القرآن تصرّح بأن رسالة النبي قومية ، فهو رسول من العرب وإلى العرب .
(٢) مقدمة ابن خلدون ٧٩٢ .

إذا جاء نصر الله والفتح[١] ! ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً[٢] !
فسبح بحمد ربك ! واستغفره[٣] إنه كان توّاباً !

(١) الآية ١ منذ نصر بدر حتى فتح مكة ما زال القرآن يعتبر نصر الرسول دليل نبوته كما حدّده مبدئاً : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (الحديد ٢٥) . قال دروزة : « يذهب جمهور المفسرين إلى أن كلمة (الفتح) كناية عن فتح مكة ، وجاءت الآية بسبيل بيان ما كان من أثر هذا الفتح في قوة الإسلام ونصره وانتشاره ؛ ولو أنها نزلت ، كما يُرجّح ، بعد الفتح بمدة غير يسيرة لتذكر النبي والمسلمين بما أتمه الله لهم من فتح ونصر ، وبما صار للإسلام من قوة وشيوع » (سيرة الرسول ٢ : ٢٩٨) .

(٢) الآية ٢ « أفواجاً » : قال دروزة : « من آثار فتح مكة الباهرة ، إذ انهدم السد الذي كان بين الإسلام وسائر العرب ، تدفّق سيل وفودهم على النبي ص من كل صوب حتى ليقال إن النبي لم يمت حتى دانت الجزيرة إجمالاً للإسلام » (سيرة الرسول ٢ : ٣٠٠) . وهذه الصورة الرائعة لها ظلالها الكثيفة التي تصفها سورة التوبة : « من الأعراب من يتربص بكم الدوائر ! والأعراب أشد كفراً ونفاقاً من أهل المدينة (٩٨ ـ ٩٩) يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل (٤٨ ـ ٤٩) وإذا ما نزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه ايماناً ! (١٢٥) وإذا ما نزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون! » (١٢٨) .

(٣) الآية ٣ « واستغفره » : يُفهم التسبيح بحمد الرب على نصر الله والفتح ؛ ولكن لِمَ الاستغفار في نصر الله والفتح ؟

الفصل الثّالث عشر

(تعليق على العهد الثاني في المدينة ـ الخامس من الدعوة القرآنية)

العهد الإسلامي

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة »
(براءة ٣٧)

العهد الثاني في المدينة، الخامس والأخير من الدعوة القرآنية، كان « العهد الإسلامي » الخالص. تطورت الدعوة القرآنية في عهود أربعة مرّ فيها النبي بتجارب دينية ثلاث، بالتجربة المسيحية، والتجربة الإسرائيلية في مكة، والتجربة الحنفية الكتابية في العهد الأول المدني. وفي هذا العهد الثاني والأخير بالمدينة استقرت الدعوة القرآنية في ذاتيتها المستقلة ديناً ودولة. ووجه « أحمد » (صف ٦) الدعوة إلى النصارى، بعد تصفية اليهود، في أسلوب محبّب، ولكنه أدّى آخر الأمر إلى القطيعة والدعوة الحربية مع أهل « المودة » إلى النهاية. وامتاز القرآن المدني بأسلوب تشريعي جهادي يميّزه كاملاً عن القرآن المكي؛ ويعطي الرسالة والرسول صفاتهما الأخيرة المثلى.

*
* *

بحث أول : العهد الإسلامي في الدعوة القرآنيّة

في هذا العهد الأخير من حياة النبي، استقرت الدعوة القرآنية، في الدين والدولة، على شخصيتها المميّزة لها. وبرز الإسلام على حقيقته الأخيرة الكاملة في الدولة والدين.

كان العهد الأخير من سيرة الرسول عهد **تثبيت الإسلام** في الحجاز والجزيرة دولة

دينية قومية، باللسان والسنان، بالدعوة العارمة للجهاد، وبالهجوم بالسلاح الكامل، في كل الأوساط، وعلى كل الجبهات.

علمت قريش أن بيعة العقبة العسكرية، والهجرة خفيةً إلى المدينة، كانتا لإخضاعهم لدينه وسلطانه: « وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم[1] » . قصد أن يبسط في العهد الأول، سلطانه على المدينة وعلى الأعراب في جوارها. ونجح في ذلك بتصفية العدو الأول، يهود المدينة أسياد الحجاز في الدين والتجارة؛ ومسايرة المعارضين والمنافقين بزعامة ابن أُبَي؛ وبإرهاب الأعراب ومحالفتهم، وقد نجح بتجنبه إقحام نفسه في المشاحنات القبلية التي كانت تقسم العرب إلى أحزاب متعادية وبقصر اهتمامه في الشؤون السياسية والعسكرية على علاقاته العامة بالقبائل، تاركاً الدخول في الإسلام للأفراد[2]. ونجح في ردّ حملتين من مكة على المدينة، لم يعرف القرشيون فيهما أن يستغلوا قوتهم ونفوذهم على العرب؛ فخرج النبي والمسلمون منهما مرفوعي الرأس؛ وأخذوا يتطلعون إلى الانتقام من إخوانهم المشركين وكسر شوكتهم.

وكان عرب الحجاز جميعاً ينتظرون مصير الصراع الهائل بين محمد وقريش سيدة القبائل ليختاروا بين الولاء القديم، والولاء الجديد.

وانتقل جهاد المسلمين من الدفاع إلى الهجوم، في العهد المدني الثاني. وكان الهجوم عنيفاً متواصلاً، على خطة أن المباغتة سبيل النصر: فكان في كل سنة حملة في الربيع وحملة في الخريف، مرة إلى الشمال من الحجاز ومرة إلى الجنوب منه. ويتخلل ذلك غزوات وسرايا وبعوث في أماكن مختلفة.

افتتح سنة ست هجرية، أي في آذار ٦٢٨م، غزو مكة بحملة سلمية أبلغ من العسكرية بحجة الحج، في موسم الحج، انتهت بصلح الحديبية وهو معاهدة عدم اعتداء، خلت بين محمد والعرب، فاعتبرها القرآن « فتحاً مبيناً » . وللحال حوّل الحملة عسكرية إلى الشمال لإخضاع يهوده في خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى، والتعويض بغنائمهم الكثيرة عمّا فات المسلمين من فوات الغنائم في الجنوب. فكان لهم ذلك.

وفي سنة ثمانٍ أي آذار ٦٢٩م دخل المسلمون مكة، تنفيذاً لمعاهدة الحديبية،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٢٤.
(٢) العرب في التاريخ ٦٠ .

لقضاء ((عمرة القضاء)) . فكان ذلك تهيئةً لفتح مكة. وفي أيلول من السنة ذاتها كانت حملة مؤتة إلى شمال الحجاز ضدّ العرب النصارى الموالين لدولة أجنبية، ففشلت حربيّاً، لكنها أشعرتهم بخطر إخوانهم عرب الحجاز، وجعلهم يعدلون موقفهم من أسيادهم في الأمس.

وفي مطلع سنة ٦٣٠م كانت الحملة القاضية على مكة، والفتح الأكبر الذي قرر مصير الحجاز والجزيرة والإسلام. اتبعها النبي بغزو هوازن في حنين فاخضعها وسيطر على الجنوب الحجازي، لم يفلت منه سوى مدينة الطائف؛ لكن لم يعتم أهلها من بني ثقيف أن يسلموا في آخر السنة. ورجع النبي والمسلمون في نشوة الظفر إلى المدينة يحلمون بحملة لم يعهد الحجاز لها مثيلاً. فكانت غزوة تبوك بثلاثين ألفاً في صيف سنة تسع على النصارى العرب، بعد أن مهد لها القرآن **بالأمر الوحيد في القرآن كله** بقتالهم ليخضعوا للجزية، إن أبوا الإسلام (براءَة ٣٠ ـ ٣٥). فخضع أمراء الحدود بدون قتال تجاه الجيش العربي الجرار، وأدّوا الجزية.

ورجع النبي زعيماً أوحد للحجاز يستقبل وفود العرب مبايعة على الإسلام واستغل النبي زعامته على الحجاز كله، وبعد إخضاع شمال الجزيرة سيّر سيوفه، علي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، إلى اليمن لإخضاعه لسلطان الإسلام، ورجعوا سالمين غانمين ليشهدوا حجّة الوداع، سنة عشر، في آذار ٦٣٢م، في أكبر حشد شهدته جزيرة العرب في تاريخها. فقد كان مع النبي في حجه الأول والأخير نحو مئة ألف. وشهد فيهم بنصره الديني والقومي، وسيادته الدينية والقومية على الجزيرة: ((اليوم يئس الذين كفروا من دينكم، فلا تخشوهم واخشونِ! اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)) (مائدة ٤).

في هذه الأثناء كان القرآن ينزل هدّاراً يبعث في المسلمين روح الحرب الدينية والقومية في سبيل سيادتهم الدينية والقومية على الحجاز والجزيرة. في عام الحديبية: ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا: إن الله لا يحب المعتدين)) (بقرة ١٩٠). وفي عام عمرة القضاء: ((واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم: والفتنة أشد من القتل! ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم)) (بقرة ١٩١). وفي مسيرهم إلى العمرة: ((وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين. الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص: فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما

اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » (بقرة ١٩٣ ـ ١٩٤). وقبل فتح مكة: « إنا أنزلنا الحديد، فيه بأس شديد، ومنافع للناس » (حديد ٢٥). وفي فتح مكة يهدد القرآن في سبيل قتال أئمة الكفر: « فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون! ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم، وهموا بإخراج الرسول، وهم بدؤكم أول مرة: أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم، ويخزهم، ويشف صدور قوم مؤمنين » (براءة ١٣ ـ ١٧). وفي سبيل غزوة تبوك، آخر غزوات النبي: « إلاّ تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً، ويستبدل قوماً غيركم، ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير » (توبة ٤٠) قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق (أي رفضوا الإسلام) من الدين أُوتوا الكتاب حتى يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون: يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره (بإخضاعهم) ولو كره الكافرون! » (براءة ٣٠ و٣٣). ثم في الحج الأكبر ٦٣١م حرَّم الكعبة على المشركين وأعلن البراءَة منهم ومن عهودهم، وأعلن الجهاد العام، بدون هوادة، على كل مشرك عربي: « براءَة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين: فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم **واقعدوا لهم كل مرصد**، فإن تابوا وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ... إنما المشركين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا! » (براءة ١ و٦ و٢٩). فتوالت وفود الأعراب تبايع عنوة واقتداراً. وفي تسيير جيوش الحجاز إلى اليمن وسائر الأقطار العربية، يقول أخيراً: « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (براءة ٣٧). بهذا النفير العام وإعلان الهجوم على جميع الجهات ينتهي القرآن.

*

ذاك الزحف الرائع المقدس، لم يكن بدون ظلال ومرارة من داخل. فقد كان بين المسلمين معارضون للنبي والإسلام، سمَّاهم القرآن « **منافقين** » . ومعارضة المنافقين للنبي ظلت إلى ما بعد وفاته، وفعلت فعلها في حمل العرب على الردّة عن الإسلام بعد موت الرسول.

مواقفهم من الإسلام، ديناً ودولةً، تصفها سور البقرة ٨ ـ ١٦ و٢٠٤ ـ ٢٠٦ والنساء ٦٠ ـ ٦١ و١٣٧ ـ ١٣٨ و١٤٢ ـ ١٤٣ و١٤٥ ـ ١٤٦ والحديد ١٣ ـ ١٤ والمنافقون ١ ـ ٨ والأحزاب ٥٧ ـ ٦١. فقد ظلوا طيلة العهدين في المدينة « يتناجون بالإثم

والعدوان ومعصية الرسول)) (مجادلة ٨). وكان تقريع القرآن لهم شديداً: ((إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً)) (نساء ١٤٥). وسورة التوبة، الأخيرة من القرآن، تصف مواقفهم ومعارضتهم الشديدة حتى النهاية: يتهمون النبي بالمحاباة في توزيع الغنائم (٥٨) ويهزؤون به: ((هو أُذُن)) (٦١) وبمجالسهم معه (١٢٤ ـ ١٢٥). ويستهزئون بالمتطوعين بالصدقات (٧٩). وفي الدعوة إلى الجهاد يثبطون العزائم، ويفرقون كلمة الناس، ويطلبون أن يتخلفوا مع القاعدين (٨٦ ـ ٨٧) إنهم قوم يفرقون (٥٦) يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (٩٧) أنهم هم الفاسقون (٦٧ ـ ٦٨). وتوصلت مؤامرتهم إلى دفع قوم **مع الراهب أبي عامر** إلى بناء مسجد الضرار والتفرقة (١٠٧ ـ ١١٠). وفي حملة تبوك يظهر أن الموالين للمعارضين بلغوا عدد السائرين في الحملة. وطال استهزاؤهم القرآن نفسه: يستخفون بتنزيله: ((يحذر المنافقون أن تُنزَّل عليهم سورة تنبئُهم بما في قلوبهم! ـ قل استهزئوا أن الله مخرج ما تحذرون)) (٦٥)؛ ويخوضون في آيات الله ورسوله بكل وقاحة: ((ولئن سألتهم، ليقولن: إنما كنا نخوض ونلعب! ـ قل أبآيات الله ورسوله كنتم تستهزئون؟!)) (٦٦). وآخر سورة في آخر آيات نزلت تعطي عنهم هذه الصورة القاتمة: ((وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول: زادته هذه ايماناً! أولا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين! وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد ثم انصرفوا! صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون)) (١٢٥ ـ ١٢٨). لذلك فالقرآن يكفرهم مثل المشركين ويصفُهم: بصفتهم: ((إنهم رجس ومأواهم جهنم)) (٩٦) ويأمر بجهادهم كجهاد الكفار: ((يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير)) (٧٣).

*

فئة أخرى تنكرت من طبعها للإسلام، لا عن حسد مثل المنافقين، أولئك هم الأعراب[1] الضاربين في الصحراء خارج القرى. اشتركوا في البدء بالعداوة للنبي مع قريش، سيدة الحرم والتجارة. وفي آخر العهد الأول كان النبي قد أشعرهم بسلطانه. ولكن بعد ((فتح الحديبية)) وخصوصاً بعد فتح مكة مالوا إلى المسالمة والموادعة والاشتراك في غزوات الإسلام في الجنوب والشمال. ومع ذلك فسورة التوبة تظهر لنا أن موقف أكثرهم من

---

(١) لاحظ أن الحضر من العرب كانوا في الحجاز نحو ١٧ ٪ (حتي : تاريخ العرب) .

الدعوة والدولة الجديدتين، كان أشنع من موقف المنافقين وأخطر: « والأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » (٩٨). وقد اشتركوا في النفاق والكيد مع أهل المدينة: « ولمن حولكم من الأعراب منافقون » ومن أهل المدينة مردوا على النفاق: لا تعلمهم نحن نعلمهم! سنعذبهم مرتين! » (١٠٣). ولذلك جمع القرآن آخر الأمر الأعراب والمنافقين إلى الكفار في جهاد واحد: « يا أيها الذين آمنوا، قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أن الله مع المتقين » (١٢٤).

وكان الأعراب، الذين أسلموا عنوة واقتداراً، على شدة كفرهم ونفاقهم! أول من ثار على الإسلام، مع منافقي المدينة، بعد موت النبي. فكانت الردّة عامة طامة. ولم يقتصر الصحابة على الفتنة العظمى في الإسلام إلا بحروب الردة التي ردّت العرب إلى طاعة الإسلام ديناً ودولة.

وهكذا في العهد الأخير من حياة النبي توطد الإسلام على طابعه الخالص: ديناً قومياً عربياً، ودولة دينية قومية عربية.

*

بهذا اكتسبت الدعوة القرآنية، في عهدها الأخير، شخصيتها التي تميّزها عن سائر الحركات التوحيدية القائمة في الحجاز تجاه الشرك العربي، من يهودية ومسيحية وحنيفية عربية؛ واستقلت في « إسلام القرآن » . فقد مر النبي، كما قلنا، بتجربة المسيحية، وتجربة الإسرائيلية، وبعد لأي بتجربة الحنيفية الكتابية؛ أخيراً انصهرت كل هذه الاختبارات الدينية في التوحيد الكتابي والعربي، وهو الإسلام الذي انتهى إليه القرآن.

في مكة اندمجت الدعوة القرآنية بالدعوة الكتابية، فجاء القرآن المكي كله تعريباً للتوحيد الكتابي، « في أمة واحدة » .

وفي المدينة استقل في العهد الأول عن أهل الكتاب في « أمة وسط » (بقرة ١٤٣) بين المسيحية والموسوية، بعقيدتها وشريعتها وصوفيتها. ودعا « النبي الأمي » اليهود إلى « أمته الوسط » فقاوموه؛ فكان يجادلهم بجدال النصرانية لهم:

مقاومة المسيحية لليهود في ادعائهم أنهم شعب الله المختار « إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم » ، انتقلت إلى القرآن (مائدة ١٨).

وردّ دعواهم بأن الله حصر رسالته في شريعة موسى وقربان الهيكل، انتقل أيضاً من الإنجيل (متى ٥ ـ ٧) إلى القرآن: ((ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم! ـ قل إن الهدى هدى الله، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجوكم عند ربكم! قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء)) (آل عمران ٧٢ ـ ٧٣).

والفكرة المسيحية بأن قساوة الشريعة الموسوية في تحريماتها إنما كانت قصاصاً لهم (مرقس ٧) انتقلت أيضاً إلى القرآن (بقرة ٢٨٦ نساء ١٥٨ أنعام ١٤٧ أعراف ٢٧٦).

أخيراً تهمة تحريف الكتاب، بتأويله الفاسد، وتغيير كَلِم التوراة عن مواضعه لئلا ينطبق على السيد المسيح، انتقلت هي أيضاً إلى القرآن (آل عمران ٧٨ نساء ٤٥ مائدة ٤٤)[١].

ولكن هذا لا يعني أن الدعوة الإسلامية لم تتأثر في المدينة باليهودية المسيطرة فيها، مع ما بينهما من جدال وقتال. ويظهر أن النبي بجوار يهود المدينة، أخذ يقتفي آثار موسى: فقد فهم أن الدين لا يقوم إلا إذا كان دولة دينية، تحمي فيها القوة الدين من داخل ومن خارج؛ وبحسب هذه النظرية الموروثة التي تأصلت في البيئة العربية طوّر النبي الإسلام من دين إلى دولة دينية. وأخذ يحرّض بطريقة متواصلة على الجهاد ((بالحديد)) لإقامة ((ملكوت الله)) دولة الإسلام، في الحجاز والجزيرة. وأثرت في النبي أيضاً مادية اليهود، فتحوّل من زهد الرهبان الذي كان غالباً عليه في مكة، إلى إباحة التمتع بطيبات الأرض في المدينة على شاكلتهم وعلى مثال ملوكهم الأنبياء، داود وسليمان: ((ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين)) .

ولكن تأثير المسيحية لم يزل قائماً في نفسه، فجاء الإسلام في العهد المدني الأول ((أمة وسطاً)) بعقيدتها وشريعتها وصوفيتها بين اليهودية والمسيحية.

وفي العهد الثاني المدني، وهو الأخير، استقل أيضاً عن أهل الكتاب النصارى. كان بمكة في عقيدته النصرانية أقرب إلى المسيحية الحبشية أي اليعقوبية، فجاء إطراء المسيح وأمه عالياً في سورة مريم؛ وفي المدينة حيث كان نفوذ المسيحية الشرقية أو النسطورية مسيطراً من الحيرة إلى نجران، جاء تعريف المسيح في سورة النساء (١٧٠) موافقاً

---

(١) تجد مثل هذه التهم عند ابيفانوس (مجموعة الآباء ، مجلد ٣٠ ف ١٨) ضد الكسائيين والأبيونيين والمانويين . وقد فعل أوريجانوس ذلك مع المارق الكبير ، مرقيون (قابل Harmack: Marcion 162, 221) .

لنظريتهم الثنائية في المسيح: المسيح هو كلمة الله وروح الله، وهو أيضاً عيسى ابن مريم؛ وكفّر معهم القائلين « الله هو المسيح عيسى ابن مريم » (مائدة ١٩) والقائلين « الله ثالث ثلاثة » (مائدة ٧٦). ولام المسيحيين العرب على العموم « **بالغلوّ** » في تكريم السيد المسيح وأمه (نساء، مائدة) ولم يكفرهم، بل ظل معهم على « **المودّة** » إلى آخر سنة في حياته (مائدة ٨٥). حينئذ قبل غزوة تبوك، أعطى في صدر (براءة) براءته منهم أيضاً: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله حتى يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ... يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى إلا أن يُتم نوره ولو كره الكافرون ... هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » (براءة ٣٠ و٣٣ و٣٤): فأهل « المودة » حتى آخر ساعة صاروا أهل حرب؛ أجل لا يفرض إسلامهم مثل المشركين، إنما يفرض إخضاعهم للجزية في دولة الإسلام. والذين « يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات، وأولئك من الصالحين » (آل عمران ١١٣) صاروا اليوم « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » (براءة ٣١ ـ ٣٣): يجب قتالهم مثل سواهم حتى « لا يجتمعنَّ في جزيرة العرب دينان » . هذه كلمة محمد على فراش الموت. وهذا الحديث الذي ترويه السيرة يفسّر لنا مَن يقصد القرآن بالنصارى الخاضعين للجزية: إنهم نصارى الجزيرة لا سواها. فإسلام القرآن هو وحده دين العرب في جزيرتهم، لا دين لهم سواه فيها: يجب أن يظهر إسلام القرآن على الدين كله فيها ولو كره المشركون والكتابيون. بهذا الأمر القرآني الأخير، وبهذه الوصية النبوية الأخيرة يُختتَم القرآن والسيرة: « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

كان الإسلام في مكة « أمة واحدة » مع أهل الكتاب (مؤمنون ٥١ أنبياء ٩١) فاختط لنفسه في العهد المدني الأول « أمة وسطاً » على الحنيفية الكتابية، ثم تطوّر التطوّر الأخير في العهد الثاني، فأمسى « الأمة المفضّلة » ، « خير أمة أخرجت للناس » بين أمم التوحيد المنزل.

وهكذا أمسى إسلام عيسى وموسى إسلام محمد وحده.

*

* *

البحث الثاني

« أحمد » يدعو النصارى إلى « كلمة سواء »

مطلب أول: نظرة تاريخية أثرية

كلمة في ترتيب النصوص التاريخي.

أشرنا سابقاً إلى المبادلة الواجبة بين فاتحة آل عمران، وفاتحة المائدة: فاتحة آل عمران جدال مع وفد نجران إلى النبي عام الوفود ٦٣١م وهو مقحم في جدال اليهود الذي يعم السورة قبل تصفيتهم في المدينة؛ وفاتحة المائدة جدال مع يهود المدينة وتحريم موالاتهم فهو لا يُعقل بعد تصفية يهود المدينة وإخضاع يهود شمال الحجاز للسلطان الإسلامي المسيطر لذلك اقتضى تبادل الفاتحتين من السورتين ليستقيم المنطق والتاريخ. وفي فاتحة المائدة، التي هي جدال متواصل مع اليهود أقحموا جدال النصارى وتكفير بعضهم أو بعض مقالاتهم في الآيات (١٥ و١٩ و٧٥ ـ ٨٠)؛ كذلك تحريم مولاة المسيحيين مع اليهود (الآية ٥٤) مقحم لأنه يتعارض مع مودتهم (الآية ٨٥)؛ وذكر الإنجيل مع التوراة في دعوة اليهود لإقامة التوراة، مقحم أيضاً عليها فالجدال ليس معهم (٦٩ و٧١)؛ أخيراً الآية (٧٣) التي تصف وحدة الكتابيين والمسلمين في التوحيد مقحمة على النص وتتنافر معه. وكل هذه الإقحامات من العهد المدني الثاني.

والمشكل الثاني، وقد ذكرناه سابقاً، هو أيّ السورتين (المائدة أم التوبة) آخر ما نزل من القرآن: في المائدة (٨٥) إشادة بمودة النصارى، وفي التوبة (٣٠) تحريض على قتالهم. والآراء بين المسلمين والمستشرقين متضاربة. وقد اعتمدنا صحيح البخاري الذي نقل أن التوبة آخر سورة نزلت؛ وتطوّر موقف القرآن من المسيحيين يقضي بذلك؛ فما أمر بقتالهم وإخضاعهم لسلطان المسلمين في (التوبة ٣٠) ثم عاد فأشاد بمودتهم (مائدة ٨٥) بل أشاد بمودتهم، ودعاهم إلى كلمة سواء (آل عمران ٦٤)، ولمَّا رفضوا، واقتضت وحدة

الجزيرة الدينية والقومية إخضاعهم لسلطان المسلمين، أمر بقتالهم. والتاريخ الإسلامي الذي سار على روح سورة التوبة براءَة، لا على روح سورة المائدة التي تشيد بمودتهم، شاهد عدل على الموقف القرآني الأخير من النصارى.

*

وأية نصرانية عرف النبي في مكة والمدينة والحجاز؟

لم يعرف محمد في الحجاز سوى النصرانية المنحرفة التي لجأت إلى الحجاز هرباً من اضطهاد دين الدولة لها ولم يجادل سوى هذه النصرانية المنحرفة، والتي زادتها البيئة البدائية انحرافاً، وإذا كان في القرآن من تكفير للنصرانية ومن حملات عليها، وأخيراً من أمر بقتالها، فهو لا يقصد إلا النصرانية العربية المنحرفة، لا النصرانية، الدين المسيحي القيّم المنتشر في العالم على زمانه. رأينا أن النصرانية دخلت الحجاز ومكة منذ عهد الرسل الحواريين؛ فابن خلدون ينقل في تاريخه[1] « إن برثلماوس (ابن ثلماء) بعث إلى أرض العرب والحجاز » . وروى ابن خلدون وابن الأثير أن سادس ملوك جرهم؛ يدعى عبد المسيح بن باقية بن جرهم؛ فيتعين من الملك أن النصرانية كانت سائدة في مكة والكعبة قبل تغلّب بني خزاعة على حراسة البيت العتيق وجره إلى الشرك. ويذكر الأزرقي في (أخبار مكة) أنه كانت في دعائم الكعبة « صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة، وصورة إبراهيم خليل الرحمان وصورة عيسى ابن مريم وأمه. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ص البيت، فأرسل الفضل ابن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب فبلَّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست. قال: ووضع كفَّيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام وقال: امحوا جميع الصور إلاّ ما تحت يدي، فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأُمه » . وما رواه الأزرقي في نقله الهرواي والبيهقي وابن العربي وفيه شاهد على تنصّر قسم من قريش في مكة. وقال اليعقوبي في تاريخه (١ : ٢٩٨): « أما مَن تنصّر من أحياء العرب **فقوم من قريش** من بني أسد بن عبد العزّى، منهم الحويرث بن أسد وورقة بن نوفل بن أسد » . وصحيح البخاري (١ : ٤) ينقل أن ورقة هذا هو الذي أزوج محمداً خديجة، ابنة عمه؛ وهو العالم المسيحي الذي كان يترجم التوراة من العبرانية، والإنجيل من اليونانية إلى العربية. وفي جوار الفقيه المسيحي عاش محمد خمسة عشر عاماً قبل بعثته، وهو الذي

---

(١) تاريخ : ج ٢ ص ١٥٠ .

احتضن محمد في بعثته، حتى أنه لمّا توفي ورقة فتر الوحي مدةً (البخاري ١ : ٤). وذكر ياقوت، في مروج الذهب (٤ : ٦٢٢) أنه ((ليست أمة في الأرض إلاّ وهم يعظمون البيت، وأنه من إبراهيم، حتى اليهود والنصارى)) . وذكر المقدسي في جغرافيته (٧٧) ((مسجد مريم)) بجوار مكة. وذكر الأزرقي في (أخبار مكة ٥٠) ((مقبرة النصارى دُبُر المقلع على طريق بئر عنبسة بذي طوى)) والمقلع ((هو الجبل الذي بأسفل مكة على يمين الخارج إلى المدينة)) . وفي أحياء مكة موضع معروف باسم ((موقف النصراني)) ورد ذكره في تاج العروس.

فالمسيحية كانت أصيلة عريقة في مكة، ولكنها لم تنصّر أهلها، بل نقلتهم من الوثنية إلى ((الشرك)) وكانت أيضاً مصدر الحركة الحنيفية التوحيدية المستقلة فيها. فلا نستغرب والحالة هذه أن يحضر خطباء النصرانية مواسم الحج، ويخطبون جهاراً في سوق عكاظ. وتخص أخبار العرب[1] بالذكر دعوة قس بن ساعدة، أسقف نجران وخطيبها، وتشير إلى أن محمداً كان يستمع إليه بسرور.

والقرآن المكي خير شاهد على نفوذ النصرانية في مكة. فدعوة القرآن الأولى، كما رأينا كانت مسيحية في إصلاحها الديني والقومي، خصوصاً في الإنذار بيوم الدين واليوم الآخر.

والمسيحية التي كانت شائعة في مكة هي المونوفيسية، السائدة في اليمن والحبشة، وفي دولة الغساسنة وفي مشارف الشام كلها، والواردة منها إلى مكة. وهذه المونوفيسية اليعقوبية الحبشية العربية البدائية هي التي أوهمت أن التثليث المسيحي في ذات الله الواحدة، هو الله والمسيح ومريم أمه. ولم يتعبّد أحد من النصارى لمريم تعبد الأحباش لها، وتبعهم المريميون العرب. فجاء قصص القرآن المكي عن مولد المسيح في سورة مريم[2] على تلك الطريقة الحبشية. وذكر استشهاد نصارى نجران (في سورة البروج) على يد عملاء الفرس فيها، وذكر انكسار الروم وانتصارهم المنتظر (في سورة الروم) دليل على

---

(١) الأغاني ١٤ : ٤١ ؛ المسعودي ١ : ٣٣ ؛ أبو عبيد : دلائل النبوة ٢٨ ؛ ابن العربي : محاضرات الأبرار ٢ : ٣٧ ؛ الحلبي : إنسان العيون ١ : ٢٦٢ .

(٢) في سورة مريم نصّان مختلفان موضوعاً ورويّاً : الأول وهي الأصيل (١٥ ـ ٣٣) والثاني دخيل من المدينة (٣٤ ـ ٤٠) وهو ذو نزعة نسطورية .

الميل إلى المسيحية الغربية اليعقوبية. وهذه النصرانية العربية المكية البدائية كانت سبب حملات القرآن المدني، بتأثير النسطورية المدنية، على التثليث المسيحي وعلى ألوهية السيد المسيح وبنوته لله كما أشاعتها اليعقوبية وسائر البدع المنحرفة في مكة.

*

والنصرانية السائدة في المدينة هي المسيحية الشرقية، أي النسطورية، أو كما يسميها العرب ((العبَّاد)) التي كانت سائدة في الحيرة من شمال، وفي نجران من جنوب الحجاز؛ ومنهما سيطرت في المدينة. فكان لها ثلاث كنائس على اسم إبراهيم الخليل وأيوب الصديق وموسى الكليم. نقل الشهرستاني في (الملل والنحل ١٦٢) أن ((الفرقتين المتقابلتين قبل المبعث هما أهل الكتاب والأميون (العرب)؛ فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والأميون بمكة)) . وقد رأينا شيوع النصرانية في مكة. وعن شيوعها في المدينة قال دروزة: ((إن كل ما يستفاد من الروايات أن النصارى الذين لقيهم النبي في المدينة قليلون جداً، قد لا يتجاوز عددهم مئات قليلة[1])) ـ مئات قليلة في قرية حجازية في الجاهلية ألا يعني عدداً كثيراً؟ وتذكر سيرة ابن هشام أن الراهب أبا عامر، أحد زعماء الأوس، حارب محمداً في أُحُد، ثم خرج مع آله إلى ثقيف؛ والرسول يسميه ((الفاسق)) أي الذي خرج على دينه. وتذكر السيرة أيضاً أنه ظل على اتصال مع نصارى المدينة، وهو الذي حرّض اثني عشر رجلاً منهم، وكانوا من الذين يسميهم القرآن ((منافقين)) على تشييد مسجد الضرار، معارضة لمسجد النبي في قباء، ورحل قبل غزوة تبوك إلى بلاد الروم يستنصر قيصراً على محمد. وبعد تصفية عشائر اليهود في المدينة ظل فيها قوم، مع النصارى، يذكرهم حسان بن ثابت في مرثية للنبي[2]:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لمَّا توارى في الضريح المُلْحد

هذه النصرانية التي عاصرت النبي في المدينة كانت النسطورية التي تجعل من ((كلمة الله)) ومن عيسى ابن مريم ذاتين اتحدتا اتحاداً سطحيّاً، فالمسيح عيسى ابن مريم ليس ابن الله، وأمه ليست ((أمّ الله)) ولو ولدت ((كلمة الله)) التي ألقاها إليها؛ فهذه الصفات تجعل عيسى ابن مريم وأمه إلهين من دون الله. وقد سبقتهم إلى الحجاز بدعة آريوس، وهي متطرّفة

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ١٤٤ .
(٢) ديوان حسان بن ثابت : طبعة ليدن ص ٥٩ .

أكثر منهم، في نظر الأرثذكسية، أي أهل السنة المسيحية. روى القديس إيلاريون في رسالته إلى الملك قسطنطين[١] أن فرعاً من أشياع آريوس ظهروا في جهات العرب، وهو يدعوهم ((الأكاكيين)) باسم أكاكيوس زعيمهم، وكانوا يذهبون إلى أن المسيح ليس ابن الله، بل أول خلق الله؛ ومن قال بذلك يجعل من أم المسيح زوجةً لله، سبحانه عمّا يشركون. وقد ردد القرآن مقالتهم: ((أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة)) . وهذه النصرانية النسطورية المدنية كانت سبب حملات القرآن، ضد اليعقوبية المكية، على تأليه المسيح (نساء ١٩ و٧٥) وأمّه (نساء ١٧٠ مائدة ١١٩)، وعلى القول ((بالثلاثة)) (نساء ١٧٠). ومن نصرانية العبّاد كان اعتبار القرآن أن تحريمات التوراة القاسية كانت قصاصاً لليهود؛ ومها أيضاً تهمة اليهود بتحريف التوراة، وغيرهم من المسيحيين بتأويل الإنجيل وتغييره عن موضعه؛ ويتخذ القصص المسيحي في القرآن المدني صبغة نسطورية، كذلك تحديد المسيح في سورة النساء وتكفير عبادته (١٩ و١٧٠).

ومع هذه البدع الكبرى كانت جماعات نصرانية قليلة العدد، كشيع اليهودية ـ النصرانية والناصريين، والأبيونيين والكسائيين. ونخص بالذكر بدعة ((الفطائريين)) الذين ذكرهم القديس ابيفانيوس[٢]، كانوا يقدمون للسيدة أمّ المسيح قرابين، فطائر من عجين، فسُمّوا باسم قرابينهم. ولعل هؤلاء المبتدعة هم الذين سمّاهم ابن البطريق ((المريمية)) ، وذكر أنهم يقولون: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. وقد وصفهم بذلك ابن تيمية في كتابه (الجواب الصحيح) ودعاهم ((المريمانيين)) أو ((المريمانية)) . جسَّم الأعراب في أمّ المسيح العبادة السَّاميَّة المنتشرة في الشرق السامي لعشتار ملكة السماء. وقد وصف النبي إرميا تعبد نساء اليهود لها: ((ونحن إذ كنّا نقترّ لملكة السماء، ونسكب لها سُكُباً، أبدون رجالنا كنّا نصنع لها **أقراصاً** لنخدمها ونسكب لها سُكُباً؟)) (٤٤ : ١٦ ـ ٢٠). ومن تلك الفرق مقالة تنكر صلب المسيح: كيف صلب المسيح: كيف يُصلب الإله[٣]؟

---

(١) راجع مجموعة الآباء، المجلد العاشر .

(٢) في كتاب (الهرطقات ف ١٠) .

(٣) يقول الكتوليكس هبة يشوع الثالث في كتاب له من سنة ٦٤٧ : ((إن العرب لا يقبلون على الإطلاق مَن يقول بأن المسيح صلب)) cf. Liber Epist. Isojahbi III C. S. Chr. Or Syr. série II p. 64, 73, 251.

وهكذا لم تصل إلى الحجاز، ومكة والمدينة، سوى الشيع المسيحية المتطرّفة[1] والمنحرفة التي لم تجد لها مكاناً في بلاد الروم، لأنها لا تدين بدين الدولة؛ ووجدت لها ملجأً في ديار العرب فصحت كلمة المؤرخ ابيفانوس: ((العربية معقل البدع)) . فكانوا لذلك، مع اليهود، أنصار الفرس وعملائهم في الجزيرة، انتقاماً من مضطهديهم، الارثذكسيين، أو كما يسميهم العرب ((الملكيين)) بحسب تعبير أولئك المنفيين لهم.

فوقع محمد بين إفراط اليعقوبية ومغالاتها، وبين تفريط النسطورية الآريوسية. ولو أنه اهتدى إلى ((الأمة الوسط)) ، ((المسيحية الأرثذكسية)) لتغيّر موقفه من النصرانية ـ فالقرآن لم يعرف سوى النصرانية المنحرفة، ولا ((ذكر فيه للدين المسيحي القيم)) على الإطلاق.

*

مطلب ثان: تطور موقف القرآن من النصارى في العهد المدني.

وقف النصارى العرب من الحركة المحمدية موقف السماحة ((والمودّة)) حتى النهاية؛ وقد شهد لهم القرآن بذلك في أواخر ما نزل منه (مائدة ٨٥). ويُرجع القرآن الفضل في تلك ((المودة)) المتبادلة ـ لا إلى قلة عددهم كما يحلو للبعض أن يتوهموا ـ بل إلى موادعة رؤساء الدين المسيحي له: ((ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)) (مائدة ٨٥ ـ ٨٦). قابل أيضاً إسراء (١٠٧ ـ ١٠٩) والقصص (٥٢ ـ ٥٥) فقد وجدوا بالاعتراف بنبوّته على جميع الأنبياء حجة وقوة على خصومهم اليهود ناكريها. وفي آخر أمره لم يأخذ عليهم سوى ((غلوهم)) في تكريم المسيح وأمه: موقف محبّب دينيّاً وسياسيّاً؛ ولعل من أسباب

---

(١) قال الأستاذ دروزة : ((هذا إلى ما كان من مطابقة بين التقريرات القرآنية ؛ وما كان عليه بعض الفرق النصرانية من عقائد ومذاهب أو مقاربة ، إذ من المحتمل كثيراً أن تكون الجاليات النصرانية في مكة (والحجاز) من هذه الفرق . (وفي الحاشية) في تاريخ انتشار الإسلام ، للمستشرق الإنكليزي أرنولد تقريرات مستندة إلى وثائق ودراسات تدل على أنه كان بين الفرق النصرانية مَن يتطابق مذهبه مع التقريرات القرآنية في شأن عيسى عليه السلام)) (سيرة الرسول ١ : ٣١٢) ـ وذكر العيني (مجلد ٧ ص ٤٠٠) فرق النصرانية ، وقال إن اليعقوبية تقول عن المسيح إنه الله ، فأجاب القرآن (كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم) والنساطرة إن المسيح ابن الله ، فأجاب القرآن (لم يلد ولم يولد ولم يكن له قط كفوءاً أحد) والمرقيونية إن المسيح أو الله ثالث ثلاثة فأجاب القرآن (كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) واليهود إن المسيح ابن زانية (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً) .

ذلك أن النصارى في الحجاز كانوا عرباً يشعرون بشعور قومهم، لا دخلاء كاليهود، ولهذه النظرة خطرها في معركة التحرير والوحدة الدينية والقومية التي يقودها ويخوضها الإسلام مع محمد.

*

النص الأول: في سورة البقرة: الإشادة بالمسيح سيد المرسلين.

((ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس: أفكلما جاءَكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)) (٨٧).

ميزة المسيح على موسى وسائر الأنبياء معجزاته البينات التي لا مثيل لها. قال الزمخشري: ((لِمَ خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر، وهل يدل على أنهما أفضل من غيرهما؟ وتخصيص عيسى ابن مريم بإيتاء البينات يدل أو يوهم أن إيتاء البينات ما حصل في غيره أو خصه بالذكر لأن تلك البينات عنده أقوى من غيره)) . والميزة الكبرى التي انفرد بها هو تأييد الله له بالروح القدس. والرازي ينقل لهذا الاسم ثلاثة تفسيرات، الأول للحسن: ((القدس هو الله، وروحه هو جبريل عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام لا يفارقه ساعة وهو معنى قوله (وأيدناه بروح القدس). والثاني لابن عباس: إن روح القدس هو الاسم الأعظم الذي كان يحيي به عيسى عليه السلام الموتى. والقول الثالث هو قول أبي مسلمة: روح القدس هو الروح الطاهرة التي نفخها الله تعالى فيه وأبانه بها عن غيره ممن خلق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثى)) .

وفي آية المفاضلة بين الرسل (بقرة ٢٥٣) يذكر تلكما الميزتين اللتين بهما يفضل المسيح جميع الرسل: ((تلك الرسل فضلنا بعضهم عن بعض: منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات (؟) وآتينا ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس. ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءَتهم البينات)) . هنا يضع القرآن مبدأ المفاضلة بين الرسل، وخص كلاّ منهم بميزة، وخص المسيح بالمعجزات ((وجعل معجزاته سبب تفضيله لأنها آيات واضحة ومعجزات عظيمة **لم يستجمعها غيره**)) (البيضاوي) وتأييد الروح القدس ميزة الميزات، التي لم يذكر القرآن لرسول ما يدانيها؛ جبريل نزّل القرآن على محمد (٩٧) نجوماً، وقد فتر الوحي أياماً، وشهوراً وسنوات، ولكن جبريل ((لم يفارق المسيح ساعة)) ، كما ينقل الرازي، وتأييد الروح القدس للمسيح ظل قائماً دائماً. واختتم الزمخشري: ((**إن مَن زيد تفضيلاً بينهم بالآيات فقد فضل على غيره**)) .

*

النص الثاني: في سورة النساء: دفاع القرآن عن المسيح وأمه ضدّ اليهود.

يكفّر اليهود في موقفهم من المسيح وأمه: « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم: إنّا قتلنا المسيح، عيسى بن مريم! ـ وما قتلوه، وما صلبوه، ولكن شُبّه لهم؛ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم إلا إتباع الظن؛ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزاً حكيماً؛ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً » (١٥٦ ـ ١٥٨): تهمة أم المسيح بالزنى كفر! مقالتهم بالتخلص نهائياً من المسيح بقتله وصلبه، كفر لأنه « ما من اليهود أحد إلا ليؤمن قبل موته بعيسى » (الزمخشري) لأنه وإن ظنوا أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فهو يزل حيّاً وقد رفعه الله إليه. وبهذه الشهادة المتواترة عن رفع المسيح حيّاً إلى السماء، أعطى القرآن المسيح ميزة لم ينلها بشر أو ولي، أو نبي أو رسول.

ثم يدعو المسيحيين إلى الكف عن « الغلو » في تكريم المسيح وأمه: « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلا الحق: إنما المسيح عيسى ابن مريم، رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا: ثلاثة. انتهوا خيراً لكم. إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد. لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ـ ولا الملائكة المقربون ـ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر، فسيحشرهم إليه جميعاً » (١٧٠ ـ ١٧١).

قال الرازي: « اعلم أنه لما أجاب عن شبهات اليهود تكلم بعد ذلك عن النصارى في هذه الآية. والتقدير (يا أهل الكتاب من النصارى لا تغلوا في دينكم) أي لا تُفرطوا في تعظيم المسيح. وذلك أنه لما حكى عن اليهود أنهم يبالغون في الطعن في المسيح، وهؤلاء النصارى يبالغون في تعظيمه، وكلا طَرَفَي قصدهم ذميم، فلهذا قال للنصارى: لا تغلوا في دينكم » .

لاحظ أنه يحذرهم من الغلو، ولا يكفّرهم مثل اليهود. فالخطاب كلام تودّد، لا كلام تحدّ. وقد وقف القرآن بين الطرفين موقفاً وسطاً، كما يليق « بالأمة الوسط » : ينكر الغلو في بنوّة المسيح ضد النصارى، ويؤيّد نبوّة المسيح ضد اليهود. ويعطي المسيح في نبوّته أوصافاً لا يذكر القرآن لرسول مثلها: إنه مسيح الله، وكلمة الله، وروح الله. والمفسرون لهذه الأوصاف يحمّلونها من المعاني ما يقرّبها من البنوّة أكثر من النبوّة. قال البيضاوي: « المسيح لقبه، سمي كذلك لأنه مُسح بالبركة أو مُسح بما طهّره من

الذنوب، أو مسح الأرض ولم يقم في موضع، أو مسحه جبريل صوناً له من مس الشيطان)) : فهي مسحة الطهارة والبركة منذ مولده، ومسحة القداسة والعصمة مدى الحياة، ومسحة النبوة والمعجزات منذ مولده، وفي هذه المسحة سر شخصيته وسر عظمته. وأجمع المفسرون على أن اللقب الثاني ((كلمة الله)) مجرد ((أمر الله)) بخلقه: ((سمي كلمة لأنه خلق بكلمة كن)) (الجلالان) ـ جميع البشر والمرسلين خُلقوا بأمر الله، فلِمَ خصّ القرآن المسيح بلقب ((كلمة)) ؟ قال البيضاوي: ((سمي بذلك لأنه وُجد بأمره تعالى دون أب فشابه البدعيات التي هي عالم الأمر)) : كل الأنبياء، حتى الذين خلقوا بمعجزة مثل يحيى بن زكريا، لم تخصهم التوراة والإنجيل بلقب ((كلمة)) سوى المسيح. قال الرازي: ((سمي كلمة الله من وجوه: ١) إنه خلق بكلمة الله؛ ٢) إنه تكلم (أي تنبّأ) في الطفولية فسمي كلمة أي كاملاً في الكلام؛ ٣) إن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق كذلك عيسى كان يرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية؛ ٤) إنه حقق كلمة بشارة الأنبياء به؛ ٥) اسمه العلم: كلمة الله كلطف الله؛ ٦) واعلم أن كلمة الله هي كلام الله، وكلام الله على قول أهل السنة، صفة قديمة قائمة بذات الله)) ؛ ٧) وأضاف: ((سمي كلمة الله **كأنه صار عين كلمة الله** الخالقة له بوجوده المعجز، **أو لأنه أبان كلمة الله أفضل بيان**)) (آل عمران ٤٥) ـ لقد قرب الرازي من المعنى الذي يقصده الإنجيل، من حيث أخذ القرآن اسم المسيح الفريد بين العالمين ((كلمة الله)) : إنه كلمة الله الذاتية، القائمة في ذات الله؛ وإنه عين كلمة الله الذاتية التي ألقاها إلى مريم؛ وإنه عين كلمة الله المنزلة. لقد أعطى الله آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى ومحمد ((كلمات)) (آل عمران ٥٩) وينفذ البحر ولا تنفد كلمات ربي؛ ولكن كلمة الله الذاتية والمنزلة هو المسيح عيسى ابن مريم.

هو ((كلمة الله)) وهو ((روح الله)) : كل الملائكة والبشر أرواح من الله، مخلوقة، ولكن القرآن يصف ((كلمة الله)) أنه ((روح منه)) أي ((ذو روح صدر منه تعالى، وقيل سمي روحاً لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب)) (البيضاوي). فهو ((روح الله أو روح من الله)) (الزمخشري) نفخة الله في مريم، كما أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم؛ ويختلف التعبير في حق آدم وكل روح مخلوق ((ثم سواه ونفخ فيه من روحه)) (سجدة ٩ حجر ١٩) فالروح هنا نفخة الله الخلاقة، لا روح الله الملقى إلى مريم. ولقب ((روح الله)) يوضح معنى اللقب الأول ((كلمة الله)) : فكلمة الله ليس أمراً، بل شخصاً لأنه ((روح الله)) . قد يكون القرآن ((روحاً من أمر الله)) فهو من ((أمر)) الله، وليس ((روحاً من الله)) أو

« روح الله » : في حق القرآن، وكل نبوّة منزلة، فهو « روح » من عالم « الأمر » وليس مثل « كلمة الله » « روحاً منه تعالى » ، من عالم الذات الإلهية ـ أسماء وألقاب يوضح بعضها بعضاً، ويؤيد بعضها بعضاً، أطلقها القرآن على عيسى ابن مريم، ولا يصف بها أحداً سواء من العالمين، لأنه تصف شخصيته ورسالته من دون المرسلين.

مع ذلك لم يأخذ القرآن هذه الأسماء على إطلاقها، لأن تعريفه للمسيح في آية النساء (١٧٠) تحديد نسطوري يميّز بين ذات الكلمة، وذات عيسى ابن مريم الذي هو المسيح؛ ويقصد دائماً بكلامه عن المسيح: عيسى ابن مريم دون ذات الكلمة؛ ولذلك « لا يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » مثل الملائكة المقربين.

*

النص الثالث: « النبي الأمي » يوجه الدعوة إلى المسيحيين في سورة الأعراف.

في العهد الأول بالمدينة كان القرآن يدافع عن المسيحية ضد يهود المدينة حتى تمت له تصفيتهم. فأخذ في العهد الثاني يوجه الدعوة إلى المسيحيين أنفسهم، ويشملهم في دعوته العامة: « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً: فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمّي الذي يؤمن بالله وكلمته، لعلكم تهتدون » (١٥٧). هناك قراءة ضعيفة لا تنسجم مع روح النص « وكلماته » . ونقل الزمخشري والبيضاوي قراءة « وكلمته » . ثم نقلا عن مجاهد: « أراد عيسى ابن مريم » . فمحمد يقدّم نفسه للمسيحيين رسولاً أيضاً إليهم، بصفته « النبي الأمي الذي يؤمن مثلهم بكلمة الله » . وهذه الوحدة في « الإيمان بكلمة الله » يجب أن تحفزهم على إتباعه.

*

النص الرابع: « النبي الأمي » هو « أحمد » الذي بشر به المسيح أيضاً (ص ٦). هنا تتخذ دعوة القرآن للمسيحيين صيغة الإلزام الخاص، تنفيذاً لرسالة المسيح الذي بشّر بالنبي باسم « أحمد » : « وإذ قال عيسى ابن مريم: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يديّ من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد؛ فلما جاءهم بالبينات قالوا: هذا ساحر مبين » (صف ٦).

في هذا النص يجعل رسالة المسيح ذات هدفين: بالنسبة للماضي فهو يصدّق التوراة؛ وبالنسبة للمستقبل، فهو يبشّر « بأحمد » . وفي سائر النصوص يجعل القرآن نبوة المسيح

خاتمة النبوات، فهو الذي ((قفّى به الله)) على جميع الرسل (بقرة ٨٧ و٢٥٣ حديد ٢٧) وجمع معه كل الكتب المنزلة ((ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل)) (آل عمران ٤٨).

ولقب ((أحمد)) ترجمة ((الفارقليط)) الذي يعد به المسيح رسله قبل صعوده إلى السماء ونص الإنجيل صريح لا يحتمل التردد والتأويل: ((فالفارقليط[1])) هو لقب ((الروح القدس)) والروح القدس في إنجيل يوحنا ذات إلهية ((الفارقليط، روح الحق الذي من الآب ينبثق)) (١٥ - ٢٦)؛ ورسالته تقتصر على الرسل: ((وأما الفارقليط، الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم كل ما قالته لكم)) (١٤ : ٢٦)؛ ورسالة الفارقليط لدى الرسل، رسالة روحية داخلية، دائمة: ((وأنا أسأل الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليقيم معكم إلى الأبد)) والعالم لا يراه ((لأنه يقيم عندكم ويكون فيكم)) في ذواتهم ونفوسهم. فهل ينطبق هذا الوصف على ((النبي الأمّي)) ؟ ظن النبي ذلك، وتوجه به إلى النصارى ليحملهم على اتّباعه.

ويتبع هذه البشرى ((المسيحية)) بأحمد دعوة للمسلمين كي يكونوا أنصار الله كما كان الرسل الحواريون أنصار عيسى ابن مريم الذين أيدهم الله على عدوهم (اليهود الذين كفروا بالمسيح) فأصبحوا ظاهرين (صف ١٤) كما أيد محمداً عليهم فأصبح ظاهراً في المدينة ووادي القرى والحجاز كله، وهذه هي تجارة الإيمان الرابحة (١٠) التي يدعو إليها المسيحيين والمسلمين معاً.

*

النص الخامس: أمة عيسى ورهبانهم في عصر محمد (آل عمران).

هناك نص لا ندري زمن نزوله بالضبط؛ ولكن فحواه يوحي بأنه نزل بعد تصفيته اليهود الذين ((ضُربت عليهم الذلة والمسكنة)) ، وقبل بدء الخلاف مع النصارى ورهبانهم، أيّ قبل غزوة مؤتة، في بدء دعوة القرآن المحببة للنصارى، في مطلع العهد المدني الثاني:

يقول **للمسلمين:** ((كنتم خير أمة أخرجت للناس: تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؛ وتؤمنون بالله)) (١١٠).

---

(١) التعبير اليوناني في جميع النسخ من القرن الأول ميلادي إلى اليوم ((Παραχλτοζ)) أي ((المعزّي)) أو ((المحامي)) ؛ وقرئ للنبي ((Περιχλητοζ)) أي المحمود الصفات ، أحمد ، وهذه القراءة لا أصل لها. ومهما يكن من أصل الكلمة فتحديدات الإنجيل للفارقليط وعمله في الرسل الحواريين ترفع كل إبهام .

ويقول **عن اليهود:** « ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم؛ منهم المؤمنون، وأكثرهم فاسقون؛ ضربت عليهم الذلة والمسكنة:(لسبب ماضٍ) ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق! (ولسبب حاضر) ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » (١١٠ ـ ١١٢)!

ويقول **عن النصارى** ورهبانهم: ليسوا سواءً! من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون؛ يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويسارعون في الخيرات؛ أولئك من الصالحين. وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه؛ والله عليم بالمتقين » (١١٣ ـ ١١٥).

ـ من هي الأمة الصالحة المصلحة التي تذكرها الآيات (١١٣ ـ ١١٥)؟ ـ ليسوا اليهود. بعضهم يقول إنها أمة محمد، كي لا يفوتهم المدح العظيم الذي فيها؛ وكثيرون يخصونها بأهل الكتاب الذين أسلموا ـ فما الداعي لتمييزهم عن المسلمين؟ ولماذا تكون لهم طريقة في الصلاة الموصوفة خلافاً للمسلمين؟ والنص صريح: « من أهل الكتاب أمة قائمة ». وروى الرازي حديثاً: « ألا إني نهيت أن أقرأ راكعاً أو ساجداً » وهنا « يتلون آيات الله وهم ساجدون » وقد نسخ القرآن المدني قيام الليل بالصلوات الخمس النهارية، وبقي قيام الليل نافلة للنبي وحده، وهنا « يتلون آيات الله **آناء الليل** وهم يسجدون » فهذه ليست عادة اليهود، ولا عادة المسلمين بل عادة رهبان عيسى. قال البيضاوي: « ليسوا سواءً: الضمير لأهل الكتاب » وقال الرازي: « في المراد بأهل الكتاب قولان: (الأول) وعليه الجمهور: هم الذين آمنوا بموسى وعيسى (وهم النصارى): (والثاني) المراد بأهل الكتاب، كل من أوتي الكتاب من أهل الأديان، وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم » . ـ لا يصح هذا الاستنتاج الأخير لأن القرآن يميّز هذه الأمة القائمة آناء الليل (١١٣) من اليهود (١١١ ـ ١١٢) ومن المسلمين (١١٠). فالمقصودون هم النصارى ورهبانهم وحدهم. قال الرازي أيضاً: واعلم أنه تعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآيات بصفات ثمانية: ١) قائمة أي مستقيمة عادلة ٢) يتلون آيات الله: وصفهم بالتهجد بالليل ٣) الصلاة « وهم يسجدون » ٤) الإيمان « يؤمنون بالله واليوم الآخر » أي بالمبدإ والمعاد ٥) يأمرون بالمعروف ٦) وينهون عن المنكر ٧) ويسارعون في الخيرات ٨) وأولئك من الصالحين. والوصف بهذا **غاية المدح** » . يشهد القرآن إذن بتقوى النصارى ورهبانهم العظيمة (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون)، وصحة دينهم وإيمانهم وإسلامهم (يؤمنون بالله واليوم الآخر)، وغيرتهم على الإصلاح (يأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر)، وعلى صلاحهم وكمالهم (يسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين)، ويعدهم بالجنة ((وما يفعلون من خير فلن يكفروه)) . وصف المسلمين بأنهم ((خير أمة أخرجت للناس)) لأنهم ((يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله)) (١١٠) فضّلهم على أمم التوحيد لثلاث صفات، يذكرها إياها للمسيحيين، ويزيدهم على المسلمين خمس صفات أخرى: ومن زيد فضيلة زيد فضلاً.

*

النص السادس: بدء الخلاف مع النصارى في غزوة مؤتة (الحديد).

مضمون سورة الحديد يوحي بأنها نزلت بين يدي فتح مكة، بمناسبة غزوة مؤتة إلى مشارف الشام حيث العرب، بمجموعهم، نصارى. وكانت حملة فاشلة قام فيها العرب النصارى بدورهم في رد غزوات البادية عن المعمورة. فنزل:

((لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم، وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب: فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون. ثم قفينا على آثارهم برسلنا، وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة، ورهبانية ابتدعوها، ما كتبناها عليهم إلاّ ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حتى رعايتها. فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون. يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يُؤتكم كفلين من رحمته ... لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء)) (٢٦ ـ ٢٩).

عيسى خاتمة المرسلين الذين قفّى به الله على الرسل جميعاً (٢٧) وأتباعه أهل ((الرأفة والرحمة)) . قال دروزة: ما جاء في النصارى في القرآن المدني وخاصة في آيات المائدة (٨٢ ـ ٨٥) والحديد (٢٧) **من الثناء المحبب** قد جاء بأسلوب مطلق وتعميمي، ويكاد يوحي بأنه يشملهم كافة[1])) . وبدأ النبي يشعر، في أعقاب الحملة الفاشلة أن ((كثيراً منهم فاسقون)) ، وأن بعض الرهبان لا يرعون رهبانيتهم حق رعايتها. ويدعو جماعته ليلتفوا حوله، واعداً إياهم بنصيبين من رحمة الله، ـ وكان النصيبان في مكة من حق أهل الكتاب ـ ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على منع الإسلام من التوسع، فهذا الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

*

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ٢ : ١٤٦ .

النص السابع: تثبيت أهل التوراة والإنجيل والقرآن، كل على شريعته (المائدة).

بمناسبة استفتاء يهودي للنبي على إقامة الحد على الزاني (مائدة ٤٤ ـ ٤٥) أفتى النبي ـ بعد سوآل أحد علماء اليهود عن الحد في التوراة ـ بإقامة الحد الذي تسنّه التوراة، وهو الرجم. قيل، إن النبي قد أقامه على اليهودي الزاني[1]. ثم يعطي القرآن في سورة المائدة (٤٤ ـ ٥٣) تشريعاً نهائياً، لم تنسخه سورة المائدة ولا سورة التوبة، وهما آخر القرآن نزولاً:

وفيه تثبيت أهل التوراة على شريعتهم: « وكيف يحملونك وعندهم التوراة فيها حكم الله!؟ إنا أنزلنا التوراة فيها نور وهدى؛ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » (٤٦ ـ ٤٨).

وفيه تثبيت أهل الإنجيل على شريعتهم: « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم وأتيناه الإنجيل فيه هدى ونور: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومَن لم يحكم بما أنزل الله (فيه) فأولئك هم الفاسقون » (٤٩ ـ ٥٠).

وفيه تثبيت أهل القرآن على شريعتهم: « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه » (٥١).

ثم يختم بإجبار النبي على الحكم بين أهل الكتاب بما أنزل الله إليهم: « فاحكم بينهم بما أنزل الله (إليهم) ولا تتّبع أهواءَهم عما جاءك من الحق » (٥١) فقد استفتى محمد عالماً يهودياً عن حد الزنى في التوراة وأقام على الزاني.

لأن المبدأ الأخير، الجامع المانع، في القرآن: « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** » . ثم يفسر فلسفة هذا التشريع النهائي: ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة؛ ولكن ليبلوكم في ما آتاكم: فاستبقوا الخيرات (بموجب الشرائع الثلاث المختلفة)، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » (٥١).

ويعود القرآن بالنتيجة إلى إجبار النبي على الحكم بين أهل الكتاب بما أنزل إليهم (٥٢) وكل تفسير لهذا الفصل يحيد عن المبدأ العام « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » فهو معرض ينقضه صريح القرآن.

---

(١) قيل كان الاستفتاء من أهل خيبر أو فدك بواسطة يهود سلموا من التصفية في المدينة ؛ وهذا يوحي بأن القصة وقعت بعد إخضاع يهود الشمال لسلطان المسلمين ، حتى يستفتوا النبي ، وحتى يقيم النبي الحد على الزاني .

فالخلاف الناشب بين الكتابيين والمسلمين، لا يمنع الحق والعدل في تثبيتهم على شريعتهم والحكم بينهم بموجبها، دون تطبيق شريعة القرآن عليهم، فالقرآن يختص شريعته بأهلها، ويفرضها على المشركين والكافرين، من دون أهل الكتاب: فهؤلاء كما أنهم لا يُكرهون على الإسلام، بل على الجزية فقط للمسلمين (توبة ٣) كذلك لا يكرهون على شريعة القرآن.

وهذا الموقف السمح العادل يضع القرآن والنبي في أوج العدالة والكرامة.

*

النص الثامن: دعوة النصارى إلى ((كلمة سواء)) (آل عمران)

وتم فتح مكة، وسيادة الإسلام على الحجاز. وأخذت وفود الأعراب تفد على النبي مبايعة. فجاء وفد من نجران برئاسة الأسقف والعاقب، مفاوضين. قال دروزة: ((كان الوفد مؤلفاً من ستين شخصاً، منهم أربعة عشر من أشرافهم، وثلاثة من كبار دينهم. فاجتمعوا بالنبي في مسجده وعليهم الحَبَرات. وجرت بينهم مناظرة كان أهم مواضعها ولادة عيسى عليه السلام، وصلته بالله ورسالته. وقد جادلوه مستشهدين بما قرّره من أن عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه. ورد عليهم منددا بتأويلاتهم التي لا تتسق مع جوهر الأمر ومبدإ التوحيد المطلق[1])) .

فقص عليهم القرآن خبر مولد مريم أُم المسيح، وكيف عصمها الله من مسّ الشيطان (٣٦) وأنبتها نباتاً حسناً في المحراب[2] حيث كان طعامها يأتيها من الجنة (٣٧) واصطفاها على نساء العالمين لتكون أمّاً للمسيح (٤٢)؛ وكيف بشرها الله ((بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقربين، ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين)) (٤٥ ـ ٤٧) ثم يصف رسالته بأنها جامعة للوحي كله ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل)) (٤٨) ((وحكى ههنا (٤٩) خمسة أنواع من معجزات عيسى)) (البيضاوي): خلق الطير، وإبراء الأكمه، وإبراء الأبرص، وإحياء الموتى، والأنباء بالغيب. وكانت أهداف رسالته تعليم التوحيد المنزل (٥١) وتحليل بعض المحرّمات في التوراة (٤٩). فآمن الحواريون وأسلموا وصاروا أنصار عيسى (٥٢ ـ ٥٣).

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ١٤٨.
(٢) المحراب كلمة حبشية تعني الهيكل .

ويصف آخرة المسيح، في انتصار مكر الله على مكر اليهود: أمات الله المسيح[1] ثم رفعه إليه حيّاً، وجعل الذين اتبعوه (النصارى) فوق الذين كفروا (اليهود) إلى يوم القيامة (٥٤ ـ ٥٥).

تلك « آيات الذكر الحكيم » (٥٨) يستخلص منها القرآن إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم: خلقه من تراب ثم قال له: كن! فيكون » (٥٩). فعلا الحجاج بين النبي ووفد نجران على هذا القصص الحق (٦١ ـ ٦٢). فدعاهم النبي إلى المباهلة بالملاعنة؛ فتمنعوا ووادعوه، صامدين على موقفهم كما صمد النبي على موقفه (٦١ ـ ٦٣). وقالوا له: « يا أَبا القاسم قد رأينا ألاّ نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا فإنكم عندنا رضا[2] » وقبل أن ينصرفوا دعاهم النبي إلى « كلمة سواء » على التوحيد الخالص: « قل يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: إلاّ نعبد إلاّ الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله. فإن تولّوا فقولوا: اشهدوا بأنّا مسلمون » (٦٤).

في ذاك النص الكريم يشهد القرآن بولادة المسيح المعجزة التي انفرد بها بين العالمين؛ ويصف شخصيته بألقاب أربعة، وأوصاف أربعة، لم يخص القرآن بمثلها أحداً من المرسلين. ويدل على عظمة رسالته بأنه تعلّم الوحي كله من الله مباشرة، بدون وسط كغيره، فكأنه جمع الوحي فيه. وذكر له خمسة أَنواع من المعجزات التي تؤيد رسالته: منها ما اشترك به مع غيره من المرسلين مثل الإبراء والأنباء بالغيب؛ ومنها ما انفرد به على جميع المرسلين كالمقدرة على الخلق، وإحياء الموتى، وهما من خصائص الخالق. ويشهد القرآن للرسل الحواريين وأتباعهم بأنهم «مسلمون » (٥٢).

وقال الرازي: « واعترفوا بأن الله تعالى شرّف عيسى بصفات: الأولى الوفاة المعجزة، والثانية الرفع إلى ملكوت الله إلى محل كرامته تعالى، وجعل ذلك «رفعاً » إليه للتفخيم والتعظيم ـ والرفع حيّاً إلى السماء معجزة انفرد بها المسيح على العالمين والمرسلين ـ والثالثة تطهيره من الذين كفروا، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه، أخبر عن معنى تخليصه منهم بلفظ التطهير؛ والرابعة تفوّق المؤمنين بالمسيح على الكافرين به بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، وبالحجة والدليل والبرهان؛ والفوقية بالرفعة والدرجة. إنه تعالى بشّر

---

(١) الإتقان ١ : ١١٦ « متوفيك: مميتُ » .
(٢) السيرة لابن هشام ٢ : ٣٣ .

عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة والدرجات الرفيعة العالية، وأَمَّا في القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به والجاحدين برسالته)) كأن الحكم يوم الدين سيكون على الإيمان بالمسيح وعدمه!

ودعوة النصارى إلى ((كلمة سواء)) في التوحيد، لا تعني أنه يصمهم بالشرك في تعظيم المسيح، فهو يشهد بأن الحواريين كانوا مسلمين (٥٢)؛ ولكنه يشير بأن ((غلوّهم)) في المسيح سبيل إلى الشرك بالله.

فقد دعا القرآن في مكة إلى توحيد أسماء إله التوحيد: الله (في الحجاز) والرحمان (في اليمن) والرحيم (في الشمال) في بسملته (باسم الله الرحمان الرحيم). ويدعو الكتابيين في المدينة إلى توحيد أديان التوحيد، ((في كلمة سواء)) .

*

النص التاسع: الدعوة إلى الكف عن ((الغلو)) في تعظيم المسيح وأمه (مائدة).

من ذيول المؤتمر الإسلامي المسيحي مع وفد نجران، نجمت دعوتهم إلى ((كلمة سواء)) . وإذ فشلت هذه الدعوة، أَتبعها النبي بدعوة أخرى إلى الكف عن ((الغلو)) في تعظيم المسيح وأمه. وهذه الدعوة الثانية إلى الكف عن ((الغلو)) ، ممزوجة بتكفيرات شديدة لبعض مقالات النصارى المنحرفين في الحجاز. وهذه الشدّة تلت فتح مكة، لمّا صارت مصلحة البلاد في توحيد الجزيرة الديني والقومي تقتضي دمج النصارى في الحركة الإسلامية كي لا يبقى في جزيرة العرب دينان، كما سيوصي النبي على فراش الموت.

جدال القرآن في سورة المائدة لليهود هو من قبل تصفيتهم في المدينة أي من العهد المدني الأول؛ أَمَّا دعوة النصارى بشدة إلى الكف عن ((غلوّهم)) وغلوائهم فقد كانت بين فتح مكة وغزوة تبوك لإخضاع نصارى الشمال، وهي منثورة مقحمة في جدال اليهود (١٩ و٧٥ ـ ٨٠ و١١٢ ـ ١٢٣):

تأليه المسيح كفر (مائدة ١٩ و٧٥)، والقول ((إن الله ثالث ثلاثة)) كفر أيضاً (٧٦).

فالقول الحق: ((ما المسيح ابن مريم إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة: كانا يأكلان الطعام)) (٧٨): من يأكل كالبشر لا يكون إلهاً! ((قل يا أَهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق، ولا تتبعوا أَهواء قوم قد ضلّوا من قبل، وأضلّوا كثيراً، وضلّوا عن سواء السبيل)) (٨٠).

ويختم بشهادة المسيح في الموقف الحق، يوم الدين، بالتوحيد، واستنكار انحراف قومه بتأليهه، واسترحام الله لهم (١١٢ ـ ١٢٣).

ويتخلّل ذلك تحذيرٌ للنصارى المنحرفين ذو مغزى: « وإن لم ينتهوا عمّا يقولون، ليمسَنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٧٦). وهذا تهديد صريح بالقتال.

ومن الحق أن نقول بأن القرآن في تكفيراته الثلاثة: « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم! لقد كفروا الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة! أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله! » يخاطب نصارى العرب البعيدين عن مراكز النصرانية الرسمية، أو المسيحيين المنحرفين الفارين من وجه العدالة الساهرة على دين الدولة المسيحي الرسمي. وتلك التكفيرات حق فليس الإنسان عيسى ابن مريم الله! وليس الله ثالث ثلاثة: الله وعيسى ومريم! وليست أم المسيح إلهة من دون الله! فهذا التأليه ينكره جميع المسيحيين خارج الحجاز منذ ألفي سنة وإلى ما شاء الله. وتأليه مريم أم المسيح لم يقل به سوى أجلاف العرب. وهذا التثليث الذي يجعل عيسى ابن مريم وأمه إلهين من دون الله ينكره ويستنكره المسيحيون مذ كانوا، ولم يقل به سوى بعض نصارى العرب البدائيين الذين زادوا انحرافاً على انحراف اللاجئين إليهم.

لذلك لا يصح، على أيّ حال، اتهام المسيحيين في العالم بما يتهم به القرآن نصارى العربية وحدهم في زمن النبي.

*

النص العاشر والأخير: الوصية الأخيرة بقتال النصارى وإخضاعهم للجزية (توبة).

بعد أن خضع الحجاز لسلطان الإسلام بفتح مكة، أخذ محمد بإخضاع الجزيرة كلها لهذا السلطان الإلهي. وهدفه وحدة العرب الدينية والقومية. لذلك سيّر جيوشه إلى العرب النصارى أولاً على حدود الشام[1] في غزوة تبوك التي قادها بنفسه؛ ثم إلى نجران واليمن بقيادة القائدين العظيمين علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد. قال دروزة: « إن الحملة على النصارى التي وردت في آيات التوبة (٣٠ ـ ٣٥) عنت سكان مشارف الشام حيث كانت الديانة النصرانية هي السائدة[2] » .

---

(١) « في أطراف الجزيرة الشمالية كانت الديانة النصرانية هي السائدة » (سيرة الرسول ٢ : ١٤٣) .
(٢) سيرة الرسول ٢: ٤٦ .

كان القرآن في مكة قد عوّد أهله على ((وحدة تامة)) مع المسيحيين! وعلى ((المودّة)) الصادقة طيلة العهد في المدينة، بعد أن استقل عنهم في ((أمة وسط)) ؛ وظلّ يُشيد بإسلامهم وتقواهم إلى ما قبل غزوة تبوك (مائدة ٨٥) حتى صار المسلمون يتحرّجون من قتال هؤلاء النصارى. وكان لا بد لهم من تنزيل جديد في القرآن حتى يستسيغوا قتالهم فنزل الأمر الصريح بقتالهم في صدر براءة، وعلى كل حال لإخضاعهم لسلطان المسلمين لا لإكراههم على الإسلام: ((قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)) (توبة ٣٠).

ويبرّر هذا الانقلاب المفاجئ في معاملة النصارى العرب باتهامهم بالشرك في قولهم ((المسيح ابن الله)) الذي به يضاهون قول الذين كفروا من قبل (٣١) وطاعة رهبانهم كطاعتهم للرب (٣٢) ودعايتهم ضد الإسلام (٣٣) وأكل الكثيرين من رهبانهم أموال الناس الباطل، ولا ينفقون منها في الجهاد (٣٥). والغاية من قتال النصارى، أسوة بقتل اليهود، إن الله يريد أن يظهر دين الحق، الإسلام، على الدين كله (٣٤) في سبيل وحدة الجزيرة الدينية والقومية.

قال الأستاذ دروزة: ((الآية الأولى (٣٠) تشريعية، والأخرى تنطوي على حكمة التشريع. وقد يدخل في الآيات اليهود والنصارى معاً. غير أن الآيات قد نزلت بعد الفتح المكي على ما تلهمه ظروفها ولم يكن قد بقي يهود في الحجاز (ذو كيان ممتاز) كما أنها نزلت بين يدي غزوة تبوك التي هي من مشارف الشام والتي غالب سكان مناطقها نصارى... ومع أن كثيراً من المفسرين قد صرفوا الأوصاف الثلاثة في الآية (٣٠) إلى أن كفر الكتابيين برسالة النبي والدين الذي أتى به سبب مطلق، وقالوا إنه موجب التشريع؛ فإن هناك ما يحمل على التوقف في التسليم بذلك لأنه يقتضي أن يكون **المسلمون مأمورين بقتال كل كتابي إطلاقاً** إذا جحد رسالة النبي، مع أن الآية قد احتوت حرف التبعيض (مِن) الذي لا شك في أنه يعترض ذلك القول الإطلاقي. هذا إلى أن قولهم ذاك ينقض المبدأ القرآني في المحكم من أن الجهاد الإسلامي دفاعي، ورد لبغي وعدوان (ممتحنة ٨ بقرة ٢٩ ـ ٤١ و١٩٠ ـ ١٩٤ نساء ٩٠ ـ ٩١). وإلى مناقضته كذلك لما هو ثابت من النهي النبوي عن قتال غير المحاربين من الكتابيين كالرهبان والشيوخ والنساء والأطفال، إذ ينطوي فيه أن لا يكون عدم إسلام إنسان ما سبباً لقتاله[1])) .

---

(١) سيرة الرسول ٢ : ١٦٦ .

ووصية النبي الأخيرة على فراش الموت توضح معنى وصية القرآن الأخيرة، قال: ((لا يجتمعنَّ في جزيرة العرب دينان[1])) ! فقد شرع القرآن والحديث قتال النصارى العرب في جزيرتهم في سبيل وحدة الجزيرة الدينية والقومية. وهذا التشريع كما يتضح من الحديث المذكور لا ينطبق على أهل الكتاب خارج الجزيرة، ولا يقصد المسيحيين على الإطلاق.

وعلى كل حال كان تشريعاً انقلابياً في آخر ساعة! فقد نسخ القرآن بآية واحدة (توبة ٣٠) كل ما نزل في القرآن بمكة والمدينة، مدة ثلاث وعشرين سنة، بحق النصارى. ظل يشيد ((بالوحدة)) معهم، ثم ((بمودّتهم)) للمسلمين (مائدة ٨٥) إلى آخر يوم. ولمّا اقتضت مصلحة الدولة الإسلامية وحدة العرب الدينية والقومية، أمر بإخضاعهم لسلطان المسلمين حتى لا يبقى في جزيرة العرب دينان. فإسلام القرآن هو وحده دين العرب، وهو وحده دولتهم في جزيرتهم. وعلى هاتين الشريعة الأخيرة والوصية الأخيرة سار تاريخ الإسلام بعد النبي، كأن القرآن كله قبلهما لم يكن.

---

(١) السيرة لابن هشام ٣ : ٣٦٨ .

البحث الثالث

الرسالة القرآنية في المدينة قومية عربية

رأينا أن الهجرة كانت في القرآن والسيرة ثورة وانقلاباً.

وكان الانقلاب كاملاً شاملاً في الرسالة والرسول.

وهذا الانقلاب في الدعوة والداعي أَضفى عليهما دوراً فريداً في تاريخ الدعوات. لقد نقلنا تصوير حسين هيكل لهذا الدور المدني في قوله: « هنا يبدأ الدور السياسي ... وهذا الدور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي أو رسول ... فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يده، وأَن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والفاتح[1] » .

في هذا الدور المدني انقلب الرسول إلى زعيم وقائد، والرسالة من دين إلى دولة دينية.

في مكة اندمج محمد بالدعوة الكتابية اندماجاً كاملاً، في طريقتها المسيحية فالإسرائيلية، يدعو قومه إلى التوحيد الكتابي، كأساس لوحدتهم القومية والدينية. واتبع طريقة أَهل الكتاب في الدعوة « بالحكمة والموعظة الحسنة » ؛ ففشل كما فشلوا هم بين عرب الحجاز منذ مئات السنين.

فرجع إلى سليقته واستوحى قوميته فوجد أن العرب لا يتأتى لهم الوحدة، والسيطرة والملك، إلاّ عن طريق الدين؛ ولا يقوم فيهم دين إلاّ عن طريق القوة والسيطرة والملك[2] فعمل في المدينة على تأسيس إسلام التوحيد « أمة وسطاً » في دولة دينية.

وفي المدينة تبلورت رويداً رويداً أهداف النبي الأمي في رسالته. ونقدر أن نتبيّنها بعد تنفيذها. كان هدف النبي العربي عظيماً، قلّما بلغ شأوه عظيمٌ. وهذا الهدف مثلث النواحي، عمل لها جميعاً في آن واحد.

---

(١) حسين هيكل : حياة محمد ١٩٠ .
(٢) تلك نظرية ابن خلدون في مقدمته .

يهدف النبي **إلى تحرير العرب** الديني والسياسي، من الغزو الشرقي الفارسي، ((وثنائيتِه)) ، والغزو الغربي الرومي ((وثلاثيته)) .

وهذا التحرير لا يقوم إلا **بوحدتهم القومية والدينية.** فشنَّ على الشرك والمشركين حرباً قومية دينية لا هوادة فيها؛ فجمع طوعاً أو كرْهاً (المنافقين) أهل المدينة حول شخصه وحركته؛ وتحدّى بهم زعامة مكة القومية والدينية على الحجاز. فوقف الأعراب يشهدون الصراع الهائل، ليروا النتيجة التي يجب أن ينتهجوها.

وتجمّع الصراع في حملتين من مكة على المدينة، في معركة أُحُد، وفي معركة الخندق ففشل المشركون وانكسرت شوكتهم.

وتجمع الصراع أيضاً في حملتين من النبي وأهل المدينة على مكة، حملة سِلمية في عام الحديبية أدّت إلى معاهدة عدم اعتداء، وحملة عسكرية جارفة في فتح مكة الأكبر. بهذا الفتح سيطر النبي على الحجاز كله. وما عتّمت قبائل الأعراب أن جاءت وفودها تبايع النبي.

فأخذ النبي يعمل على **توطيد دولته الدينية** في الحجاز، وكان هذا هدفه الأبعد الذي يسعى إليه. ففرض الإسلام على عرب الحجاز ديناً ودولة؛ وبذلك حقق وحدتهم القومية والدينية.

وكان أهل الكتاب، أصدقاء الأمس، عثرة في سبيل الوحدة العربية والدولة الإسلامية. فكان لا بد للنبي من التفاهم معهم ودعوتهم إلى الاندماج في حركته.

بدأ اليهود، في العهد المدني الأول، يدعوهم إلى قبول الدعوة القرآنية، بما فيها من حركة دينية وسياسية. فرفضوا لأنهم كانوا يطمعون، بمساندة الفرس، بالسيطرة الدينية والسياسية والتجارية على الحجاز. وبما أن نبوة الرسول كانت أساس زعامته الجديدة، فقد انصب جدالهم، ومناوراتهم، ومؤامراتهم على تشكيك العرب لنبوته ورسالته. وتصف لنا سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة هذه الحرب العقائدية السياسية بين محمد واليهود. فاستمال محمد نصارى المدينة والحجاز إلى جانبه في حرب اليهود حتى ظفر بهم في مدى خمس سنوات، وأراح بالمدينة والحجاز منهم. وكانت حرب النبي مع اليهود حرب حياة أو موت، استعلاء أو فناء: فجاءت حرب تصفية لهم. وبذلك قطع الخيوط السحرية التي كان ينفذ بها النفوذ الفارسي إلى الحجاز.

وفي العهد المدني الثاني جعل يدعو النصارى العرب، أهل ((المودّة)) حتى اليوم، على الاندماج في حركته. وكانت دعوة محبّبة، للوحدة القومية والدينية التي تجمعهم، وللنضال المشترك الذي قاموا به ضدّ اليهود. وفي آخر الأمر تمنّع النصارى من إتباع النبي في حركته الدينية، فمنعهم من البلاد في وصيته الأخيرة من القرآن (توبة ٣٠ ـ ٣٥) والسيرة.

كانت حرب محمد على الشرك والمشركين العرب حرباً **دينية قومية** لإصلاحهم، وتحريرهم، وتوحيدهم في أمة واحدة، ودين واحد، ودولة واحدة.

ولكن حرب محمد مع أهل الكتاب، كانت **قومية لا غير.** فلم تكن دينية على الإطلاق، ويظهر ذلك من وصيته الأخيرة لأمته: فهو لم يأمر بقتالهم لإخضاعهم للإسلام بل لإخضاعهم لسلطان المسلمين، حتى لا يجتمع في جزيرة العرب دينان.

*

ولا يغشى بصرنا الجدَل الديني المتواصل مع اليهود أولاً، ثم مع النصارى ثانياً. لأن هذه الحرب الجدلية كانت لهدم الأساس من زعامة النبي: فلو قُدّر لهم أن يهدموا زعامته النبوية، لكانوا قضوا على زعامته السياسية. والقرآن المدني شاهد عدل، فهو مع ذكر الجدل المتواصل، ينقل إيمان الرسول المتواصل بوحدة الإسلام في التوراة والإنجيل والقرآن من سورة البقرة إلى سورة التوبة (١١١).

فهو في تأسيس الأمة الوسط والقبلة الوسط يقول: ((ليس البِر أن تُولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين)) (بقرة ١٧٧).

وفيما هو يحارب اليهود وينفيهم من المدينة يقول: ((يا أيها الذين آمَنوا، آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نَزَل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل: ومَن يكفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً)) (نساء ١٣٥).

وفي مؤتمر الأديان، عامَ الوفود، مع أهل نجران، يدعو النصارى إلى كلمة سواء، معلناً إيمانه بالكتاب وأنبيائه: ((قل آمنَّا بالله، وبما أُنزِل علينا، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم! لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)) (آل عمران ٨٣ ـ ٨٤). وإسلام القرآن هو إسلام الكتاب، وليس من دين عند الله سوى إسلام التوحيد في القرآن والكتاب، فالنص

يتابع: « لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون: ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » (آل عمران ٨٥).

ويشهد في سورة المائدة بإسلام رسل المسيح الحواريين: « وإذ أوحيتُ إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي. قالوا: آمنا، واشهدْ بأنَّنا مسلمون » (مائدة ١١٩) والقرآن يؤكد أن الله سمّى الموحدين « مسلمين » في التوراة والإنجيل والقرآن (حج ٨٧).

ولذلك فالقرآن في آخر أمره يقرّ أهل التوراة على شريعتهم، وأهل الإنجيل على شريعتهم (مائدة ٤٨ ـ ٥١). قال الزمخشري في آل عمران: « والمسلمون متبعو عيسى في أصل الإسلام، وإن اختلفت الشرائع » .

وحتى النهاية، يعد تصفية اليهود، ودعوة النصارى إلى كلمة سواء يعلن القرآن أنه تصديق الكتاب: « وأنزلنا إليك الكتاب مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » (مائدة ٥١).

وبعدما أمر بقتال أهل الكتاب وإخضاعهم للجزية وسلطان المسلمين، يختم القرآن بآية يجمع فيها على السواء بين الكتب الثلاثة: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن » (توبة ١١١).

إسلام واحد، وشرائع ثلاث في أُمم ثلاث؛ لذلك فالعرب المسلمون « أُمة وسط » منهم، يجب أن يخضع لها أهل الكتاب أو يرحلوا عن جزيرة العرب: « لا يجتمعنَّ في جزيرة العرب دينان! » .

فالحرب إذن بين الحركة المحمّدية وأهل الكتاب، حرب قومية، لا حرب دينية، كما كانت الحال مع المشركين.

*

وقد تطوّرت الدعوة القرآنية في المدينة إلى **ثلاث ظواهر.**

الظاهرة الأولى: في المدينة، مع بيعة العقبة، تطورت الدعوة القرآنية من دعوة دينية إلى **حركة سياسية** أيضاً. ومن مظاهرها تأسيس الإسلام « أمة وسطاً » ؛ وجعلُ الجهاد حياة هذه الأمة الجديدة؛ وفرضُ النبي سلطانه المطلق على هذه الدولة الناشئة.

وهذه الحركة الدينية السياسية غايتها تأسيس دولة دينية يسودها حكم إلهي لا مردّ له.

والظاهرة الثانية: تحويل الدعوة القرآنية من **كتابية إلى قومية.** كان في مكة يدعو إلى التوحيد الكتابي؛ وفي المدينة أسس ((الأمة الوسط)) على الحنيفية الكتابية. لم يرجع إلى حنيفيته قبل البعثة، بل دمج تلك الحنيفية بالتوحيد الكتابي ليصير هذا التوحيد الكتابي قومياً عربياً، يصلح للدولة الدينية العربية.

الظاهرة الثالثة: كانت الرسالة القرآنية في مكة حجازية، فانتهت في المدينة **رسالة عربية.** وبعد أن فرض الدعوة القرآنية على الحجاز بفتح مكة ومبايعة الوفود الحجازية له، أخذ يفرضها على عرب الشمال حيث كانت النصرانية سائدة؛ وعلى عرب اليمن والجنوب حيث كانت النصرانية في صراع مع اليهودية على العرب. فزحزح الإسلام الدينان عن العرب وقام مقامهما.

*

وهنا تبدو المشكلة الشائكة: هل اقتصرت الدعوة القرآنية على العرب أم كانت بهم موجهة إلى العالم أجمع؟ **هل كانت رسالة محمد عربية أم عالمية؟**

إن المبادئ التي وضعها القرآن المكي تجعل الرسالة القرآنية عربية وتقتصرها على العرب، **لأن كل رسالة سماوية هي في نظر القرآن قومية:**

المبدأ العام عنده: ((لكل أمة رسول)) (يونس ٤٧)، ((ولكل قوم هاد)) (رعد ٧)، لذلك ((بعث الله في كل أمة رسولاً)) (نحل ٣٦) وبعث محمداً رسولاً للعرب: ((ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم، وجئنا بك شهيداً **على هؤلاء** شهيداً؟)) (نساء ٤٠). ففي المدينة يبقى محمد رسولاً من العرب وإلى العرب: ((لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من **أنفسهم يتلو عليهم** آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)) (آل عمران ١٦٤).

والمبدأ الثاني في مكة أن **قومية الرسول تحدّد قومية رسالته.** هذا المبدأ تطبيق للمبدأ العام. والقرآن في المدينة يطبقه على الرسول بوصفه ((النبي الأمي)) أي العربي: ((هو الذي بعث في الأميين رسولاً **منهم**)) (الجمعة ١)؛ ففي منتصف العهد المدني يصرّح القرآن بأن محمداً رسول من العرب وإلى العرب. وأهل المدينة الذين يخاطبهم النبي صنفان: أهل الكتاب والأميين أي العرب؛ ويوجه الدعوة إليهم جميعاً: ((وقل للذين أوتوا الكتاب (اليهود والنصارى) والأميين (مشركي العرب) أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا))

(الجلالان على آل عمران ٢٠). « فالنبي الأمّي » هو للأميين العرب، وإن دعا الكتابيين الذين بين ظهرانيهم: « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ... فآمنوا بالله ورسوله « النبي الأمّي » الذي يؤمن بالله وكلمته » (أعراف ١٥٨)، فما دعوته للكتابيين العرب إلا لتمام الوحدة القومية والدينية في العرب، لأنه أولاً وأخيراً رسول من العرب وإلى العرب (آل عمران ١٦٤ الجمعة١).

والمبدأ الثالث في مكة أن **لغة الرسول تحدد مدى رسالته.** وبما أن النبي الأمي رسول للعرب، فقد جاء « ذكره وذكرهم » بالعربية. تلك فلسفة القرآن في عربية القرآن: نزل الكتاب على طائفتين من قبلهم، وغفلوا عن دراستهما لأنهما بلغة أجنبية، فنزل الكتاب إليهم « قرآناً عربياً لعلهم يعقلوه » (أنعام ١٥٥ ـ ١٥٧). وهذا المبدأ تطبيق للقاعدة العامة « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » ، لذلك « فهو رسول من الأميين العرب » وإليهم (الجمعة ١).

والمبدأ الرابع في مكة أن **لغة الوحي تحصر حدود رسالته.** ففي اثني عشر موضعاً يصرّح بأنه نزل عربيّاً لكي يفهموه: « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أمّ القرى وما حولها » (شورى ٧): لقد نزل القرآن عربياً للعرب: « وانه لذكر لك ولقومك » (زخرف ٤٤). لذلك كانت الدعوة القرآنية في مكة مكية، وفي أقصى مداها حجازية؛ وتظل الدعوة القرآنية في المدينة إلى آخر عهدها حجازية، وفي أقصى مداها عربية.

*

تلك المبادئ المكية التي توجّه الرسالة القرآنية تظل سارية المفعول في المدينة وليس في القرآن المدني ما ينسخها أو يعدّلها.

لا بل تبرز في المدينة **أربعة مبادئ أخرى** تجعل الرسالة القرآنية عربية إسماعيلية.

المبدأ الأول هو أن الدعوة القرآنية في المدينة كانت إلى « **ملة إبراهيم** » **بإسماعيل،** جد العرب المستعربة: « وقالوا: كونوا هوداً، أو نصارى، تهتدوا! ـ بل ملة إبراهيم حنيفاً، وما كان من المشركين » (بقرة ١٣٥). وملة إبراهيم وصلت إلى النبي بإسماعيل: « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ... وابعث **فيهم** رسولاً **منهم** » (بقرة ١٢٨). فكان النبي والمسلمون، ولْد إسماعيل، بكر إبراهيم، أولى الناس بإبراهيم: « ما كان إبراهيم يهودياً، ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين: إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبي، والذين آمنوا، والله وليّ المؤمنين » (آل عمران ٦٧ ـ ٦٨). يجعل إسلام القرآن على ملة إبراهيم بإسماعيل عربيّاً إسماعيليّاً للعرب الإسماعيليين.

المبدأ الثاني هو **الحنيفية الكتابية**، عقيدة ملة إبراهيم. تقوم هذه الحنيفية الكتابية تجاه الموسوية المسيحية في جزيرة العرب. وتلك الحنيفية التي يدمجها القرآن بالتوحيد الكتابي وسننه (نساء ٢٥) تظل عربية للعرب. فهي ملة إبراهيم (بقرة ١٣٥) وهي إسلام إبراهيم والنبي والمسلمين (آل عمران ٦٧ ـ ٦٨) وقد اهتدى النبي إليها (أنعام ١٦١ يونس ١١٥ نحل ١٢٣) وهدى جماعته ((حنفاء لله غير مشركين)) (حج ٣٠). والحنيفية الكتابية هي التي وصّى بها إبراهيم إسماعيل، فتوارثها ولـده من بعده حتى جاء النبي يجدّدها (بقرة ١٣٠ ـ ١٤٠). فالحنيفية الكتابية الحقة هي في ولْد إسماعيل قبل غيرهم، ولهم دون سواهم من مشركين وكتابيين.

المبدأ الثالث هو تأسيس الإسلام، ملة إبراهيم على الحنيفية الكتابية ((**أمةً وسطاً**)) بين النصارى واليهود (بقرة ١٤٣). وفي تأسيس إسلام القرآن ((أمة وسطاً)) جعله ديناً عربيّاً قومية تدل شعائره على أنه للعرب!

المبدأ الرابع **شعائر** ((الأمة الوسط)) ، ملة إبراهيم، تجعل الإسلام في القرآن المدني ديناً قومياً عربياً إسماعيلياً: كعبته كعبة إبراهيم وإسماعيل: ((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل (بقرة ١٢٧)؛ قبلته قبلة إبراهيم وإسماعيل إلى البيت العتيق منسك إسماعيل وذريته (حج ٣٤)؛ وحجّه إبراهيم وإسماعيل (حج ٢٩ بقرة ١٢٥). وهذه الشعائر في إسلام القرآن توارثها بنو إسماعيل عن جدهم.

ويستخلص القرآن من هذه المبادئ المدنية أن إسلام القرآن في المدينة دينُ ذرية إبراهيم وإسماعيل؛ وهذه هي صلاة ونبؤة أجداد العرب: ((وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت، وإسماعيل: ربنا تقبل منّا، إنك أنت السميع العليم! ربنا واجعلنا مسلمين لك، **ومن ذريتنا أمة مسلمة لك**، وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم؛ ربنا وابعث **فيهم** رسولاً **منهم** يتلو **عليهم** آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم)) (بقرة ١٢٧ ـ ١٢٩). فرسالة القرآن عربية إسماعيلية وإسلام القرآن لذرية إسماعيل، والرسول من وُلد إسماعيل، وإليهم. والقرآن المدني يشهد بتحقيق صلاة إبراهيم وإسماعيل في إرسال رسول من العرب وإليهم: ((كما أرسلنا **فيكم** رسولاً **منكم** يتلو **عليكم** آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)) (بقرة ١٥١). لا أوضح ولا أصرح: فالآيتان المدنيتان (بقرة ١٢٩ و١٥١) ترفعان كل شك وريبة، وتحصران أن رسالة محمد في العرب: هي منهم وإليهم، فهي قومية عربية.

وهكذا كل مبادئ القرآن المكي والمدني تحصر رسالة الإسلام في العرب.

*

ومظهر الدعوة القرآنية الأكبر في المدينة، الجهاد، يُظهر أن جهاد الإسلام كان لفرض الإسلام على العرب المشركين دون سواهم.

فالجهاد في العهد الأول كان لإخضاع قريش: « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم... واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ... ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ... وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (بقرة ١٩٠ ـ ١٩٣). فالقرآن المدني يشرع الجهاد ويفرضه ويحرّض عليه ويقوده لإخضاع مشركي مكة، وبهم جميع مشركي الحجاز: فرسالته إذن تقتصر عليهم لأن حياته الجهادية تنحصر فيهم.

والجهاد في آخر العهد المدني يشمل جميع الحجاز، ويتخطّاه إلى اليمن وإلى الشمال لدى العرب النصارى. فيأمر في وصية القرآن الأخيرة بإخضاع النصارى العرب إلى سلطان المسلمين لكي يندمجوا مع الدولة الإسلامية العربية (توبة ٣٠).

فهدف الجهاد كله مع المشركين والكتابيين كان ليظهر الإسلام على كل دين في جزيرة العرب: « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون » (توبة ٣٤). وهذا الهدف المخصوص المحصور يظهر من شريعة الجهاد الأخيرة: « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » (توبة ٣٨). ومن هم المشركون الذين كانوا يقاتلون المسلمين؟ ـ هم مشركو العرب دون سواهم من الأرض: كذلك فالدعوة القرآنية موجهة إليهم دون سواهم، فهي رسالة قومية عربية.

وتتضح كل هذه الأهداف والملابسات في وصية محمد الأخيرة على فراش الموت: فقبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ترك لامته من بعده هذه الوصية: « **لا يجتمعنّ في جزيرة العرب دينان**[1] » . ممَّا يوحي بأن هدفه الأبعد جزيرة العرب، وتحريرها القومي والديني، وتوحيدها الديني والقومي. وتلك الوصية تفسّر معنى أمر القرآن بقتال الكتابيين، فهو قتال للكتابيين العرب، لا لسواهم من الكتابيين؛ وقتالهم لا ليدينوا بالإسلام بل ليخضعوا لسلطانه حتى لا يسود العرب دين غير إسلام القرآن.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٣٦٨ وقد نفذ عمر الوصية في يهود خيبر فأجلاهم من الجزيرة (سيرة ٣ : ٣٧١) .

وتلك الأقوال (توبة ٣٠ و٣٨) مع وصيته على فراش الموت توضح أن الغزوات الأخيرة إلى مشارف الشام لم تقصد الروم أنفسهم، بل العرب الموالين لهم لتحريرهم ودمجهم بالدولة العربية.

*

وهناك بعض **آيات متشابهات** استنتجوا منها أن رسالة الإسلام من أصلها **عالمية** كما أظهر ذلك واقع الفتوحات العربية وانتشار الإسلام في العالم حالاً بعد موت النبي.

ولكن بين المبدأ والواقع بون شاسع.

فالفتوحات الإسلامية لم تكن جديدة على العرب، بل هي حلقة من سلسلة الهجرات العربية إلى الهلال الخصيب التي ترتقي إلى آلاف السنين متواترة. ففي الألف الأخيرة قبل الإسلام هاجرت قبائل عديدة إلى بادية الشام فصارت ديار ربيعة، وديار بكر، وأسست بعض القبائل دويلات مستقلة في تدمر (الزبّاء) والبلقاء (الأنباط) والحيرة (آل لخم) وبصرى (آل غسان). ولكن الهجرة العربية الكبرى إلى الهلال الخصيب كانت حملة الخلفاء الراشدين إلى الهلال الخصيب كمخرج لحروب الردة وانقسام العرب؛ وإغرائهم بالفتوحات، لصرفهم عن الاقتتال إلى الغزو والفتح؛ ولا يُستبعد بعد النصر السريع أن تطورت إلى الدعوة العسكرية والسلمية للإسلام.

وقد أوضحت لنا المبادئ العامة التي سيّرت الدعوة القرآنية في مكة والمدينة إن رسالة ((النبي الأمي)) أي العربي كانت للعرب، فكل رسالة في القرآن، حتى رسالة محمد، هي قومية. على ضوء هذه المبادئ العامة الشاملة يجب أن نفهم مثل هذه الآيات المتشابهات:

((قل أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)) (أعراف ١٨٥). ((إن هو إلا ذكرى للعالمين)) (أنعام ٩٤) ((وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)) (أنعام ١٩). ((إن هو إلا ذكر للعالمين)) (يوسف ١٠٤)، ((وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)) (أنبياء ١٠٧). ((تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً)) (الفرقان ١). ((وما أرسلناك إلا كافة للناس)) (سبأ ٢٨). ((لينذر مَن كان حيّاً)) (يس ٧٠): ((إن هو إلا ذكر للعالمين)) (ص ٨٧). ((وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم)) (نحل ٤٤). ((ما هو إلا ذكر للعالمين)) (القلم ٥٢). ((إن هو إلا ذكر للعالمين)) (تكوير ٢٧).

وقد رأينا أيضاً (صفحة ٧١٤ ـ ٧١٦) أن السور التي وردت فيها أمثال تلك الآيات

المتشابهات جاء فيها، أو قبلها وبعدها تصاريح واضحة تحصر معناها في القوم الذين يخاطبهم النبي مباشرة. مثال ذلك ما ورد في الأنعام (١٩ و٩٤) وفي سبأ (٢٨) فقد ورد قبلها في الأنعام (٩٢) وبعدها في الشورى (٧) أن رسالة محمد تنحصر في « أم القرى وما حولها » . وقوله مراراً « إن هو إلا ذكر للعالمين » عام قصد به الخاص: ففي التكوير جاء في الآية التي تلي: « لمن شاء منكم أن يستقيم » ؛ وفي سورة القلم جاء قبلها « أم لكم كتاب فيه تدرسون؛ أم عندهم الغيب فهم يكتبون » (٣٧ و٤٢). وفي سورة يوسف جاء في الآية قبلها « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » (١٠٣) **مما يخصّ « العالمين » بالمخاطبين**. وفي الأنعام يأمره أن يقتدي بهدى أهل الكتاب (أنعام ٩٠) ليكون قرآنه « ذكرى للعالمين » فهو منطقيّاً لا يشملهم بل يقصد المخاطبين به. ولا تأتي كلمة « العالمين » على إطلاقها إلا مضافة إلى الله « رب العالمين » . وفي الطبري[1] « قال أبو جعفر: العالمون جمع عالم، والعالم جمع لا واحد له من لفظه. والعالم اسم لأصناف الأمم، **وكل** صنف منها عالم. وأهل كل قرن من كل صنف منها عالم ذلك القرن وذلك الزمان. فالإنس عالم وكل أهل زمان منهم عالم ذلك الزمان. وكذلك سائر أجناس الخلق، كل جنس منها عالم زمانه. وهذا القول هو معنى قول عامة المفسرين » . ويعطي على ذلك مثلاً في وصف اليهود « واني فضلتكم على العالمين » (بقرة ٤٧) قال: « **أخرج جلّ ذكره قوله مخرَج العموم وهو يريد به خصوصاً.** لأن المعنى أني فضلتكم على عالم مَن كنتم بين ظهريه وفي زمانه أي فضلهم على عالم ذلك الزمان » .

فتلك الآيات المتشابهات تخضع في مدلولها لأساليب البيان العربي؛ ومن هذه الأساليب تخريج الخاص مخرج العام. قال أيضاً الطبري في آل عمران « فنادته الملائكة » : « قيل جبريل. فإن قال قائل كيف جاز أن يقال على هذا التأويل « الملائكة » وهي جمع لا واحد؟ ـ قيل ذلك جائز في كلام العرب بأن **تخبر عن الواحد بمذهب الجمع.** كما يقال في الكلام « خرج فلان على بغال البرد » وإنما ركب بغلاً واحداً. « وركب السفن » وإنما ركب سفينة واحدة. وكما يقال « ممن سمعتَ هذا الخبر » ؟ فيقال: « من الناس » وإنما سمعة من رجل واحد. وقد قيل إن منه قوله « الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم » (آل عمران ١٧٣) والقائل كان فيما ذكر واحداً. وقوله « إذا مسّ الناس ضرّ » (روم ٣٣) والناس بمعنى واحد منهم، **وذلك جائز عندهم**[2] » . وقال الجلالان على آية

---

(١) في التفسير ، تحقيق الأخوين شاكر (١ : ١٤٣) .
(٢) انظر أيضاً (معاني القرآن) للفرّاء ٢١٠ .

آل عمران: ((قال لهم الناس، أي نعيم بن مسعود الأشجعي؛ إن الناس قد جمعوا أي أبا سفيان وأصحابه)) . في آية الروم: ((غلبت الروم في أدنى الأرض)) فكلمة الأرض على حرفها تعني الدنيا كلها، ولكن المقصود بها كما يقول الجلالان ((اقرب أرض الروم إلى فارس بالجزيرة)) . وفي التركيب اللغوي قيد أيضاً؛ جاء في الإتقان (٢ : ٨٤): ((نقلتُ من خط شيخ الإسلام ابن حجر أن التورية في القرآن قوله (وما أرسلناك، إلا كافة للناس) فإن (كافة) بمعنى (مانع) أي تكفهم عن الكفر والمعصية، والهاء للمبالغة، وهذا معنى بعيد. والمعنى القريب المتبادر أن المراد (جامعة) بمعنى (جميعاً)؛ لكن منع من حمله على ذلك أن التأكيد يتراخى عن المؤكد: فكما لا تقول (رأيت جميعاً الناس) لا تقول: رأيت كافة الناس[1])) .

وهكذا فأساليب اللغة والبيان، ونصّ الآيات والسور مع ما قبلها وما بعدها، والمبادئ العامة القرآنية التي تحدّد بأن كل رسالة هي قومية، حتى رسالة محمد، كل ذلك يفسّر ما تشابه من معنى بعض الآيات.

فالرسالة المحمدية، والدعوة القرآنية كانت في مكة **حجازية** محصورة ((بأمّ القرى وما حولها)) (شورى ٧ أنعام ٩٢)؛ وجاءَت في المدينة **عربية** مقصورة على ذرية إسماعيل: ((ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)) (بقرة ١٢٨).

فلا يظهر من القرآن أن رسالته كانت عالمية، بل تدل كل القرائن على أن الرسالة **الإسلامية رسالة قومية عربية.** تصاريحه العامة بمكة توحي بذلك: ((لكل أمة رسول)) (يونس ٤٧)، ((ولكل قوم هاد)) (رعد ٧) ومحمد شاهد في الدنيا والآخرة على ((هؤلاء)) العرب (نحل ٨٩ نساء ٤٠). وتصاريحه المدنية لا تدع مجالاً للشك: في مطلع الدعوة بالمدينة يعلن: ((كما أرسلنا **فيكم** رسولاً **منكم** يتلو **عليكم** آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون)) (بقرة ١٥١)؛ وفي منتصف العهد يصرّح: ((هو الذي بعث في الأميين رسولاً **منهم** يتلو **عليهم** آياته)) (الجمعة ١)؛ ويختم القرآن بآخر آية من آخر سورة بالقول الفصل لكل هذا الفصل: ((لقد جاءَكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم: فإن تولوا فقل حسبي الله)) توبة (١١٩ ـ ١٢٠) فمحمد رسول من العرب وإلى العرب. وهذا لا يمنع أن ينفتح الإسلام، في الفتوحات العربية، بغير العرب.

---

(١) يدعم تفسير القرآن قوله في السيرة : ((أيها الناس إن الله قد بعثني رحمة وكافةً)) أي كافاً لهم عن الشرك ، والتاء للمبالغة .

البحث الرابع

« النبي الأُمّي » و « الرسول البشر » في المدينة

أعطى القرآن محمداً في مكة صفة « نذير وبشير » . وفي المدينة يصير « النبي » و« الرسول » ومع الأيام تمسي الصفتان لقبين له: « يا أيها النبي » (تحريم ١)، « أطيعوا الله والرسول » (آل عمران ٣٢).

يتطور الإسلام في المدينة من دين إلى دولة، فيصير دولة في دين، وديناً في دولة هي الدولة الدينية الإسلامية التي يفرضها محمد على الحجاز والجزيرة « بالحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس » (حديد ٢٥). ورويداً رويداً يفرض محمد على جماعته كالسيد الفرد والزعيم الأوحد دون منازع ولا منازعة. فتمسي طاعته من طاعة الله. وإن أشرك في حكمه بعض زعماء الصحابة، فكان ذلك منه براعة سياسية عليا: « أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم » (نساء ٥٨). فهو يأمر بأن يردّوا إليه كل نزاع: « فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » (نساء ٥٨). محمد، في دولة الإسلام، هو الحاكم بأمر الله، وحكمه هو حكم الله. لذلك فطاعته عاقبتها الجنة: « من يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (نساء ٦٨).

*

إنما هذه العظمة في الرسالة والحكم لا ترفعه فوق البشرية: « قل سبحان ربّي، هل كنت إلاّ بشراً رسولاً!؟ » (إسراء ٩٣).

قال الأستاذ السمَّان[1]: « محمد ص. كان بشراً ككل الرسل: وُلِد كما يولد البشر، وعاش ومات كما يعيش البشر ويموتون. ولم تكن الرسالة التي كُلّفها لتخرجه عن حدود

---

(١) محمد عبد الله السمان : محمد الرسول البشر ص ٢٢ ـ ٢٣ .

البشرية وطبائعها وسننها ... له إمكانيات البشر، وليس له فوقها ذرة واحدة ((قلْ لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً، إلاّ ما شاء الله؛ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنّي السوء)) ؛ ((قل لا أقول لكم: عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب! ولا أقول لكم: إني ملك؛ إِنْ اتّبع إِلاّ ما يوحى إليّ[١])) .

إنه رسول بشر. وهذه ((البشرية)) تظهر في حياته العامة كما تظهر في حياته الخاصة. كان يدعو على الأسود بن عبد المطّلب بن أسد: ((اللهمّ اعمِ بصره واثكلْه ولده)) . وفي غزوة بئر معونة قُتل سبعون من القراء الشباب، فظل بضع عشرَ ليلة يبدأ صلاة الصبح: ((اللهمّ اشدد وطأتك على مضر ...)) . وبعد هزيمة أُحُد ومقتل عمه حمزة ثار وتوعّد بالمُثلة: ((لأمثّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم[٢]!)) وهذه الثورة تدوم ستة أعوام لا تهدأ على وحشي، قاتل حمزة، حتى بعد إسلامه في فتح مكة. وعارض عمر بن الخطاب معاهدة الحديبية فصاح به الرسول: ((ثكلتك أمك يا عمر!)) . وفي مرضه الأخير أمر الفتى أسامة بن زيد في آخر بعثة أمر بها لغزو شمال الحجاز، فتذمّروا أكابر الصحابة: ((أمّر غلاماً حدثاً على جِلّة المهاجرين والأنصار)) ! ولم يكد يبلغه الخبر حتى نسي مرضه، وعصب رأسه، وصعد المنبر يهتف بالمصلين: ((فما مقالة بلغتني عنكم في تأميري أسامة[٣]؟ ..)) وفي مرضه الأخير أيضاً أُغمي عليه فأمر عمُّه العباس أن يلدّه أي يجعلوا دواءً في شق فمه. ((فلما أفاق قال: مَن صنع هذا بي؟ قالوا: يا رسول الله. عمك. فقال: لا يبقَ أحد في البيت إلا لُدَّ، إلا عمي. فلقد لُدّت ميمونة وإنها لصائمة لقسم رسول الله ص[٤])) . وفي السيرة أيضاً: لمّا استعزَّ برسول الله ص. قال: مُروا أبا بكر أن يصلّي بالناس. فمانعت ابنته عائشة، فقال: إنكن صواحب يوسف! فمروه. فليصلّ بالناس[٥]! وجاء في الصحيح: ((اللهم إنما أنا بشر، أغضب وآسف، كما يغضب البشر!)) .

والقرآن المدني مشحون بشؤون النبي الخاصة والبيتية التي تظهر ((بشرية)) الرسول في أجلى مظاهرها. قال الزمخشري: إن أشد صفحة في القرآن من التهديد والوعيد كانت في

---

(١) النص الأول : أعراف ١٨٨ والثاني : أنعام ٥٠ .
(٢) السيرة لابن هشام ٣ : ١٠١ .
(٣) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٠ .
(٤) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠١ .
(٥) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٣ .

سورة (النور) لتبرئة عائشة من حديث الإفك[١]. وفي حديث مارية القبطية سريته التي خلا بها في بيت حفصة وعلى فراشها، خلافاً للعرف والعادة، نزلت التحلة من الإيمان، والتهديد للخائضين في الحديث من نسائه ومن المسلمين: « يا أيها الذين آمنوا، قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودُها الناس والحجارة » (تحريم ٦). وفي زواج النبي من زينب قامت ثورة بين نسائه لم تهدأ بعد شهر إلا بتهديدهن جميعاً بالطلاق. وقد شرع القرآن للزواج حدوداً على المسلمين، فأباحها له القرآن بهذه المناسبة، نظراً لسمو مقام النبوة في المخلوقين: رفع القرآن عن النبي حدّ العدد المفروض (أحزاب ٥٠) ورفع عنه حدّ العدل بين نسائه، وحدّ ارجاع المعزولة، وحد الطلاق (٥١)، وأباح له الزواج بدون ولي ولا شهود ولا مهر: « قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم، **لكيلا يكون عليك حرج**[٢] » ونقلت (أسباب النزول[٣]) تعليق عائشة: « أرى ربك يُسارع لك في هواك » !

ولم يتورّعوا في الحديث عن نقل مثل هذه الأشياء. قال القاضي عياض في (الشفاء) على ميزة النبي في قدرته الخارقة على الجماع: « وقد روينا عن أنس أنه، صلوات الله عليه، كان يدور على نسائه في **الساعة** من الليل والنهار، وهن إحدى عشرة! وقال أنس: كنا نتحدّث أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً! خرّجه النسائي. وروي نحو عن أبي رافع وعن طاوس: قوة أربعين رجلاً في الجماع. وفي حديث أنس عنه عليه السلام: فضّلتُ على الناس بأربع: « السخاء والشجاعة وكثرة الجماع والبطش » . وجاء في الصحيح: « أحب شيء إلي من دينكم العطور والنساء، وجعلتُ قرة عيني في الصلاة » .

*

تلك ناحية من شخصية الرسول الفذة. وناحية أخرى تظهر لنا في شخصيته العسكرية التي جعلت العرب في المدينة يرون أن « رسالة النبي أقرب إلى الملك منها إلى النبوة » . نرى أصداء ذلك في القرآن والسيرة.

فالقرآن المدني أكثره تحريض على الجهاد، ووصف لمعارك الحرب، في سبيل تأسيس دولة

---

(١) وقد نقلنا قوله في فذلكة سورة النور .
(٢) راجع الجلالين في تفسير الآيات المذكورة .
(٣) راجع أسباب النزول للسيوطي على الآيات .

الإسلام، أكثر مما هو دعوة لدين الإسلام كما هو الحال في القرآن المكي. يقضي النبي رسالته وحياته في الحروب وتهيئتها، والاستفادة منها؛ وفي فرض سيطرته ودولته؛ حتى صار الناس يرون فيه ملكاً أكثر منه نبيّاً.

منذ الهجرة ((بايعهم رسول الله في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود[١])) .

وقد رأى الأنصار والمعارضون بالمدينة منذ مطلع العهد، في محمد، ملكاً أكثر منه نبيّاً. فزعيم المعارضة، عبد الله بن أبي العوفي: ((رأى أن محمداً قد استلبه الملك[٢])) . وشاع بين الناس رأي ابن أبي، فقال سعد أحد سادة المدينة للرسول: ((يا رسول الله ارفقْ به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّا لَنَنظم له الخرز لنتوجّه. فوالله إنه ليرى أن قد سلبَته ملكاً[٣]!)) .

وتلك كانت نظرة اليهود إلى محمد: لمّا أسلم عبد الله بن سلام قال له اليهود: ((ما تكون النبوّة في العرب؛ ولكن صاحبك ملك[٤])) . وظل هذا رأي اليهود حتى النهاية؛ ففي غزوة خيبر رأت صفية بنت حيي بن أخطب في منامها أن قمراً وقع في حجرها؛ فعرضت رؤياها على زوجها فقال: ما هذا إلا أنك تمنّين **ملك الحجاز محمداً!** فلطم وجهها لطمة خضر عينيها منها[٥])) .

وكان هذا أيضاً رأي زعماء المشركين. تروي السيرة في إسلام زعيم مكة أبي سفيان ابن حرب، لمّا أخذه العباس إلى النبي ليسلم ويفاوضه على فتح مكة بدون حرب: أمره بالشهادة لله فتشهد؛ وأمره بالشهادة للنبي فأجاب أبو سفيان: ((أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً! فقال له العباس: ويحك، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك! قال: فشهد شهادة الحق فأسلم ... ثم قال أبو سفيان للعباس: والله يا أبا الفضل: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً! قال: يا أبا سفيان إنها النبوة! قال: فنعم إذن[٦])).

---

(١) السيرة لابن هشام ٢ : ٩٧.
(٢) السيرة لابن هشام ٢ : ٢٣٤ .
(٣) السيرة لابن هشام ٢ : ٢٣٨ .
(٤) السيرة لابن هشام ٢ : ٢٤٠ .
(٥) السيرة لابن هشام ٣ : ٣٥٠ .
(٦) السيرة لابن هشام ٤ : ٤٦ ـ ٤٧ .

ولما دخل محمد مكة فاتحاً هرب من وجهه صفوان بن أمية سيد قومه، فاستأمنه عمير ابن وهب لدى النبي، وخرج في طلبه وقال له: هذا أمان من رسول الله ص. قال: ويحك أغربْ عني فلا تكلمني. قال: أي صفوان فداك أبي وأمي! أفضل الناس، وأبرّ الناس، وأحلم الناس، وخير الناس! ابن عمك عزه عزّك، وشرفه شرفك، **وملكه ملكك!** » فرجع معه[1].

وفي معركة حنين، « لما انهزم الناس، رأى من كان مع رسول الله ص من جفاة مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغْن. فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر؛ وصرخ جبلة بن الحنبل: ألا بطل السحر اليوم! فقال له صفوان بن أميّة: اسكتْ فضَّ الله فاك، فوالله لأن يربُّني رجل من قريش أحب إلي من أن يربَّني رجل من هوازن[2] » .

ونرى في القرآن أن النبي اتخذ في سيرته مظاهر الأمارة، مع ما كان عليه من بساطة في العيش ومن خفض جناح للمسلمين. فقد أخذ النبي يقتفي آثار الأنبياء والملوك من بني إسرائيل حتى حسده الناس وعيره اليهود، فنزل « أم يحسدون الناس (أي النبي) على ما آتاهم الله من فضله! فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة، وآتيناهم ملكاً عظيماً » (نساء ٥٣). قال الجلالان: « فضل الله: النبوة وكثرة النساء » . وكانت كثرة النساء من مظاهر النبوة والأمارة. وقد أباح له القرآن فوق ما فرض على المسلمين (أحزاب ٥٠) لئلا يكون على النبي حرج فيما فرض الله له: سنة الله في الذين خلوا من قبل (أحزاب ٣٨). قال الجلالان: « سنة الله في الذين خلوا من الأنبياء أن لا حرج عليهم في ذلك، توسعة لهم في النكاح » .

ومن مظاهر السلطان كثرة الأسرى والغنائم فقد كان محمد يعلم أنه: « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . فأباحها الله له من دون الأنبياء: « فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً » (أنفال ٦٧ ـ ٦٩).

لما سلك في مكة مسلك عيسى في النبوة كان يدعو إلى الزهد، ولكن لما أخذ يسلك في المدينة مسلك الملوك الأنبياء من آل إبراهيم وداود شرع لنفسه والمؤمنين: « اليوم أحلّ لكم الطيبات » (مائدة ٦).

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٦٠.
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٨٦ .

واقتضت مظاهر النبوة والسلطان أن يخاطبه الناس كما يخاطبون الملوك: ((يا أيها الذين آمنوا لا تُقدّموا[1] بين يدي رسول الله واتقوا الله! لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض؛ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى! واعلموا أن فيكم رسول الله)) (حجرات ١ ـ ٧).

ومظاهر النبوة والملك تقضي عليهم أن يحترموا نساءَه كأمهاتهم (أحزاب ٦) ((ولا أن ينكحوا أزواجه من بعده أبداً)) (٥٣) كما كانت عادة الملوك؛ ولا أن يستأنسوا لحديث معهن، ((وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب)) (٥٣) بذلك تقضي طهارة القلب وضرورة الملك.

وبلغت الحرمة التي يطلبها النبي لذاته أَن أمرهم بتقديم ((صدقة)) قبل مقابلته (مجادلة ١٣). فاستثقل الجماعة ذلك فنسخه للحال: ((أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة؟)) (١٤).

وكل عمل خير أو شر مع الرسول فهو عمل مع الله ذاته: ((إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً)) (أحزاب ٥٧).

وبلغت العظمة منتهاها من كل ناحية بقوله: ((إن الله وملائكته يصلون على النبي؛ يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)) (أحزاب ٥٦): لقد جعله القرآن موضوع تعظيم الملائكة والناس أجمعين. فالله نفسه ((يصلّي)) على النبي.

*

وقد تقتضي السياسة ما لا يقتضيه الدين والنبوة والقداسة. وكان محمد في المدينة ((الرسول السياسي والمجاهد والفاتح[2])) .

لذلك كانت حياة الرسول في المدينة سلسلة متواصلة من البعوث والسرايا والغزوات والحملات العسكرية: ((وكانت بعوثه ص. وسراياه ثمانياً وثلاثين، من بين بعث وسرية. وكان جميع ما غزا رسول الله ص بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، قاتل منها في تسع غزوات[3])).

---

(١) الجلالان : ((لا تتقدموا بقول أو فعل بغير إذن . نزلت في مجادلة أبي بكر وعمر عند النبي ص ، ونزل فيمن رفع صوته عند النبي ص)) . (الحجرات ١).
(٢) حسين هيكل : حياة محمد ١٩٠ .
(٣) سيرة ابن هشام ٤ : ٢٥٦ ـ ٢٥٧ .

وبما أن الحرب خدعة والسياسة مكر فكان لا بدّ للنبي من سلوك طريق الاغتيالات التي تنقل السيرة لنا منها الشيء الكثير، وذلك لتوطيد دولة الإسلام وسلطان النبي. وتلك الاغتيالات كان لها أسباب سياسية تبرّرها، إن لم يشفع لها الدين والقداسة؛ جاء في الحديث: ((اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله)) ! من تلك الاغتيالات والقتل:

غزوة عبد الله بن رواحة لقتل اليُسَير بن رِزام الذي كان بخيبر يجمع غطفان لغزو رسول الله[١].

وغزوة عبد الله بن عتيك خيبر لاغتيال أبي رافع بن أبي الحُقيق[٢].

وبَعث رسول الله عبد الله بن أُنَيس لقتل خالد بن سفيان بن نُبَيح الهذلي، الذي كان بنخلة أو بعرنة يجمع لرسول الله الناس ليغزوه، فقتله[٣].

وبَعْث عبد الله بن أَبي حدر لقتل رفاعة بن قيس الجشمي الذي نزل بالغابة يجمع قيساً على حرب رسول الله، ((قال: نفحته بسهمي فاحتززتُ رأسه وجئت برأسه أحمله معي[٤])) .

وبَعْثُ عمرو بن أمية الضمري لاغتيال أبي سفيان بن حرب في مكة، بخُبيب بن عدي وأصحابه، فعرفه القوم فنجا، في طريقه قتل قرشياً لحق بهم، ثم بكريتَّاً في غار[٥].

((ونجم نفاق أبي عفك، حين قتل رسول الله ص الحارث بن سويد بن صامت ـ وهجا الرسول وهو ابن مائة وعشرين سنة ـ فقال رسول الله: مَن لي بهذا الخبيث؟ فخرج سالم بن عمير فقتله[٦])) .

((فلما قُتل أبو عفك نافقت عصماء بنت مروان، فقالت شعراً تعيب الإسلام وأهله. فقال رسول الله ص. حين بلغه ذلك: ألا آخذُ لي من ابنه مروان؟ فسمع ذلك عمير

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٦٦.
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٦٧ .
(٣) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٦٧ .
(٤) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٦٨ .
(٥) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٨٢ .
(٦) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٨٤ .

ابن عدي الخطمي، وهو عنده، فلما أمسى من تلك الليلة سرى عليها في بيتها فقتلها، ثم أصبح مع رسول الله ص فقال: يا رسول الله إني قد قتلتها! فقال: نصرت الله ورسوله، يا عمير! ... وأسلم، يوم قُتلت ابنة مروان، رجال من بني خَطْمَة، لما رأوا من عزّ الإسلام[١])) .

((أصاب رسول الله ص في غزوة عبداً يقال له يسار فجعله في لقاح له كانت ترعى في ناحية الجماء (أو الحمى) فقدم على رسول الله نفر من قيس قُبّة، قبيلة من بجيْلة، قد استوبئوا وطَحِلوا فقال لهم رسول الله: لو خرجتم إلى اللقاح فشربتم من ألبانها وأبوالها فخرجوا إليها. فلما صحّوا عدوا على راعي رسول الله، فذبحوه وغرزوا الشوك في عينيه واستاقوا اللقاح. فبعث رسول الله في آثارهم كرْز بن جابر فلقحهم فأتى بهم رسول الله ص فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم[٢])) أي أقام عليهم حد السرقة والقصاص بالمثل.

جاء في أسباب نزول الآية ((وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين)) (أنفال ٣١): ((أخرج بن جرير عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي يوم بدر (من الأسرى)، صبراً، عقبة بن أبي معيط، وطُعَيْمة بن عدي والنضر بن بن الحارث. وكان المقداد أسر النضر، فلمّا أمر بقتله قال المقداد: يا رسول الله أسيري! فقال رسول الله ص إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول! وفيه نزلت الآية)) . فلمّا أمر علي بن أبي طالب أو عاصم بن ثابت بقتل عقبة، قال عقبة: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار)) !

وكان عند الرسول أسيران من بدر، أبو عزة الجمحي ومعاوية بن المغيرة، وقد مَن عليهما. فلما كانت هزيمة أحد، قال أبو عزة للنبي: أقلني. فقال رسول الله: اضرب عنقه، يا زبير؛ فضرب عنقه. وأرسل في إِثر معاوية بن المغيرة قوماً فقتلوه[٣].

وكان كعب بن الأشرف، من بني النضير اليهود خشي تفوّق محمد بعد بدر ((فخرج حتى قدم مكة، وجعل يحرّض على رسول الله، وينشد الأشعار ويبكي أصحاب القليب من قريش ... ورجع إلى المدينة فشبّب بنساء المسلمين حتى آذهن. فقال رسول الله: مَن لي بابن الأشرف؟ فتصدّى له أبو نائلة سلْكان بن سلامة، أخو كعب من الرضاعة في نفر

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٨٧ .
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٩٠ .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ١١٠.

« مشى معهم رسول الله إلى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال: انطلقوا على اسم الله؛ اللهم أعنهم » ورجع فقصدوا خيبر في الليل واحتالوا على كعب فاخرجوه من داره، وتماشوا معه بعيداً عن الحصن وضربوه ضربة رجل واحد. ورجعوا إلى محمد « وهو قائم يصلّي. فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله[1] » .

قتلت الأوس بأمر محمد كعب بن الأشرف حليف الخزرج. فاستأذن الخزرج الرسول في قتل سلاّم بن أبي الحقيق، حليف الأوس. فأذن لهم وأمر عليهم في قتله عبد الله بن عتيك. ففعلوا.

وقال رسول الله: « من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه! فوثب محيصة بن مسعود على ابن سَنِيْنة، رجل من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم، فقتله. فلامه أخوه فقال لأخيه: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربتُ عنقك » .

وتفاقم نفاق ابن أبي زعيم المدينة: « فخطب رسول الله ص الناس فقال: مَن لي بمن يؤذيني، ويجمع في بيته مَن يؤذيني؟ » واختلف الأوس والخزرج في قتله فئتين، فأنقذه اختلافهم من القتل[2].

وفي فتح مكة صدر العفو العام عن أهلها؛ « وكان رسول الله ص قد عهد إلى إمرائه من المسلمين، حين أمرهم أن يدخلوا مكة، أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم. إلا أنه قد عهد في نفر سمّاهم أمر بقتلهم **وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة.** منهم عبد الله بن سعد لأنه كان قد أسلم وكان يكتب الوحي لرسول الله ص، فارتد مشركاً راجعاً إلى قريش. وكانت له قينتان، فرتنى وصاحبتها، وكانت تغنيان بهجاء رسول الله ص فأمر بقتلهما معه. والحويرث بن نُقَيذ بن وهب بن قصي وكان ممن يؤذيه بمكة. وسارة مولاةً لبعض بني عبد المطلب؛ وكانت سارة ممن يؤذيه بمكة؛ وعكرمة بن أبي جهل[3] » .

« وكتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب يخبره أن رسول الله ص. **قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه،** وأن من بقي من شعراء قريش قد هربوا في كل وجه. فإن

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٥٤ .
(٢) السيوطي : أسباب نزول الآية ٨٧ من النساء .
(٣) السيرة لابن هشام ٤ : ٥١ ـ ٥٢ .

كانت لك في نفسك حاجة فطِر إلى رسول الله ص. فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض[1])) . فنظم قصيدته (بانت سعاد) وجاء مسلماً ليسلم.

*

والصورة التي رسمها القرآن، وحفظتها السيرة، للرسول في المدينة هي صورة التقوى والبطش في سبيل إظهار الإسلام على الدين كله في الحجاز والجزيرة: ((هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً. محمد، رسول الله، والذين معه، **أشداء على الكفار رحماء بينهم:** تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً. سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة؛ ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه، فاستغلظ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار (فتح ٢٨ ـ ٢٩). وقد يكون في بعض أعمال السيرة النبوية سرّ عتاب الله لنبيّه في القرآن مراراً، وسبّب استغفار النبي ربه تكراراً.

وقد حقق رسول الله والذين معه المثل الأعلى الذي نقله يهود المدينة معهم عن الزبور:

((حمدُ الله في أفواههم، وسيوف ذات حدين في أيديهم
((لإجراء الانتقام بين الأمم، والتأديب للشعوب)) !

ولم يكن المثلَ الأعلى الذي نقله الإنجيل والقرآن عن المسيح: ((أوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً! وبرّا بوالدتي، ولم يجعلني جبّاراً شقياً!)) (مريم). ويذكر القرآن أيضاً تأييد الروح القدس الدائم للمسيح (بقرة ٨٧ و٢٥٣) حتى قال الرازي ((كان جبريل عليه السلام لا يفارقه ساعة)) .

العصمة في النبوّة هي العصمة من الخطإ في تبليغ الوحي، لا خارجاً عن الوحي، ولا هي العصمة من الخطيئة في السيرة النبوية. قال الأستاذ عبد الله السمان[2]: ((الفترة التي سبقت بعثة محمد من حياته كان بشراً عادياً إلا أنه امتاز بمجموعة من أرفع الأخلاق وأنبل الصفات. والفترة التي قضاها نبيّاً ورسولاً كان فيها بجانب النبوة والرسالة بشراً لم يتخلّ عنه جانب واحد من جوانب البشرية كله. كان مرتبطاً بالوحي حين يتكلم فحسب. أما

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ١٤٤ .
(٢) محمد الرسول البشر ٤٠ و٥٧ و٧٩ .

حين لا يتكلم الوحي » فله تفكيره وله رأيه، وبجانب ذلك آراء وتفكيرات أتباعه، يستشيرهم ويعتد بآرائهم فيما لا رأي للوحي فيه. أن ثلاثاً وعشرين سنة قضاها في ميدان الدعوة، لم يكن يتردد عليه الوحي إلا حين ينزل القرآن وفي أوقات معدودة أخرى في ظروف اضطرارية. ومن البلاهة المركزة أن يصر بعض البسطاء من المسلمين ومن كتاب السيرة على أن محمداً كان معصوماً خلال فترة نبوته ورسالته من كل كبيرة وصغيرة ... وفي القرآن صور من عتاب الله لمحمد، وليس العتاب إلا نتيجة لمجانبة الصواب وارتكاب الخطأ. وليس من العقل مجاراة أولئك المغالين الذي يحرصون بل يصرون على أن يضفوا على شخصية محمد هالة من التقديس الذي يأباه محمد نفسه لأنه في غنى عنه، وليست عظمة الشخصية في أن تكون معصومة من الخطأ ... وكان من دعائه، كما ورد في الصحيح: « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وما أنت أعلم به مني! اللهم اغفر لي هزلي وجَدّي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي ».

فمحمد مع كل عظمته يبقى « الرسول البشر » :

لا يستحي من إعلان بشريته في حياته الشخصية: فهو يؤمر بالاستغفار، ويستغفر الله مراراً كل يوم.

لا يستحي من إعلان بشريته في حياته الزواجية (حديث عائشة، وزينب ومارية).

لا يستحي من إعلان بشريته في حياته النبوية: فهو يصرّح بأنه « لا يعلم الغيب » ويصرّح بعجزه عن معجزة « مُنعت عنه » .

لا يستحي من إعلان بشريته في حياته النبوية: فهو يصرّح بأنه « لا يعلم الغيب » ويصرّح بعجزه عن معجزة « مُنعت عنه » .

لا يستحي من إعلان بشريته في حياته الجهاية من استباحة الغنائم، والأسرى، والاغتيالات السياسية التي تقتضيها مصلحة الدولة.

فالقرآن يقول فيه بصراحة: « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » . وإذا طولب بأكثر من ذلك يهتف: « قل سبحان ربي، هل كنت إلاّ بشر رسولاً[1]؟

(١) راجع هنا ص ٦٨٨ الخ .

البحث الخامس

المعجزة والإعجاز في القرآن المدني

لا بدّ لكل رسالة سماوية من معجزة إلهية تؤيدها ويعجز عنها البشر ليكون دليلاً على النبوة. والمعجزات مثل أوراق اعتماد الرسول الإلهي عند البشر.

وفي الإسلام تيارات ثلاثة في نسبة المعجزة للدعوة القرآنية والسيرة النبوية.

التيار المتطرّف، الذي تقوده غرائز شعبية، يرى المعجزات منتشرة في السيرة كالزهور على البسيطة، وإن لم يكن لها أساس من قرآن أو حديث.

قال السيد عبد الله السمَّان يعرض صوراً من هذا التطرّف: « إن كتب الأحاديث وكتب السيرة قد استوعبت آلاف المعجزات. ومنها ما بلغ درجة التطرّف الذي يفرض علينا الضحك. وحسبك أن تقرأ (دلائل النبوة) للبيهقي، ومثلها لأبي نعيم، (والشفاء) للقاضي عياض، وشرح الزرقاني على (المواهب). **والأحاديث المعتمدة معدودة على الأصابع**؛ وكلها أحاديث لا تقطع بخبر ... فلا يمكن أن نقرّ بحال من الأحوال هذا السيل من المعجزات التي نسبت إليه، والتي لو وزّعت على الثلاثة والعشرين عاماً التي قضاها في النبوّة لأصبح واضحاً أن هذه المدة إنما ضاعت في حدوث الخوارق المتواصلة، دون أن يتفرّغ لنضال في مكة، أو قتال وتشريع في المدينة.

« للقاضي عياض: حتى حين يفكر رسول الله في قضاء حاجته بالخلاء، تنتقل الأشجار وتتكدّس الحجارة، وذلك لتواريه على الأعين[1]! ما من شجرة ولا حجر

---

(١) « وتارة يقول القاضي : « إنه إذا أراد أن يتغوّط انشقت الأرض فابتلعت غائطه وبوله، وفاحت لذلك رائحة طيبة لأن الأرض تبتلع ما يخرج من الأنبياء فلا يُرى منه شيء ! ثم يواصل القاضي عياض هذا الهوس فيقول : إن قوماً من أهل العلم قالوا بطهارة هذين الحدثين منه ص. ويدعي أيضاً أن أم أيمن خادمه شربت من بوله يوماً فقال لها : لن تشتكي وجع بطنك أبداً ! » .

ألا يقول: السلام عليك يا رسول الله! وحين يدعو للعباس وأهل بيته، تقول الأبواب والحوائط: آمين! وهو يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وفي الظلام كما يرى في النور!

« ويواصل القاضي عياض هذا الهوس، فينسب إلى ابن عباس ما هو بريء منه أن النبي كانت روحه نوراً قبل أن يخلق آدم بألف سنة، قال: فلمّا خلق الله آدم أهبطني إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذف بي في صلب إبراهيم ثم لم يزل ينقلني من الأصلاب الكريمة والأرحام الطاهرة، حتى أخرجني من أبوي، لم يلتقيا على سفاح قط.

« ولا يرضى الواقدي في سيرته هذا الزهد في الهوس فيدعي أنه، ص. حين خرج من بطن أمه صاح: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً؛ وكان في الشهر الثاني من ولادته يتزحلق، وفي الثالث يقف على قدميه، وفي الرابع يمسك الجدران وفي الخامس يمشي وفي السادس يسرع، وفي السابع يسعى، وفي الثامن يتكلم، وفي العاشر يرمي السهام.

« وهكذا يسبح خيال القاضي عيَّاض الخصب فينسب إلى الرسول معجزات كان خيراً لو أنه لم ينسبها إليه، بدل أن يعرّض شخصية محمد للسخرية.

« إن القرآن ذكر بعض الآيات لبعض الرسل دون البعض الآخر، **فكان أجدر به أن يذكر بعض معجزات لمحمد** الذي أُنزل عليه، ولكن الله عزّ وجلّ أراد أن يرفع من قدر الرسالة فيجعلها عقلية منطقية تخاطب العقل والمنطق، وأيّدها بكتاب الله كآية خالدة معجزة، **غير مؤيّد بالخوارق** التي لم تصلح من قبله وسيلة لإقناع ...

وكتَّاب السيرة جميعاً عنوا عناية كبرى بأمر الخوارق ليؤكدوا أن للرسول آلافاً بل عشرات الآلاف من المعجزات. وهذه المعجزات أمر اعتقادي لا بدّ لتصديقها من خبر قطعي: **وليست هناك معجزة واحدة يؤكدها خبر قطعي مما نسب إلى رسول الله**[1] » .

ويقول حسين هيكل[2]: « ومن الحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حداً دعا الدعاة فيهم إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات حتى قال علي: ما عندنا كتاب نقرأه عليكم إلا ما في القرآن، وما في هذه الصحيفة أخذتُها من رسول الله فيها فرائض الصدقة ... أما مضرة الروايات التي لا يقرّها العقل والعلم فقد أصبحت واضحة

---

(١) محمد عبد الله السمان : محمد الرسول البشر ٨٦ ـ ٨٨ و١١٣ .
(٢) حياة محمد . تقديم الطبعة الثانية ٥٠ ـ ٥٤ .

ملموسة ... ولقد كان حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن، ويصارح أصحابه بذلك)) .

وهذا السيل من المعجزات المختلفة في الحديث والسيرة دليل على الشعور العام بضرورة المعجزة لصحة النبوّة الإلهية.

ولو لم تكن المعجزة دليلاً إلهيّاً على النبوة لمَّا أيد الله بها سائر أنبياء الكتاب من موسى إلى عيسى، بشهادة التوراة والإنجيل والقرآن.

ولو لم تكن المعجزة دليل النبوة لما جعلوا من إعجاز القرآن أعظم معجزة على صحة رسالة النبي العربي.

*

والتيار المعتدل بدأ مع (كتب الإعجاز) التي ترى معجزة القرآن في إعجازه. واستقر القوم على ذلك إلى اليوم.

ويقول القاضي أبو بكر الباقلاني في مطلع كتابه (إعجاز القرآن): ((الذي يوجب الاهتمام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبيّنا عليه السلام بنيت على هذه المعجزة. وإن كان قد أيّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة؛ إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة وأحوال خاصة وعلى أشخاص خاصة)) .

لقد رأينا في بحث سابق أن علماء العصر من المسلمين أمثال الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغي[١]، والدكتور حسين هيكل[٢]، والأستاذ دروزة[٣] بدأوا يستنتجون من القرآن ((**موقف السلبي**)) من كل معجزة: فهم لا يرون فيه معجزة الغيبيات! ولا معجزة الكونيات التي تنبئ عن جميع الأحداث العلمية إلى قيام الساعة! ولا معجزة الخوارق مثل التي تمت على يد الأنبياء الأولين! فالقرآن صريح بقوله عن النبي: ((ولا أعلم الغيب ... ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرتُ من الخير وما مسّني السوء)) ، ((وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون)) (قصص ٣٥).

---

(١) في مقدمة (حياة محمد) لحسين هيكل ص ٥٢ .
(٢) حياة محمد ص ٤٤ و٥٤ و٥٥ .
(٣) راجع ص ٦٦٤ من هذا الكتاب .

فالقرآن بإعجازه هو وحدة معجزة محمد. يقول هيكل: « لقد كان ص. حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن. ويصارحه أصحابه بذلك ... **ولم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة** أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد، إلا القرآن. هذا مع أنه ذكر المعجزات التي جرت بإذن الله على أيدي من سبق محمداً من الرسل ... فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة، ولا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله. والشهادة برسالة محمد الذي دعا الناس إلى هذا الإيمان لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن، ولا تحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله » .

ـ أجل إن الإيمان الطبيعي بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة، فهو فطرة الله التي فطر الإنسان عليها. بذلك يقول الكتاب والحكمة والزبور والإنجيل والقرآن.

ولكن صحة النبوة في رسول لا تصح إلا بمعجزة إلهية تؤيدها، لأنها الواسطة الوحيدة التي جعلها الله، ويراها العقل، دليلاً على النبوة والرسالة. وقد أجمع على ذلك جميع المتكلمين من أهل السنة. قال إمام الحرمين الجويني في كتاب (الإرشاد)[1]:

« فصل: لا دليل على صدق النبي غير المعجزة.

« فإن قيل: هل في المقدور نصب دليل على صدق النبي غير المعجزة؟ ـ **قلنا ذلك غير ممكن.** فإن ما يقدَّر دليلاً على الصدق لا يخلو إما أن يكون معتاداً، وإمّا أن يكون خارقاً للعادة. فإن كان معتاداً، يستوي فيه البَرّ والفاجر، فيستحيل كونه دليلاً. وإن كان خارقاً للعادة، يستحيل كونه دليلاً دون أن يتعلق به دعوى النبي إذ كل خارق للعادة يجوز تقدير وجوده ابتداءً من فعل الله تعالى: فإذا لم يكن بدّ من تعلّقه بالدعوى فهو المعجزة بعينها » .

وفي موقف علماء العصر من نفي الخوارق من القرآن والتمسّك بإعجازه معجزة له تناقض مكشوف: فمن جهة يقولون بأن المعجزة غير ضرورية لإثبات الرسالة الإلهية؛ ومن جهة يقولون بأن إعجاز القرآن معجزة إلهية تشهد له. فإذا كان إعجاز القرآن معجزة إلهية، وأكبر دليل على صحة الرسالة المحمدية، فالمعجزة مهما كان نوعها ضرورية لا بد منها لإثبات

---

(١) الإرشاد ص ٣٣١ .

النبوة والرسالة. فلا يكفي ((النظر في هذا الكون الذي خلقه الله ... وتلاوة الكتاب الذي أوحاه الله)) . فالقول بإعجاز القرآن دليل على ضرورة المعجزة لإثبات النبوة.

لذلك اعتصموا بإعجاز القرآن دليلاً على نبوة النبي العربي. والقول الفصل في هذا الفصل ما نقله السيوطي[١]: ((المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدّي سالم عن المعارضة. وهي إمّا حسّية وإما عقلية. وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم! وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال إفهامهم. ولأن هذه الشريعة، لمّا كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر)) .

يتضح من كتب علوم القرآن، وكتب الإعجاز، وكتب علم الكلام أن معجزة ((النبي الأمي)) الكبرى والوحيدة هي إعجاز القرآن، كما ورد: ((وإن كنتم في شكّ ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين. فإن لم تفعلوا ـ ولن تفعلوا ـ فاتقوا النار التي وقودها النار والحجارة أُعدّت للكافرين)) (بقرة ٢٣). فالقرآن هو ذاته دليل النبوة، ((وهو وحده معجزة محمد)) !

*

ولكن هل يصح إعجاز القرآن معجزة له؟

هذا هو المشكل الأعظم الذي حدا بالمعتزلة قديماً، ويحمل اليوم بعض العلماء على القول: **إن الله لم يجعل القرآن دليلاً على النبوّة.** وهذه براهينهم.

١) فما هو وجه الإعجاز في القرآن؟

قال السيوطي في الإتقان (٢ : ١١٨): ((لمَّا ثبت كون القرآن معجزة نبيّنا ص. وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز. وقد خاض الناس كثيراً في ذلك؛ فبين محسن ومسيء)) . ثم يذكر عشرين قولاً مختلفاً في وجه الإعجاز في القرآن.

ـ ومعجزة لا يُعرف وجه الإعجاز فيها كيف تكون معجزة؟

٢) وتتّجه أكثر الأقوال على أن وجه الإعجاز في القرآن هو إعجازه البياني في فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه وبديع نظمه.

---

(١) الإتقان ٢ : ١١٦ .

ـ الفصاحة والبلاغة، والنظم والتأليف، وبكلمة الإعجاز البياني للخاصة من الناس، بينما الدين والتنزيل لعامة الناس، من عرب وأعاجم: فهل يصح أن يكون الإعجاز البياني العربي معجزة للعامة من العرب العاجزة عن إدراكه؟

والإعجاز البياني في لغة إذا نُقل إلى لغة أخرى يذوب في الترجمة: فهل يصح أن يجعل الله الإعجاز البياني العربي معجزة للبشرية جمعاء العاجزة عن إدراكه؟ فهل يليق بالرحمان الرحيم أن يخاطب عباده بما لا يفقهون؛ وان يُلجئهم إلى ما لا طاقة لهم به؟ ـ كلا ((لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها)) (بقرة ٢٨٦).

جاء في (الإتقان ٢ : ١١٧): إن ما لا يمكن الوقوف عليه لا يمكن التحدّي به)) .

٣) وهنا يرد المعترضون على معجزة الإعجاز للناس أجمعين ببرهنة القرآن للمشركين في مكة: غفلوا عن دراسة الكتاب لأنه نزل بلغة لا يفهمونها، فهوذا القرآن قد نزل بلسان عربي مبين لكي يعقلوه (الأنعام ١٥٦). ويذكرون أيضاً المبدأ العام القرآني في الرسالات الإلهية: ((وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم)) . فالإعجاز البياني العربي لا يصحّ معجزة إلا للعرب، وللخاصة من العرب. فلا يصح، بحسب مبادئ القرآن وطريقته، أن يجعل الله إعجاز القرآن العربي معجزة لغير العرب من البشر أجمعين.

٤) ويوردون أيضاً أن القرآن المدني نفسه ينقض دعوى الإعجاز. يقولون إن آخر عهد للتحدّي بالإعجاز كان في مطلع الدعوة بالمدينة في آية البقرة (٢٣).

فالكلام إنشاء أو خبر. والقرآن نوعان: أحكام تشريعية، وأوصاف أخبارية.

وقد نسخت سورة البقرة للحال الإعجاز في الأحكام بتقريرها مبدأ النسخ في القرآن وأحكامه: ((ما ننسخ من آية لو ننسها، نأت بخير منها أو مثلها: ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير)) (بقرة ١٠٦). ما كان أمراً واقعاً يجري عليه القرآن جعله القرآن مبدأ مقرراً في تشريعه. قال السيوطي: ((والنسخ ممّا اختص الله به هذه الأمة)) .

والإعجاز في أحكام القرآن، والنسخ فيها لا يجتمعان.

وقد نسخت سورة آل عمران الإعجاز البياني في الأخبار والأوصاف بتقريرها مبدأ المتشابه فيها: ((هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب، وأخر متشابهات ... (ما تشابه منه) ما يعلم تأويله إلا الله؛ والراسخون في العلم يقولون: آمنّا، كل من عند ربنا)) (آل عمران ٧). والسيوطي في إتقانه (٢ : ٢) يبيّن أن متشابه القرآن يشمل الأقسام منه والقصص والأمثال والمنسوخ، وما فيه تقديم وتأخير،

ما عدا ((الأحكام الزاجرة)) ؛ وهذه على حد قوله (إتقان ٢ : ١٣٠) ما بين مئة وخمسين آية وخمسماية. فيكون أكثر القرآن من المتشابه.

ومن البديهي أن الإعجاز في القرآن والمتشابه منه في البيان لا يجتمعان.

٥) قيل إن إعجاز القرآن مقحم للثقلين: الإنس والجن. قد نفهم خطاب الإنس ولكن لا نفقه خطاب الجن. وفي القرآن نص يلقي شبهة على الإعجاز للجن، وهي إمكانية تدخل الشيطان في إفساد الوحي: ((وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى (قرأ) ألقى الشيطان في أمنيته، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آيته والله عليم حكيم، ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم، (الحج ٥٢ ـ ٥٣). وهذه ميزة قرآنية لا مثيل لها في التوراة والأنبياء والزبور والحكمة والإنجيل.

فكيف ينسجم الإعجاز للثقلين مع شبهة كهذه، وإن لم تكن سوى شبهة؟

على المؤمنين بالله واليوم الآخر أن يمتنعوا عن مثل هذا الغلوّ الذي يمس كتب الوحي.

٦) في الإتقان (١ : ٣٥) للسيوطي فصل: ((ما نزل من القرآن على لسان بعض الصحابة: والأصل فيه موافقات عمر، وقد أفردها بالتصنيف جماعة. أخرج الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ص قال: إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. وقال ابن عمر أيضاً: ما نزل بالناس أمر قط فقالوا وقال عمر إلا نزل القرآن على ما قال عمر! وأخرج ابن مردويه عن مجاهد قال: **كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن!** وأخرج مسلم عن ابن عمر عن أبيه قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب وفي أسرى بدر وفي مقام إبراهيم)) .

وينقل (الإتقان) أمثلة غيرها ثم يقول: ((يقرب من هذا ما ورد في القرآن **على لسان غير الله:** كالنبي عليه السلام، وجبريل، والملائكة، غير مصرّح بالإضافة إليهم، ولا محكي بالقول)) : فكيف ينسجم هذا الواقع مع معجزة الإعجاز؟

٧) وهناك مقالة يرددها بعض الجماعة: وقد تنسخ السنة القرآن؛ ويعطون على ذلك أمثلة. وقد رأينا (إتقان ٢ : ٢) إن المنسوخ من المتشابه في القرآن: فكيف ينسجم المنسوخ والمتشابه، في نسخ القرآن بالسنة، مع الإعجاز في القرآن؟

أخيراً لا ننسى ما نقله السيوطي (إتقان ١ : ٤٤) على اختلاف القوم على كيفية الوحي والإنزال: **أباللفظ أم بالمعنى** (راجع ص ٣١٨): فإذا كان الوحي القرآني بالمعاني فقط، فلا أساس بعد للإعجاز البياني المنزل.

ويلحق بإعجاز القرآن قضية « خلق القرآن » والاختلاف فيها. قال الشيخ محمد أبو زهرة، أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة[1]: مسألة خلق القرآن أثيرت في العصر الأموي في جدال المسيحيين. كانوا يقولون: إذا كان كلام الله في القرآن غير مخلوق، فكم بالأحرى « كلمة الله » التي ألقاها إلى مريم روحاً منه؟ وقال الشيخ الكريم: « وكان بين المسلمين طائفة قد تصدّت للرد على ما يثيره غير المسلمين للطعن في الإسلام، فوجدوا أنه من الواجب أن يقولوا: إن القرآن مخلوق، و « كلمة الله » التي عبّر بها عن المسيح هي مخلوقة باعتبار أن مسمَّاها، وهو المسيح، مخلوق ... المأمون يضطهد من لا يقول بخلق القرآن ... والمعتصم يجري على سنة أخيه ... والحق أن المعتزلة لهم وجهة فيما يقولون. **وليس فيما يقولون كفر ولا زيغ.** بل إن الذي دفعهم إلى ذلك هو سدّ الطريق على الذين يحاولون إفساد عقول المسلمين بتأويل بعض العبارات القرآنية تأويلاً باطلاً » .

أليس سدّ الطريق على الجميع، يفهم وجه إعجاز القرآن على حقيقته؟ فليس إعجاز القرآن في البيان، إنما إعجازه في الهدى. ومعجزة محمد هي القرآن في هداه الذي يعلّم التوحيد الخالص للمشركين وللبشرية جمعاء. فهو في ذروة التحدّي بالإعجاز (إسراء ٨٨ يونس ٣٧ هود ١٤) يحدّد معنى تحديه بإعجاز القرآن: « فأتوا بكتاب من عند الله **أهدى منهما** اتبعه إن كنتم صادقين » (قصص ٤٩).

وفي هذا الإعجاز الأسمى بالهدى يستوى القرآن والكتاب، بنص القرآن القاطع « أهدى منهما » . لا بل يصرّح: « أم يقولون: افتراه! ـ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله، إن كنتم صادقين ... ومن قبله كتاب موسى **إماماً** ورحمة » (هود ١٣ و١٧): ففي الإعجاز بالهدى، الكتاب هو « إمام القرآن » .

وقال ابن حزم في كتاب (الفصل) في أصل الإعجاز وسببه ومعناه وهدفه: « لم يقل أحد أن كلام غير الله تعالى معجز. لكن لما قاله تعالى، وجعله كلاماً له، أصاره معجزاً ومنع من مماثلته. وهذا برهان كاف لا يحتاج إلى غيره[2] » . فأصل الإعجاز في التنزيل، وفي هذا الأصل يتساوى « الفرقان » من التوراة إلى الإنجيل إلى القرآن: (آل عمران ١ ـ ٣).

فالإعجاز القرآني في التنزيل والهدى، والقرآن والتوراة والإنجيل فيهما سواء. والقرآن فيهما تصديق « الكتاب الإمام » . تلك نظرية القرآن الحقّة.

---

(١) مجلة العربي: صفر ١٣٨٠ = أغسطس ١٩٦٠ ص ٩١ ـ ٩٣.
(٢) قابل الرافعي: إعجاز القرآن ١٦٤.

الفصل الرّابع عشر

موت النبي العربي

« **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** »
(توبة ٩٨)
« **منا أمير، ومنكم أمير، يا معشر قريش** »
(السيرة ٤ : ٣١٦)

أولى أزمات التاريخ الإسلامي الكبرى هي موت النبي العربي: أينتهي الإسلام بموته؟ هل تنتهي مبايعة العرب له بنهايته؟

لقد فكّر أعراب الجزيرة الذين بايعوا محمداً، رغبة أو رهبة، أن أمر محمد قد انتهى فارتدوا عن الإسلام. وكان النبي يعرف ذلك من قومه في أيامه الأخيرة، فنزل فيهم: « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً » ! وفكّر صحابته من المهاجرين والأنصار الأوائل أنه لا بدَّ من تتميم وتجديد الأمر.

وهذه الفترة الأولى بعد موت النبي أعظم فترات التاريخ الإسلامي لفهم ما علق بأذهان القوم من معنى الدعوة القرآنية.

*

بحث أول: موت النبي العربي

كانت حجة الوداع في الخامس والعشرين من ذي القعدة، السنة العاشرة للهجرة (آذار ٦٣٢م) في نحو مائة ألف من المسلمين والعرب المبايعين. فكانت المظهر الأكبر لتحرير العرب الديني والقومي، ولوحدتهم الدينية والقومية، ولانتشار سلطان الإسلام على الجزيرة كلها. فنزل فيها: « اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام

ديناً)) (مائدة ٣). واستشهد الرسول الحجيج على أنه أدّى الأمانة وبلَّغ الرسالة، فشهدوا جميعاً، فقال: ((اللهم فاشهد؟[١])) .

((ثم قفل فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر. وضرب على الناس بعثاً إلى الشام وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهّز الناس[٢])) . وهذه الوصية تعني أن النبي لم يفكر بغزو الروم في عقر دارهم، بل بالعرب النصارى على حدود الحجاز والشام. ولعله حسب حساباً لسفر الراهب أَبي عامر يستنصر القيصر على ملك الحجاز الجديد الذي أخذ يمنع النصرانية من التبسّط في الحجاز.

((فبينا الناس على ذلك ـ من التجهّز للحملة ـ ابتُدِئ رسول الله بشكواه الذي قبضه الله فيه، في ليال بقين من صفر أو في أول شهر ربيع الأول (٢٥ أيار ٦٣٢م).

فسعى النبي إلى تمريضه في بيت عائشة الزوج المفضلة. قالت: ((وجدني وأَنا أجد صداعاً في رأسي وأَنا أقول: وارأساه! فقال: بل أنا والله يا عائشة، وارأساه! ثم قال: وما ضرَّك لو متِّ قبلي فقمتُ عليك وكفنتك وصليتُ عليك ودفنتُك؟ قلت: والله لكأني بك، لو قد فعلتُ ذلك، لقد رجعتَ إلى بيتي فأعرستَ فيه ببعض نسائك. فتبسَّم رسول الله ص. وتتامَّ به وجعه، وهو يدور على نسائه، حتى استُعزَّ به وهو في بيت ميمونة. فدعا نساءَه فاستأذنهنَّ في أن يمرّض في بيتي فأذِنَّ له ... فخرج يمشي بين رجلين من أهله، الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب، عاصباً رأسه تخطّ قدماه حتى دخل بيتي. ثم غُمِر رسول الله ص. واشتد به وجعه، فقال: هريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتَّى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. فأقعدناه في مخضب وصببنا عليه الماء. ثم خرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر[٣])) . وأشار في كلامه إلى تفضيل أبي بكر في صحبته.

((ولما استُعِزَّ برسول الله ص. قال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس! (فاعترضت عائشة لأنها كانت تعلم أن الناس لا يحبون رجلاً قام مقامه أبداً). فقال: **إنكنَّ صواحب يوسف!** فمروه فليصلِّ بالناس[٤])) .

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٤٨ ـ ٢٥٣ .
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٥٣ و ٢٩١ .
(٣) السيرة لابن هشام ٤ : ٢٦٢ ـ ٢٩٣ .
(٤) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٣ .

وجاء العباس عم النبي فأخذ بيد علي ثم قال: « يا علي احلف بالله، لقد عرفتَ الموت في وجه رسول الله ص. كما كنتُ أعرفه في وجوه بني عبد المطلب. فانطلق بنا إلى رسول الله ص. فإن كان **هذا الأمر فينا عرفناه**، وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس. فقال عليّ: إني والله لا أفعل. والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحدٌ بعده[١] » . في مرض النبي الأخير يفكّر آل البيت والصحابة بخلافة النبي على « أمره » أكثر من حاله، كأنما ينظرون إلى الإسلام كمُلك يورّث.

في هذه الأثناء جرى أمر خطير ذو مغزى كبير. أجمعت الآثار[٢] على أنه في الساعات الأخيرة أثقل على النبي المرض فقال: « إيتوني بدواة وصحيفة **أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً**. فتنازعوا. فقال بعضهم: ما له، أهجرَ؟ (أي هذى). استعيذوه! وقالت زينب بنت جحش وصواحبها: ائتوا رسول الله بحاجته. فقال عمر بن الخطاب: إن رسول الله ص. قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله! واختلف الحضور منهم مَن يقول: قربوا يكتبْ لكم كتاباً لا تضلون بعده. ومنهم مَن يأبى ذلك مكتفياً بكتاب الله. فلمّا رأى محمد خصومتهم قال: قوموا، ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف! وما فتئ ابن عباس بعدها يرى أنهم أضاعوا شيئاً كثيراً بأن لم يسارعوا إلى كتابة ما أراد النبي إملاءَه[٣] » . ومنع عمر من كتابة ما أراد محمد على فراش الموت.

ـ فما معنى إصرار النبي على كتابة كتاب للمسلمين لا يضلون بعده أبداً؟ لا يعني ذلك مطلقاً أنه أراد أن يوصي بخلافته: إشارته إلى إمامة أبي بكر بالصلاة في الناس تكفي. وما كان عمر يمانع في ذلك أبداً. وكلام النبي عن « الضلالة » وجواب عمر « عندنا كتاب الله وحسبنا » يوحيان بأنه أراد نسخاً في معنى القرآن.

ما أشبه الليلة بضحاها. يذكر صحيح البخاري (٤ : ١٣٧) أنه في مطلع النبوة عند فتور الوحي « غدا مراراً كي يتردّى ... فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك » . ويذكر صحيح البخاري أيضاً في ختام النبوة (٤ : ١٩٣) أن محمداً طلب بإلحاح أن « يأتوه

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٤ .
(٢) صحيح البخاري (١ : ٢٣ و٢ : ٦٢ و٤ : ٥ ثم ١٣٩)، طبقات ابن سعد (٢: (٢) ٣٦ ــ ٣٨) المقريزي في (إمتاع الأسماع) وأبو الفداء في تاريخه (١ : ١٥٢) .
(٣) حسين هيكل : حياة محمد ٤٨٥ ؛ عبد الله السمان : محمد الرسول البشر ٤٧ .

بدواة وصحيفة ليكتب لهم كتاباً لن يضلّوا بعده أبداً! » .. هل من تراجع عند صحوة الموت؟ ما هو سرُّك يا رسول الله؟

« وكانوا لاشتداد الحمّى به، يضعون إلى جواره إناء به ماء بارد، فما يزال يضع يده فيه ويمسح بها على وجهه. وكانت الحمى تصل به حتى يُغشى عليه أحياناً، ثم يفيق وهو يعاني منها أشد الكرب، حتى قالت فاطمة يوماً، وقد حزَّ الألم في نفسها لشدة ألم أبيها: وأكرب أبتاه! فقال: لا كرب على أبيك بعد اليوم ...

« وحاول أصحابه يوماً تهوين الألم على نفسه، فذكروا له نصائحه: ألاّ يشكو المريض! فأجابهم أن به أكثر ممّا يكون في مثل هذه الحال برجلين منهم ...

« ورأَى أهله، وهذه حاله، أَن يسعفوه بعلاج. فأعدّت أسماء، قريبة ميمونة، شراباً كانت عرفت أَثناء مقامها بالحبشة كيف تعده، وانتهزوا فرصة إغماءَة من إغماءات الحمى، فصبوه في فيه. فلما أفاق قال: مَن صنع هذا؟ ولِمَ فعلتموه؟ قال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أَن تكون بك ذات الجنب. قال: ذلك داء ما كان لله عزّ وجلّ ليقذفني به. ثم أَمر بمن في الدار، خلا عمه العباس، أن يتناولوا هذا الدواء، لم تستثنَ منهم ميمونة رغم صيامها ...

« وكان يرى الموت يدنو، ولم يبق لديه ريب في أَنه لم يبقَ له في الحياة إلا سويعات. تُرى ماذا عساه كان يشهد في هذه السويعات؟ أفكان يتذكر حياته منذ بعثه الله؟ أم كان يقضيها مستغفراً ربه؟ أَم أنه كان يعاني في هذه الساعات الأخيرة من آلام النزع، ما لم يُبقِ لديه قوة الاستذكار؟ ـ تختلف الروايات في ذلك اختلافاً كبيراً ... وأنه، وقد شقّ عليه النزع، توجه إلى الله، يدعوه: اللهمَّ أعني على سكرات الموت[1] » !

قالت عائشة: « اضجع في حجري. ووجدتُ رسول الله ص. يثقل في حجري فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: بل الرفيق الأعلى من الجنة[2]!

وقالت: « مات رسول الله بين سَحْري ونَحْري[3] وفي دولتي، لم أظلم فيه أحداً.

---

(١) هيكل : حياة محمد ٤٨٧ قابل السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٤ ـ ٣٠٥ وتاريخ أبي الفداء ١ : ١٥٢ .
(٢) قد يعني بذلك جبريل ، لأنه لا يُعقل أن يسمي محمداً الله « رفيقاً » .
(٣) النحر : أعلى الصدر . السحر : أدناه ، وقيل الرئة .

فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله قُبض وهو في حجري. ثم وضعتُ رأسه على وسادة، وقمتُ ألتدم مع النساء وأضرب وجهي[١])) .

وعن عائشة أيضاً: ((كان آخر ما عهد رسول الله ص أن قال: لا يُترك بجزيرة العرب دينان[٢])) !

وكانت وفاة النبي يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول ١١ هـ (٨ حزيران ٦٣٢م).

*

ونزل الخبر كالصاعقة على المسلمين. فتراكض الصحابة ليروا ما حدث. فوقف عمر ابن الخطاب على باب المسجد يخطب في الناس، لأمر في نفسه، ويقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ص. قد توفي. إن رسول الله ص ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات! ووالله ليرجعن رسول الله ص كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول ص قد مات[٣]!)) ـ ربما قال عمر تلك المقالة مخافة الردّة التي كان يشعر بها لئلا تتفرّق كلمة المسلمين.

((وأقبل أبو بكر، وعمر يكلّم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ص في بيت عائشة، ورسول الله ص مسجى في ناحية البيت، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل فقبّله ثم خرج، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

((أيها الناس، إنه مَن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت! ثم تلا هذه الآية: ((وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو **قُتل** انقلبتم على أعقابكم؟! ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين)) (آل عمران ١٤٤) فوالله لكأن الناس **لم يعلموا أن هذه الآية قد نزلت** حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ. **وأخذها الناس عن أبي بكر** فإنما هي في أفواههم[٤])) .

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٥ .
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٣١٦ .
(٣) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٥ .
(٤) السيرة لابن هشام ٤ : ٣٠٦ .

ـ ما السرّ الذي في الآية وفي تعليق السيرة عليها؟ أمن المعقول أن يجهل القوم تلك الآية منذ معركة أُحُد[1] حتى وفاة النبي، وهم الذين حفظوا كل شاردة وواردة من القرآن؟ ... ثم إن كانت نزلت في الخبر الكاذب يوم أُحُد عن مقتل النبي، فما باله يذكر الموت مع القتل؟ وإن قالها أبو بكر يوم وفاة الرسول ـ كما يرشح من نص السيرة ـ فما معنى ذكر القتل مع الموت؟

وبقي النبي ثلاثة أيام لم يدفن. « ثم دفن من وسط الليل، ليلة الأربعاء. قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء[2] » .

فهل من سر في موت محمد وحيداً، وفي دفنه خفية في الليل، حجبته الدهور عنا؟ الله أعلم.

---

(١) قيل إنها نزلت في الخبر الذي شاع في معركة أحد بأن النبي قد قتل ؛ ولذلك وردت في حديث الغزوة من آل عمران (١٤٤) .

(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٣١٦ .

وهناك رواية ثانية بأن النبي قضى نحبه عند زوجه أم حبيبة ، في عناية عمه العباس . وهناك رواية ثالثة ، نقلها ابن سعد ، بأن النبي توفي عند ابنته فاطمة وصهره علي بن أبي طالب . ـ وهكذا تضطرب الروايات عن آخرة محمد .

البحث الثاني

المعجزة القرآنية الإسلامية

ترك محمد أعظم تراث يمكن أن يتركه عظيم: فقد **أنشأ من لا شيء أمة ودينا ودولة** تشغل قسماً كبيراً من العالم إلى اليوم وإلى ما شاء الله. إن محمداً هو باعث القومية العربية وهو محرّر العرب من الخطر الفارسي والرومي الذي بدأ يحيط بأطراف الجزيرة، وهو باني الوحدة العربية في نظام ديني قومي شامل، وهو رافع مجدهم بدولته الدينية: تلك هي المعجزة القرآنية الإسلامية، معجزة دينية وقومية معاً. فيحق للعرب المسلمين أن يتلوا كل يوم ما نزل على نبيهم: « إن الله وملائكته يصلون على النبي! يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً » !

محمد هو باعث القومية العربية الأول. قامت قبلة دويلات عريقة في اليمن. لكن لم يُكتب لها أن تخرج من اليمن، وظل سائر الجزيرة على حالِه من البداوة. وقامت قبله دويلات في تدمر ونجد والبتراء والحيرة وبصرى على مشارف الشام والعراق، ولكنها كانت دويلات محلية، عميلة لغيرها، لم تبن مجداً للعرب، ولم تجعل لهم مكاناً تحت الشمس في تاريخ البشرية. أما محمد بن عبد الله القرشي، فقد ظهر في الحقيقة باعث القومية العربية الأكبر. فالعرب مدينون له مدى الزمن، ما دام على وجه الأرض عرب. هذه هي الناحية الأولى من المعجزة الإسلامية.

ومحمد هو محرّر العرب الأول. قد حرّرهم من خارج بوضع حد نهائي للخطر الذي كان يداهم الجزيرة من الشرق ومن الغرب. فقد كان يقتسم العالم دولتان عظيمتان، وتقتتلان للسيطرة عليه: إمبراطورية القياصرة الروم، وإمبراطورية الأكاسرة الفرس. وكان ميدان التلاقي بينهما الهلال الخصيب في شمالي الجزيرة العربية. وكانت الدولتان تحاولان غزو الجزيرة للسيطرة على طرق المواصلات والتجارة بين الشرق والغرب، والجنوب والشمال؛ وكانت في يد العرب وبلادهم. وقد سيطر الفرس على سواحل الجزيرة الشرقية

وسيطر الروم على السواحل الغربية، منتهزين الفرص ومفتعلين الحيل لابتلاع الجزيرة. وكان اليهود فيها عملاء الفرس، وبعض النصارى أعوان الروم. فقدّر الله للعرب سيد العرب يحرّرهم من ذلك الخطر الخارجي العظيم الداهم. وحرّرهم أيضاً من داخل من الفوضى، والتقاتل، والفقر، والجهل، بالنظام الذي ابتدعه لهم، والحكم الذي فرضه عليهم، والدستور القرآني الذي بنى عليه بعثتهم، وتحريرهم ووحدتهم ودولتهم. وهذه هي الناحية الثانية من المعجزة القرآنية.

ومحمد هو العامل الأول لوحدة العرب الكبرى. كان أكثر العرب خصوصاً في الحجاز على البداوة إلى ظهوره. ويقول ابن خلدون في مقدّمته بأنه قد غلب عليهم طبع التوحش لتوغلهم في البداوة وانعزالهم في صحرائهم. ومن طبع البدوي الانفلات من الخضوع والنظام. وكان يبدو من المستحيل جمع كلمة العرب لأنهم كانوا على اقتتال مستمر في أرض قاحلة لا يقتات فيها إلا من اغتصب الآخرين قوتهم، لذلك كان الغزو عندهم خُلقاً وفروسية. ومحمد نفسه أول من دهش لتجمّع العرب حوله، وعدّ ذلك معجزة من الله: « حسبك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم: لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم! ولكن الله ألّف بينهم إنه عزيز حكيم » (أنفال ٦٢). تلك هي الناحية الثالثة من المعجزة القرآنية.

أخيراً محمد هو باني الدولة الدينية العربية الأولى. التي أعطت العرب حقاً في الحياة، ومجداً في تاريخ الأمم. فلا مجد للعرب في تاريخ البشرية إلا من محمد وبمحمد. ولو كانت دولة الإسلام دولة كسائر الدول لدالت من الوجود كغيرها. ولكن محمداً في عبقرية فذّة لا مثيل لها جعلها دولة دينية تتساند فيها الدولة والدين معاً، فتعلو الدولة حيث يضعف الدين، ويعلو الدين حيث تضعف الدولة، ويظل الدين فيها كالروح من الجسد. تلك هي الناحية الرابعة من المعجزة القرآنية الإسلامية.

وهذه النواحي الأربعة للكيان العربي الإسلامي هي في الحقيقة إعجاز القرآن ومعجزة النبي العربي.

*

* *

بحث ثالث: الخلاف على الخلافة

كادت تلك المعجزة القرآنية الإسلامية الكبرى بين العرب أن تتلاشى بين عشية وضحاها عند وفاة النبي. وهذه الأزمة الأولى والكبرى في الإسلام تظهر بجلاء الفكرة التي رسخت عن الإسلام في ضمير الصحابة وأذهان العرب.

ترك الجميع النبي مسجّى في بيته تبكيه نساؤه، وتفرّقوا شيعاً كلٌّ يريد خلافة النبي « على أمره » لنفسه، وتفرقت كلمة الصحابة أنفسهم بين المهاجرين والأنصار، وبين المهاجرين أنفسهم. « والفتنة التي حدثت بين المهاجرين والأنصار فإنها قد انتشرت بين اليمنيين، وتجاوزت الأوس والخزرج إلى اليمن، وطال عمرها حتى عصر نشوان الحميري في القرن السادس للهجرة[1] » . وانتهت الفتنة بين المهاجرين أنفسهم إلى انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة. واستيقظت العداوة بين آل هاشم وبني أمية.

« قال ابن إسحاق: لما قُبض رسول الله انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة. واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة. وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر وانحاز معهم أُسَيد بن حُضير في بني عبد الأشهل. فأتى آتٍ إلى أبي بكر وعمر فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم. **ورسول الله ص في بيته لم يُفرغ من أمره قد أغلق دونه الباب أهله.** قال عمر لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه ... فانطلقنا نؤمهم. فلما جلسنا تشهّد خطيبهم ثم قال:

« أمّا بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام. وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا. وقد دفّت دافة من قومكم ... وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، **ويغصبونا الأمر!**

« فقال أبو بكر: أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل. ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي قريش: هم أوسط العرب نسباً وداراً. وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم. وأخذ بيد عمر وبيد أبي عبيدة الجرّاح وهو جالس بيننا.

« فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكّك، وعذيقها المرجّب. **منا أمر، ومنكم أمير، يا معشر قريش!**

---

(١) مجلة العربي : نوفمبر ١٩٦٠ص ٥٤ .

« قال عمر: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوّفت الاختلاف. فقلتُ: ابسط يدك، يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار. ونزونا على سعد بن عبادة (وثبنا عليه ووطئناه) فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة! فقلت: قتل الله سعد بن عبادة[١]! ...

« ولما بويع أبو بكر في السقيفة؛ وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر. فقام عمر فتكلم ثم قال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ص، ثاني اثنين إذ هما في الغار. فقوموا فبايعوه. فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

« فلما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز رسول الله ص يوم الثلاثاء. فلمّا فرغ من جهازه وضع على سريره في بيته ... **ثم دفن من وسط الليل، ليلة الأربعاء.** قالت عائشة: ما علمنا بدفن رسول الله حتى سمعنا المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء[٢] » .

ترك الصحابة وآل البيت النبي ثلاثة أيام ملقى حيث مات، وقد أغلق أهله دونه الباب، حتى اتفقوا على خلافته، ودفنوه في جوف الليل.

ولم تكن مبايعة أبي بكر عامة في يومها: « وغضب نفر فلم يبايعوا؛ وقد كان من هؤلاء علي بن أبي طالب. وأدرك عمر أن امتناع علي عن مبايعة أبي بكر ليس امتناع رجل واحد من سائر الناس. وإنما هو امتناع فئة كبيرة نافذة الأمر، فقد كان علي يمثل بني هاشم أسرة الرسول نفسه. فظل عمر يسعى حتى حمل عليّاً على المبايعة، في حديث طويل. وكان من نفاذ بصيرة عمر بن الخطاب أنه لم يطلب الأمر لنفسه[٣] » . وعمر هو الذي كان يوجّه النبي في كثير من الشؤون وهو الذي أنقذ الإسلام من فتنته الأولى بحزمه وسرعة خاطره وقوة تدخله وبطشه.

تلك هي الصورة التي ترسمها السيرة لخلاف الصحابة على خلافة النبي. ومغزاها في هذا الهتاف الذي ذهب صاحبه ضحيته: « منا أمير، ومنكم أمير، يا معشر قريش » ! فيظهر أن القوم بعد موت النبي رأوا في رسالته أمارة أكثر منها نبوة.

*

* *

---

(١) فكان سعد بن عبادة أول ضحية للخلافة .
(٢) السيرة لابن هشام ٤ : ٣١٢ ـ ٣١٦ .
(٣) عمر فروخ : العرب والإسلام ٥٧ .

بحث رابع : حروب الردة

وردة العرب عن الإسلام تدل أيضاً على أن الأعراب جميعاً رأوا في رسالة محمد أمارة أكثر منها نبوة. فما كادوا يسمعون بموت النبي حتى ارتد العرب عن الإسلام ظنّاً منهم أن مبايعة النبي تموت بموته.

« قال ابن إسحاق: لما توفي رسول الله ص عظمت به مصيبة المسلمين. فكانت عائشة تقول: لمّا توفي رسول الله **ارتدت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق.** وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم ص حتى جمعهم الله على أبي بكر[١] » وكان أهل نجد يقولون في ردتهم عن أبي بكر: « نحن نبايع ذا العباءة » !

وتلك النفسية الجاحدة المتمرّدة لم تكن لتخفى على محمد والمقرّبين إليه. فقد ظهرت بوادرها في معركة حنين، من أهل مكة. وتفاقمت حممها في غزوة تبوك، من أهل المدينة، ومن الأعراب جميعاً. فكانت آخر كلمات القرآن فيهم: « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً. فقد مردوا على النفاق مع أهل المدينة. وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول: أيكم زادته هذه إيماناً » (التوبة ٩٨ و١٠٢ و١٢٥). فقد كانت مبايعة العرب للنبي على الإسلام رغبة أو رهبة. وظهر ذلك من الردة الإجماعية عن الإسلام. وكانت المبايعة مع النبي ثم مع خلفائه من الصحابة لسلطان الإسلام أكثر منها لدينه. فلو كانت المبايعة لوجه الله والدين، ما كان من ردّة، وما كان من حروب الردة.

قال الأستاذ عمر أَبو النصر[٢]: « وممّا يلفت النظر في أَمر الجزيرة وسكانها أن القبائل العربية **لم تتقبل الإسلام في أول الأمر عن طيبة خاطر وعن إخلاص.** وهذا ما يفسّر قوّة الردة بعد وفاة رسول الله والواقع أنه ما كاد يعلم الناس بموت رسول الله حتى ظهر الاختلاف. وأول ما ظهر الاختلاف بين المهاجرين والأنصار الذين آخى رسول الله بينهم. فقد رفض الأنصار النزول تحت حكم المهاجرين وقرروا اختيار أَمير منهم. كما رفض بنو هاشم في الوقت نفسه قبول حكم شخص غريب عنهم. وأمَّا موقف العرب الذين أَسلموا مؤخراً في

---

(١) السيرة لابن هشام ٤ : ٣١٦ .
(٢) الحضارة الأموية العربية في دمشق ص ١٣٢ و١٤٢ .

أطراف الجزيرة فقد رفضوا أداء الجزية، **وبعضهم ثار على الحكم الإسلامي، والبعض الآخر أنكر الإسلام.** وهمَّ أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، بل أرادوا ذلك، حتى خافهم عتَّاب بن أسيد، عامل النبي على أم القرى، فتوارى عنهم. ولولا أن قام سهيل بن عمرو فتهدّدهم لما رجعوا عن ردتهم[1])) .

وسيّر الخليفة الأول، أبو بكر، جيوشه إلى كل الجهات، لرد العرب إلى الإسلام وسلطانه. وكانت المعارك الطاحنة حيث نجم المتنبؤون يلعبون دور النبي، مثل مسلمة بن حبيب في بني حنيفة، وسجاج في بني تميم وتغلب، وطلحة في بني أسد. وفي مدى سنتين عادت الجزيرة العربية إلى الوحدة القومية والسياسية على استعداد تام لغزو العالم، بقيادة الخلفاء الراشدين.

فلولا حروب الردة لمَا رجع العرب إلى الإسلام. وكان اقتدى بمثل النبي كثيرون من المتنبئين واقتطعوا لهم دويلات دينية في أنحاء شتى من الجزيرة، وضاعت على العرب الوحدة الدينية والقومية التي خلقها الإسلام.

إنما حروب الردّة، وظهور المتنبئين، تدل على أن العرب كانت ترى في الإسلام دولة أكثر منه ديناً. وارتداد العرب عن الإسلام، وإخضاعهم بالقوة في حروب الردة لدولة الإسلام، توحي أيضاً بأن العرب خضعوا لدولة الإسلام أكثر منه لدين الإسلام الذي رأوا فيه حكماً يُفرض عليهم أكثر منه ديناً يُعرض عليهم.

أخيراً خلاف الصحابة على الخلافة، ومسارعتهم إلى حروب الردّة، تظهر أن القوم كانوا يرون في رسالة محمد أمارة أكثر منها نبوة، لذلك تسمّى الخليفة ((أمير المؤمنين)) لا ((إمام المسلمين)) .

---

(١) حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٩٥.

البحث الخامس

المعجزة العربية في حروب الفتح

كتب الأستاذ عمر فروخ[1]: « كان معظم الذين ساروا لقتال المرتدين من أقدر القواد الذين اشتهروا فيما بعد. فلما عاد المرتدون إلى طاعة السلطة المركزية في المدينة كانت حمية جيوش هؤلاء القواد لا تزال شديدة. ففكر المثنى بن حارثة الشيباني، بعد أن انتهى من قتال أهل البحرين أن يسير بمن معه لقتال القبائل العربية التي كانت تعيش على تخوم شبه جزيرة العرب والتي لم تكن قد دخلت في الإسلام بعد. ولم يكن مع المثنى سوى أربعة آلاف رجل، فأشفق أبو بكر أن تصيبهم هلكة إذا لقوا جيوش الفرس في عَددهم وعُددهم. من أجل ذلك أنجد أبو بكر المثنى بن حارثة بعشرة آلاف رجل بقيادة خالد بن الوليد.

« وكان من أسباب استئناف الفتح، **صرف حمية العرب من قتال بعضهم بعضاً** في قلب شبه جزيرة العرب إلى قتال أعدائهم المحيطين بهم، وتدعيم الحدود العربية في وجه الفرس والروم الذين بدأوا يضيقون صدراً بالدعوة الإسلامية » .

وهكذا لم يكن الهدف الأول من الفتح نشر الإسلام خارج الجزيرة بل « صرف حمية العرب من قتال بعضهم بعضاً، وتدعيم الحدود العربية » . فكرة الفتح العسكري والديني جاءت نتيجة تطورات الثورة العربية الكبرى.

*

وكان غزو الهلال الخصيب في شمال الجزيرة حلم العرب الدائم في صحرائهم. فكانت هجراتهم إليه تفور وتهدأ مثل البراكين إلى أن كانت الهجرة الكبرى في الفتوحات الإسلامية.

---

(١) العرب في الإسلام ص ٥٨ .

قال الأستاذ دروزة[١]: « أخذت بلاد الشام ساحلها وداخلها وجنوبها وشمالها وباديتها، منذ أكثر من **خمسين قرناً** تعمر بالموجات الكبرى التي جاءت إليها من الجزيرة رأساً أو بطريق العراق، والتي عُرفت بأسماء الكنعانيين - والفينيقيون فرع منهم - والعموريين والأراميين؛ وبالموجات الصغرى التي كانت تنساح من حين إلى حين كنتيجة لهذه الموجات الكبرى وتابعة لها. والتي لم تُذكر باسم خاص في الأسفار والآثار. وهذا قبل بروز العروبة الصريحة. ثم بالعريبيّين والثموديين واللحيانيين والقيداريين والنبطيّين والتدمريين والعبابيد والمرسمان والخبايا والدنجريين والقحطيين والبازيين، في أوائل بروز العروبة الصريحة ممن جاء ذكرهم في النقوش والمدونات القديمة وغيرهم ممن لا تُعرف أسماؤهم، ولكن الآثار والقياس يؤيدان انسيحاهم. ثم للعلافيين والجهنيين والبلويين والقضاعيين والضجاعمة والتنوخيين والكلبيين والطائيين والتغلبيين والبكريين والقاسطيين والتميميّين والداريين والغساسنة والايطوريين والعامليين وغيرهم ممن وردت أسماؤهم في المدونات العربية، وبقيت أنسالهم إلى ما بعد الإسلام، والذين كانوا يملئون جنبات بلاد الشام المختلفة. وذلك في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام. وأخذ السابقون واللاحقون ينسكبون في بوتقة هذه العروبة بسهولة ويسر، وتتوارى الشخصيات واللهجات، غير الصريحة في عروبتها؛ حتى إذا جاءت موجة الفتح الإسلامي الكبرى قويت عملية الانصهار وتكاملت حتى غدت العروبة طابع هذه البلاد الخالد » .

فكانت هذه الفتوحات الإسلامية « **المعجزة العربية** »[٢] التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. فهي « حدث من أعجب الأحداث التي عرفها الجنس البشري في تاريخه إطلاقاً »[٣].

*

وهذه المعجزة العربية في الفتوحات الإسلامية ذات ثلاث مراحل.

المرحلة الأولى: معجزة الفتح العسكري. في ظرف سنوات معدودات قضى عرب محمد على الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين كانتا تسودان العالم. قال المستشرق ڤنتيّو[٤]: « وقد وجد خلفاء محمد ظروفاً مناسبة - وضروري أن نقول ذلك - أنهكت فيها

---

(١) الوحدة العربية ص ٣٠ .
(٢) ماكس فانتاجو : المعجزة العربية .
(٣) دراسات إسلامية . ترجمة عن المستشرقين الأميركين . بإشراف الدكتور زيادة ورفقاه . ص ١٥ .
(٤) في (المعجزة العربية) ص ٣٧ .

المعركة الضاربة كلاّ من إمبراطوريتي اليونان والفرس. وكان النسطوريون واليعقوبيون المسيحيون، في سوريا وفلسطين ومصر (وهم أكثرية أهل البلاد)، الذين خضعوا ثانية لنير هرقل سنة ٦٢٦، بعد أن حرّرهم الفرس فترة من الزمن، وأرهقتهم الضرائب وتناولهم الاضطهاد الديني على تفاوت، متهيئين للثورة **واستقبال العرب بعد ذلك بثماني سنوات كفاتحين محرّرين** » .

كانت معركة اليرموك هي الفاصلة بين العرب والروم في سوريا (١١ رجب سنة ١٥ هـ = ٢٠ آب ٦٣٦م). « وكان من العوامل التي انتصر بها العرب على الروم في معركة اليرموك وحدة كلمة العرب، واختلاف كلمة الروم. لقد كان جيش العرب قريباً من عدد جيش الروم، وإن كان الشائع أن جيش الروم كان أكبر من جيش العرب أضعافاً مضاعفة. غير أن العرب كانوا نحو خمسة وعشرين ألفاً أما الروم فكانوا ثلاثين ألفاً أو يزيدون. ولكنهم كانوا أجناساً مختلفة من الروم والعرب والأرمن. وكان قسم كبير من الجنود مقيداً بالسلاسل خوف الفرار! ولما لاح النصر في جانب العرب انحاز أهل الشام من العرب، من الجانب الرومي إلى جانب إخوانهم العرب **على اختلاف بينهم في الدين**. أما الآراميون من أهل الشام فقد استقبلوا العرب بالترحاب هرباً من ظلم الروم ومن الاضطهاد الديني الذي كان سائداً في الإمبراطورية البيزنطية كلها. وكان لمعركة اليرموك أهميتان أساسيتان: أولاهما أنها فتحت طريق سوريا أمام العرب؛ أما الأهمية الثانية فهي أن تلك المعركة دلت على مقدرة العرب في الحروب الخارجية، كما كانت معركة بدر قد دلت على مقدرتهم في الحرب المحلية[١] » .

والمعجزة العربية في هذا: « غزا العرب فلسطين وسوريا البيزنطينيتين دون مجهود كبير بقيادة الخليفة عمر ٦٣٤م. وفي سنة ٦٣٧م سحقوا الفيالق الفارسية وهدموا المدائن، العاصمة الساسانية، ثم أنهوا غزو العراق وفارس. واستولوا أخيراً على مصر سنة ٦٤٣م. وبذلك **قضوا في أقل من عشر سنوات** على الإمبراطورية الفارسية الممتازة وانتزعوا من الإمبراطورية اليونانية أجل مقاطعاتها. كما أشرفوا في الوقت نفسه على طريق الحرير والورق والتوابل. وسيطروا على القسم الأكبر من العالم المتمدّن. وثبتت بيزنطة وحدها أمامهم مرتين (سنة ٦٧٨ و٧٠٧م) بفضل النار اليونانية. وإذ لم يستطع العرب الظفر بالعاصمة نفسها فقد استولوا على أهم ممتلكاتها. وكانت إمبراطوريتهم أكبر

---

(١) عمر فروخ : العرب والإسلام ص ٦٥ .

من إمبراطورية الإسكندر، بل أكبر من إمبراطورية الرومانيين، تمتد من شواطئ المحيط الأطلسي إلى أواسط آسيا[١])) .

فاستقبال نصارى سوريا للعرب ((كفاتحين محرّرين)) يجعل من الفتح العربي فتحاً عسكرياً لا فتحاً دينيّاً في أول الأمر.

وانقسام المسلمين واقتتالهم على الخلافة يوحي أيضاً بأن القوم كانوا يرون في الإسلام وفتوحاته دولة تُفرض أكثر منها ديناً يُعرض.

فعصر الخلفاء الراشدين هو عصر الأولياء والشهداء في الإسلام. ولكن الخلاف المستميت على الخلافة قد شوّه وجه الإسلام الصاعد وخضبه بالدم، وكان سبب اغتيال جميع الخلفاء الراشدين، باستثناء أبي بكر. فعمر بن الخطاب الخليفة الثاني قتله مسيحي، أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة؛ وعثمان بن عفان، الخليفة الثالث قتله عبد الله بن أبي بكر؛ وعلي بن أبي طالب، الخليفة الرابع قتله عبد الرحمان بن ملجم من الخوارج. والاغتيال السياسي ليس من الدين في شيء!

وذاك الخلاف على الخلافة، والاستئثار بالسلطان، شق المسلمين منذ فجر الإسلام إلى سنّة وشيعة وخوارج: لم يفرّقهم الدين، بل فرقتهم السياسة والسلطان. أوصى أبو بكر بالخلافة لعمر بن الخطاب ((فزاد في الوحشة التي كانت قد وقعت بين المهاجرين والأنصار، وبين بني هاشم وسائر المسلمين. وأعلن علي بن أبي طالب أنه قد حيل بينه وبين الخلافة مرة ثانية[٢])).

وزاد الخلاف على الخلافة حدة ذاك التنافس التقليدي بين بني أمية وآل هاشم على الزعامة الدينية والقومية في مكة والحجاز. وقد شوّه وجه الإسلام في سيره كله. فكان سبب تطور الإسلام في الهجرة إلى المدينة من دين إلى دولة دينية؛ وكان سبب انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة وخوارج؛ وكان سبب انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق، وتحويلها من أمارة على المؤمنين إلى ملكية وراثية على العالم الإسلامي؛ وكان سبب انقسام العالم الإسلامي إلى دولة عباسية في بغداد، وأموية في الأندلس، وفاطمية في مصر. وهذا

---

(١) المعجزة العربية ٣٧ .
(٢) عمر فروخ : العرب والإسلام ٦٠ .

الانقسام أدّى إلى الانحلال والانهيار. قال حسين هيكل[١]: «يقتضي التفريق بين فترتين مختلفتين من تاريخ الإسلام: أولاهما من بدء الإسلام إلى مقتل عثمان؛ والثانية من مقتل عثمان إلى أن أقفل الاجتهاد ... بعد مقتل عثمان دب الخلاف بين المسلمين وقامت الحروب الأهلية بين علي ومعاوية، واستمرت الثورات ظاهرة تارة، وخفية أخرى؛ ولعبت الأهواء السياسية دوراً خطيراً في الحياة الدينية نفسها ... وكانت هذه الثورات وما أدّت إليه من انقلاب بعد آخر في أُسس الحكم سبب ما آل إليه أمر الدولة الإسلامية من بعد انحلال وتقهقر».

وهكذا يظهر تاريخ الإسلام منذ فجره نزاعاً سياسيّاً متواصلاً بين المسلمين على دولة الإسلام، كأن الدين سبيل إلى الملك.

*

المرحلة الثانية: الفتح الديني. جاء بعد الفتح العسكري بمئتي سنة. وعلى كل حال بعد العهد الأموي: «حوّل الخلفاء الأمويون جمهورية المدينة الدينية العربية إلى إمبراطورية حقيقية سورية، وذلك بفضل تحرّرهم الفكري وضعف عصبيتهم الدينية. فضربوا الدنانير الذهبية على نسق الدنانير البيزنطية (وعليها الصليب). وجعلوا الخلافة وراثية بعد أن كانت انتخابية، واستعملوا عمالاً كثيرين من الروم والسوريين. وأسندوا إلى المسيحيين مركز الوزير الأول ... فكأن الثورة العربية الكبرى لم تحدث إلا لجعل دمشق عاصمةً للشرق[٢]». وبما أن الناس على دين ملوكهم أخذ الناس شيئاً فشيئاً يدخلون في الإسلام أفواجاً. وبعد مائة سنة ونيف، أخذ الإسلام في الشرق محل دينين عظيمين، دين الإمبراطورية الرومية ودين الإمبراطورية الفارسية. فكان الفتح الديني نتيجة الفتح العسكري، لا سببه.

المرحلة الثالثة: الفتح الثقافي بانتشار اللغة العربية في كل أرجاء الدولة الإسلامية. كان لابد للغة الدين ولغة الدولة من أن تنافس اللغات القومية، كلغة رسمية أولاً، ثم مع تمادى الزمن كلغة الشعب. وهكذا بعد مئتي سنة احتلت العربية وثقافتها المتفاعلة مع الثقافات المحلية، محل اللغات القومية. وكان الفتح العربي الثقافي أبعد أثراً من الفتح الديني والعسكري.

---

(١) حياة محمد . تقديم الطبعة الثانية ص ٦١.
(٢) ماكس فانتاجو : المعجزة العربية ٣٧ الخ .

وهكذا يظهر أن المعجزة العربية في الفتوحات الإسلامية كانت عسكرية سياسية اقتصادية، أكثر منها دينية؛ وإن انتهى بها الأمر إلى السيطرة الدينية المطلقة.

وقارن الأستاذ العقاد بين المعجزة العربية وفتوحاتها، والمعجزة المسيحية وفتوحاتها فقال[1]: « وبعد فمن الحق أن نقول: أن معجزة المسيح الكبرى هي هذه المعجزة التاريخية التي بقيت على الزمن: رجل ينشأ في بيت نجار، في قرية خاملة، بين شعب مقهور، يفتح **بالكلمة دولاً** تضيع في أضوائها دولة الرومان، ولا ينقضي عليه من الزمن في إنجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة في ضمّ إقليم واحد، قد يخضع إلى حين ثم يتمرّد ويخلع النير، ولا يخضع **كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والأجسام** » .

---

(١) حياة المسيح ١٩٧.

[Blank Page]

خاتمة القسم الثاني :

إسلام القرآن وإسلام الكتاب

« **ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب** »
(يونس ٣٧)

« **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس** »
(البقرة ١٤٣)

« **هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا** » **القرآن**
(الحج ٧٨)

[Blank Page]

أولاً : الواقع القرآني والنبوي

كلمة الفصل في خاتمة هذا الكتاب (أطوار الدعوة القرآنية) أَن إسلام القرآن الكريم من إسلام الكتاب المقدّس: « هو سمّاكم المسلمين من قبلُ (في الكتاب) وفي هذا » القرآن (الحج ٨٧).

جاء القرآن في مكة تعريباً للتوحيد الكتابي، التوراتي ـ الإنجيلي: « وما كان هذا القرآن ليُفترى من دون الله، ولكن تصديق الذي بين يديه، وتفصيل الكتاب، لا ريب فيه، من رب العالمين » (يونس ٣٧)؛ فالقرآن كله في مكة تصديق وتفصيل للكتاب الإمام » الذي نزل من قبله (هود ١٧ أَحقاف ١٢). وكان القرآن في المدينة تأسيس التوحيد الكتابي، قوميّاً عربيّاً، في « أمّة وسط » أي دين وسط بين الموسوية والمسيحية: « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (البقرة ١٤٣) وهذه الأمة الوسط هي إسلام القرآن حصراً.

يعني القرآن « **بالإسلام** » التوحيد المنزل في التوراة والإنجيل والقرآن (حج ٨٧). لذلك فإبراهيم وإسماعيل مسلمان (بقرة ١٢٨) والآباء والأسباط من بني إسرائيل مسلمون (بقرة ١٣٢) وموسى، والنبيون من بعده، وعيسى مسلمون (بقرة ١٣٦) والحواريون رسل عيسى إلى العالم مسلمون (آل عمران ٥٢). فليس الإسلام ميزة التوحيد القرآني وحده، بل إسلام القرآن نسخة طبق الأصل عن إسلام الكتاب الإمام: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » (هود ١٧). وهذه النسخة العربية للكتاب الإمام لا تختلف إلاّ باللسان العربي: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة، وهذا كتاب مصدّق، لساناً عربيّاً لينذر الذين ظلموا (المشركين) وبشرى للمحسنين » (أحقاف ١٢): لذلك تأتي النبيّ الأوامر تترى ليتبع هدى الكتاب وأَهله: « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ...

أولئك الذين هدى الله، فبهداهم اقتدِ » أيها النبي (أنعام ٩٠). وفي حالات الشك من نفسه على النبي أن يطمئن ذاته لدى أَهل الكتاب: « وإن كنت في شكل مما أوحينا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك: لقد جاءَك الحق من ربك، فلا تكوننَّ من الممترين » (يونس ٩٤). فما بين القرآن والكتاب انتساب ونسب، وأهل القرآن « أمة واحدة » مع أهل الكتاب (مؤمنون ٥٣ أنبياء ٩٢).

يظل هذا الإسلام **العام** قائماً في المدينة ما بين القرآن والكتاب: إسلام القرآن هو إسلام التوراة والزبور والنبيّين والحكمة والإنجيل، في تصاريح جامعة مانعة (بقرة ١٣٦ آل عمران ٨٤ نساء ١٣٥). ولكنه أخذ منذ الهجرة النبوية يتطور إلى إسلام **خاص**، في « أمة وسط » بين اليهودية والمسيحية، ديناً قوميّاً عربيّاً، على الحنيفية الكتابية ـ لا على الحنيفية العربية المستقلة كما كان قبل بعثة محمد (بقرة ١٢٥ آل عمران ٦٤ ـ ٦٧ نساء ١٢٤). وأخذت ميزات هذا الإسلام القرآني الخاص تتجلّى شيئاً فشيئاً: بتأسيسه « أمة وسطاً » في عقيدته وشريعته وصوفيته؛ يكون فيها ديناً ودولة معاً، بكل مقوّمات الدولة من أمة متميّزة، ذات حكم إلهي، وقوة عسكرية تحمي الأمة، وبيت مال يجبى من الغزوات والصدقات والجزية، ليؤمّن جيش الأمة، والحكم النبوي، والحياة الاجتماعية والاقتصادية للجماعة؛ وذلك لكي يظهر هذا « الإسلام الوسط » على الدين كله، ولو كره المشركون والكتابيون (توبة ٣٥).

ذاك هو الواقع القرآني. وهذه بعض مقوّماته.

*

بيئة القرآن والنبي بيئة كتابية

كانت هذه خلاصة كتابنا الأول من (القرآن والكتاب).

يحلو لبعضهم من الشرق والغرب أن ينكروا وجود جاليات مسيحية ويهودية في مدن الحجاز، مكة والمدينة والطائف، ووجود مسيحيين عرب ويهود مستعربين، فيها وفي الأعراب الضاربين حولها. ويحلو لهم أكثر أن ينكروا وجود ترجمة عربية للتوراة والإنجيل في الحجاز. ويحلو لهم أكثر فأكثر إنكار كل اتصال لمحمد بالكتاب وأهله.

والقرآن شاهد عدل على عكس ذلك. فاستشهاده الدائم في مكة بأهل الكتاب، وجداله المتواصل في المدينة مع الكتابيين من يهود ثم نصارى، ظاهرة واضحة في كل سورة، لا تفهم إلا بوجود لهم متأصل نافذ. يمدح القرآن رهبان عيسى: « ليسوا سواءً:

من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » (آل عمران ١١٣). رهبان عرب وغير عرب يتلون كتاب الله، الإنجيل والتوراة، في الحجاز، فبأيّ لغة يتلونه: أليس بالعربية؟ وعن اليهود يقول: « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون: هذا من عند الله » (بقرة ٧٩)؛ ويزيدنا وضوحاً تهديده للربانيين: « الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب » (١٥٩ و١٧٤)؛ ويتحدّى اليهود المعارضين: « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » (آل عمران ٩٣): كيف تصح هذه التأكيدات والتهديدات والتحديات المتواترة إذا لم يكن في مكة والمدينة والحجاز جالية يهودية، تترجم الكتاب، وتتلوه على العرب؟ وكيف يصحّ تحدّي القرآن، وكيف يشهد السامعون العرب على صدق اليهود أو كذبهم، إذ تلوا التوراة بغير لغة العرب؟ ففي مكة والمدينة والحجاز جماعات مسيحية ويهودية، عربية وغير عربية تتلو التوراة والزبور والإنجيل بالعربية. وتلاوة الإنجيل والتوراة جزء لا يتجزأ من صلواتهم.

ويستخلص المفسرون المخلصون، أمثال الأستاذ دروزة[1]، من الواقع القرآني وجود **مئات** من المسيحيين واليهود في مكة والمدينة: « والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا، بأن **آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى**، ومنهم البدو ومنهم الحضر ... وفيها دلائل على ما كان عند عرب الحجاز، وعرب مكة خاصة، من إلمام غير يسير بالنصرانية وعقائدها وقصصها وإشكالات ولادة المسيح ص. وبنوته وصلبه، وما كان فيها من مذاهب وآراء. وطبيعي أن يكون لهذا كله ردّ فعل في نفوسهم ومعارفهم وعقولهم وعقائدهم. ويدل على التأثر بهم بطبيعة الحال. وإذا أريد أن يقال أنه لم يكن في بيئة النبي ص. الخاصة من النصارى ما يمكن أن يكون له أثر بالغ في العرب، كالذي يمكن أن يكون لليهود بسبب كثرتهم؛ فينبغي أن لا ننسى: أنه كان في مكة من النصارى الذين هم مظنة علم وتعليم ما يكفي لتأثير نابهيها الذين قادوا حركة المعارضة للنبي ص. والذين حكى القرآن على الأغلب مواقفهم وأقوالهم، وأن مشركي مكة ذهبوا فيما ذهبوا إليه أن النبي ص. قد تعلّم وتأثر بهم (نحل ١٠٣ فرقان ٤)؛ وأن لا ننسى تلك **الألوف المؤلفة من متنصّرة العرب** الذين كان الحجازيون خاصة يفدون ويروحون إليهم في أسفارهم ورحلاتهم، ويخالطونهم مخالطة الشقيق، ويتفاهمون معهم

---

(١) نقلنا في الصفحات ٢٥٨ ، ٢٦٣ من الكتاب الأول تحليلاته القيمة .

بلسانهم القومي المشترك؛ وأن لا ننسى أيضاً أن كثيراً منهم كانوا يشهدون مواسم الحج وأسواقه، ومنهم مَن كان يبشر ويخطب كقس بن ساعدة؛ وأن الصلات والتقاليد القبلية كانت تجمع النصراني من العرب برابطة الآباء والأجداد ربطاً وثيقاً تتصل أواصره وتستمر؛ وأنه كان كثير من العرب غير النصارى، وخاصة الحجازيين، يصهرون إلى عرب النصارى وبالعكس، فتزداد هذه الأواصر والمظاهر قوة ولحمة؛ وإن هذا كله من شأنه أن يهيئ لعرب الحجاز الفرص الكثيرة الوافية للإطلاع والاستماع والدرس والتأثر[1] ...

*

ترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية

قال أيضاً الأستاذ دروزة: « وهناك نقطة أخرى متصلة بهذا البحث عن اليهودية والنصرانية العربية ثم بالثقافة العربية بوجه عام، وهي ما إذا كانت **التوراة والإنجيل في عصر النبي وبيئته منقولاً** إلى العربية أم لا؟ ـ إن القرآن يحكي مواقف حجاج ومناظرة دينية بين النبي ص. من جهة والنصارى واليهود من جهة أخرى ... والقرائن القرآنية تلهمنا من جهة، والتاريخ المتصل بالمشاهدة من جهة أخرى يخبرنا بأن آلافاً مؤلفة من العرب كانوا نصارى، ومنهم البدو ومنهم الحضر؛ واستتباعاً لهذا فإن السائغ أن يقال: إنه لا بدّ من أن يكون بعض أسفار العهد القديم والعهد الجديد، إن لم يكن جميعها، قد ترجمت إلى العربية قبل الإسلام وضاعت فيما ضاع من آثار عربية مدونة في غمرات الثورات والفتن والحروب. ولعلّ ما في القرآن من أسماء وكلمات معرّبة كثيرة، ومن تعابير مترجمة متصلة بمحتويات هذه الأسفار، مما تصح أن تكون قرائن على ذلك. ونرى أن هذا هو الذي يستقيم مع وجود عشرات ألوف العرب النصارى، **وآلاف الرهبان والقسيسين العرب، ومئات الكنائس والأديار العربية**[1] » .

وفي القرآن دلائل وإشارات وتصاريح من مكة والمدينة على وجود الكتاب مترجماً في زمن النبي وبيئته يتلوه أهل الكتاب العرب، بالعربية؛ وتدل أيضاً على اتصال محمد بالكتاب وأهله شخصيّاً .

---

(١) دروزة : عصر النبي ص. وبيئته ٤٥٦ ـ ٤٥٨ .
(١) الأستاذ عزت دروزة : عصر النبي وبيئته ٤٦٨ ـ ٤٦٩ .

أهل الكتاب العرب « يتلون الكتاب حق تلاوته » (بقرة ١٢١) وإن كتموا بعضه على الناس أو فسّروه على هواهم. ورهبانهم « أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » (آل عمران ١١٣): فالكتاب موجود في الحجاز مترجماً، يتلونه ليل نهار. ولو لم يشاهدهم النبي ويتأثر بهم لمَا مدحهم هذا المدح الرائع. والربانيّون والأحبار، مثل الرهبان، يتلون كتاب الله، وبه يحكمون بين الناس « مما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (مائدة). يقول « كتاب الله » : فهو الكتاب المنزل ذاته غير محرّف.

ومحمد يلوم العرب على إغفالهم دراسة التوراة والإنجيل في قولهم: « إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنّا عن دراستهم لغافلين » (أنعام ٥٦). لذلك فمحمد لا يرد على تحديهم له: « وليقولوا: درست » (أعراف ١٥٦). بل يستعلي عليهم بهذه الدراسة: « أم لكم كتاب فيه تدرسون » ؟ « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » ؟ فالكتاب يكتب ويُدرّس لدى النبي، وهو يفخر بذلك على العرب.

والقرآن يصرّح بأن محمداً يلتقي بالكتاب بدون شك: « لقد آتينا موسى الكتاب، فلا تكن في مرية من لقائه، وجعلناه هدى لبني إسرائيل » (سجدة ٢٣): فالكتاب موجودة بالعربية، ومحمد يلتقي به ويتصل بأهله.

وهذا الاتصال أكثر من لقاء، بل هو إقتداء بهداه: « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتدِ » أيها النبي (أنعام ٩٠). على النبي أن يقتدي بهدى الكتاب وأهله: فالكتاب وأهله حول النبي.

وإلى الكتاب وأهله يجب أن يرجع النبي فيما استغلق عليه: « وإن كنت في شكّ ممّا أوحينا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك » (يونس ٩٤): فالكتاب يُقرأ في مكة بالعربية، وبأهله يسترشد النبي فيما أُغلق عليه منه ومن القرآن. وإليه يحيل معارضيه: « واسألوا أهل الذكر، إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزُبُر » . وعند الحاجة يتحدّى اليهود أن يأتوا بالتوراة ويتلوها أمام العرب (آل عمران ٩٣): فبأي لغة يتلونها أمام العرب إن لم يكن بالعربية؟ وكيف يتلون الكتاب للعرب إن لم يكن موجوداً بالعربية؟

وهكذا نفهم استشهاد القرآن الدائم بأهل الكتاب (رعد ٤٥) واعتباره القرآن تصديقاً للكتاب وتفصيلاً (يونس ٣٧) وحارساً له مهيمناً عليه (مائدة ٤٨)؛ لأن الكتاب « إمامه » (هود ١٧) به يهتدي وبه يقتدي (أنعام ٩٠).

ومجموع هذه الشهادات يوضح بجلاء أن التوراة والإنجيل كانا مترجمين إلى العربية شائعين في مكة والمدينة؛ وأن محمداً كان على اتصال دائم بهما وبأهلهما.

*

اتصال محمد الدائم بأهل الكتاب للبحث في الدين والتوحيد

أجمعت الآثار الإسلامية على أن محمداً قبل بعثته كان من الحنفاء المثقفين الذين يتجولون مستطلعين باحثين عن التوحيد. وسورة الضحى تشهد بأنه اهتدى إلى التوحيد الكتابي قبل بعثته. والقرآن يشهد أيضاً أنه ظل على اتصال مع أهل الكتاب بعد بعثته، فكان محمد في مكة « أمة واحدة » معهم (مؤمنون ٥٣ أنبياء ٩٢) حتى اتهمه المشركون أنه يتعلم القرآن منهم.

« والذي يتبادر على الذهن أن الكفار لم يكونوا ليقولوا ما قالوه في آية النحل « ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلمه بشر » (١٠٣) وآية الفرقان « إن هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون (٤) لو لم يروا ويعرفوا أنه كان للنبي **حلقة رفاق، أو رفاق، يجتمعون إليه ويجتمع إليهم** ويتحدثون عن الأمور الدينية. وليس من المستبعد، إن لم نقل من المرجّح، أن هذا كان قبل البعثة، ثم امتدّ إلى ما بعدها، وأن يكون من هؤلاء الرفاق أفراد من الجالية الكتابية ...

« وآية العنكبوت (٤٧) قد حملت على ما يبدو بعض المسلمين على **نفي الاكتساب العلمي عن النبي.** ونحن لا نرى حكمة أو ضرورة تحمل هؤلاء العلماء على نفي الاكتساب العلمي عن النبي ص. قبل بعثته، وبذل الجهد في النفي. كما أننا لا نرى هذه الآيات تتعارض مع صحة القول بأن النبي قد اكتسب معارف كثيرة مما كانت تحويه الكتب الدينية وغيرها من مبادئ وأسس وتشريعات وقصص، ومما كان يدور على ألسنة الناس من مثل ذلك، كتابيين أو غير كتابيين، بسبب تلك الاتصالات التي تلهم وقوعها الآيات القرآنية، وبسبب الرحلات التي أجمعت الروايات على أن النبي ص. قام بها، وبسبب طبيعة وجوده في بيئة تُلمّ إلماماً غير يسير بهذه المعارف. فإن أهل بيئة النبي ص. كانوا على **اتصال دائم بالأمم الكتابية** وغير الكتابية، عن طريق المستقرين منهم بالحجاز، وعن طريق الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة. وان كثيراً من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم وأحوالهم قد تسرّبت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة. وليس من

الطبيعي، ولا من المعقول أن يبقى النبي ص. في عزلة أو غفلة عن هذا كله[1] » .

والقرآن المكي شاهد عدل، لا على الاتصال بأهل الكتاب فحسب، بل على الاندماج معهم في « أمة واحدة » (مؤمنون ٥٣ أنبياء ٩٢).

*

فهل كان محمد أميّاً ؟

وقد آن لنا أن نتخلّص نهائيّاً من الأسطورة الرائجة. والخرافة الشائعة عن أمية محمد. درج القوم على إسناد تلك الأمية المزعومة إلى أساس من القرآن مغلوط، حيث يسمّي محمداً « النبي الأمي » (أعراف ١٥٦). وقد فاتهم أن القرآن يأخذ هذه الصفة هنا، لا بمعناها اللغوي، بل بمعناها الاصطلاحي الذي أشاعه اليهود في مهاجرهم والحجاز: فكل ما عداهم من الناس « أميّين » أي من « الأمم » الذين لا كتاب منزلاً لهم. فالعرب كتابيون وأميّون: « قل للذين أوتوا الكتاب والأميّين: أأسلمتم؟ » (آل عمران ٢٠). لذلك فمحمد نبي « أمي » أي من الأميين العرب: « هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم » (جمعة ١). فالقرآن لا يقول بأن محمداً كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، بل أنه « النبي الأمي » أي العربي. ويشهد القرآن على سعة ثقافة محمد واطّلاعه على سائر معارف بيئته.

وأسطورة الأميّة روّجها كتاب (إعجاز القرآن) ليسندوا إليها معجزة الإعجاز. كأن الثقافة والنبوّة لا تجتمعان. وأكثر أنبياء بني إسرائيل كانوا على ثقافة عالية، وسيدهم موسى الكليم قد تثقف قبل بعثته في قصر فرعون بكل ثقافة المصريين. وكذلك محمد فقد تثقف بكل ثقافة الأرستقراطية القرشية، مثل ابن عمه، علي بن أبي طالب، تِرْبه في نشأته.

والسيرة النبوية تشهد بأن محمداً قبل بعثته كان تاجراً دوليّاً ما بين اليمن والشام، وتاجراً ناجحاً، ممّا حمل السيدة الثرية خديجة على الزواج منه. وقيادة تجارة كبيرة دولية ناجحة زمناً طويلاً تقتضي في صاحبها ثقافة وافرة.

والسيرة تشهد أيضاً بأن محمداً قبل بعثته كان حنيفاً كبيراً يستطلع أخبار الدين والتوحيد، ويطلبها عند أهلها في حله وترحاله، ويتحنّف مثل الحنفاء والرهبان، يتأمل في الوجود ورب الوجود. وليست هذه حال الأميين، بل حال أهل الثقافة والصوفية.

---

(١) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٣٧ .

فقد كان النبي بحَّاثة دينيّاً، واسع الاستطلاع شامل الإطلاع.

*

وهل عرف محمد الكتاب المقدس؟

يظهر أن آية العنكبوت تنفي ذلك: « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » (٤٨).

والآية تنفي التلاوة المباشرة، والكتابة الشخصية. لكنها لا تنفي الاستكتاب، ولا تنفي سماع التلاوة. وطريقة الدرس القديمة كانت على الأغلب بالسماع.

وفي سورة الأنعام آيتان متكاملتان تؤكدان أن محمداً درس الكتاب على الذين كان القرآن « آيات بيّنات في صدورهم » أي أهل العلم والكتاب (عنكبوت ٤٩): درس الكتاب ليبيّنه للعرب: « وكذلك نصرّف الآيات. وليقولوا: درست! ـ ولنبيّنه لقوم يعلمون » (أنعام ١٠٥): يتهمونه بالدرس فلا يردّ التهمة بل يؤكدها بقوله إنه درس ليبيّنه للذين يقولون: « إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين » (١٥٦). ويزيد ذلك تصاريح القرآن بأنه نسخة عن الكتاب « الإمام » (هود ١٧ أحقاف ١٢) تصديقاً وتفصيلاً له (يونس ٣٧).

والسرّ الكبير في حياة محمد وثقافته الكتابية والإنجيلية هو وجود العالم المسيحي، ورقة بن نوفل من بني أسد، ابن عم السيدة خديجة، في جوار النبي، وهو الذي أزوجه ابنة عمه. فقد أجمعت الآثار[1] على أن ورقة قد تنصّر وكان يترجم التوراة والإنجيل إلى العربية. فهو إذن عالم مسيحي كبير، يدعو بالترجمة إلى مسيحيته. وقد عاش محمد في جواره خمسة عشر عاماً قبل مبعثه: ألا تكفي هذه المدة لنابغة العرب، محمد بن عبد الله، لكي يأخذ عن نسيبه شيئاً من علوم التوراة والإنجيل؟

وينص صحيح البخاري أيضاً على أن ورقة هو الذي ثبّت محمداً في دعوته وبعثته لمّا عاد خائفاً من غار حرّاء. وينص أخيراً على أن الوحي القرآني فتر لمّا توفي ورقة، وحاول محمد الانتحار مراراً لفقده وفتور الوحي.

ونجد في المدينة في معيّة النبي حاشية مسيحية ويهودية قد أَسلمت أو سايرت الإسلام:

---

(١) صحيح البخاري (١ : ٢) وصحيح مسلم ؛ وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للمسعودي .

نجد بلالاً الحبشي مؤذّن النبي، وصهيب الرومي المسيحي الثري، وسلمان الفارسي المسيحي الأصل، وعبد الله بن سلام اليهودي الوحيد الذي أسلم في المدينة مع كعب الأحبار. وهل كان حديث هذه الحاشية الكريمة الدائم سوى التوراة والإنجيل والقرآن؟

فوجود العالم المسيحي مترجم الكتاب إلى العربية، ورقة بن نوفل، في جوار محمد، خمسة عشر عاماً قبل البعثة، وأعواماً بعدها في أوائل الدعوة؛ ووجود هذه الحاشية الكريمة في المدينة مع النبي في كل زمان ومكان، حجة قاطعة على أن بيئة النبي والقرآن كانت كتابية من كل نواحيها، وأن ثقافة محمد والقرآن كتابية في كل مظاهرها. وذلك في معزل عن الوحي والتنزيل.

فبين القرآن والكتاب انتساب ونسب يجعلان إسلام القرآن من إسلام الكتاب.

كيف نفسر هذا الواقع القرآني، في معزل عن الوحي؟

*

* *

[Blank Page]

ثانياً : هل للقرآن من مصادر؟

المصدر الأول للقرآن هو الله، وهذه قضية إيمانية لا تُمس.

والتفسير الإسلامي مشهور: الكتاب الأزلي في اللوح المحفوظ واحد، نزل على موسى توراة، وعلى داود زبوراً، وعلى عيسى إنجيلاً، وعلى محمد قرآناً (آل عمران ١ ـ ٣). وكلّها تعلّم التوحيد الوحيد المنزّل، وشرائعه الجوهرية، وإن اختلفت التكاليف الثانوية بحسب تطور الوحي والبشرية. وبحسب القرآن لم يتطور التوحيد من نوح إلى موسى إلى عيسى إلى محمد؛ وإنما تطورت الشرائع والتكاليف.

ولكن العقيدة الإيمانية لا تمنع التعليل العلمي المنسجم مع الإيمان.

الكتاب « إمام » القرآن: فما هي علاقة القرآن بالكتاب الإمام؟

خارج العالم الإسلامي، ظهرت ثلاث نظريات عن مصادر القرآن، لتفسّر علاقة القرآن بالكتاب. اثنتان ما بين تفريط وإفراط، والثالثة وسط بينهما.

قيل: إسلام القرآن هو تعريب اليهودية.

منذ سنة ١٨٦٣م جعل الأستاذ جيجر مصدر القرآن يهوديّاً في توحيده وشريعته وأسلوبه. وسادت هذه النظرية في القرن التاسع عشر. ولها ممثلون في القرن العشرين، أمثال لامنس[١] وهو يقول أيضاً « حيث التفكير القرآني مسيحي، يكون التعبير يهوديّاً » ؛

---

(١) Une adaptation arabe du monothéisme biblique- dans Recherches de Sciences religieuse 1917 p. 161- 186.

وأمثال لسْترنسكي[٢]. وظهر مؤخراً كتاب بتوقيع (حنا زخريا[٣]) بعنوان « الإسلام محاولة يهودية » قام بها ربَّان مكة لتهويد العرب بواسطة محمد. وهنا بلغ الإفراط ذروته. وهذه النظرية لها سند من القرآن في قوله: « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة » ولكنها لا تفسر القرآن كله.

قيل: إسلام القرآن هو تعريب المسيحية.

وهذه نظرية قديمة ترتقي إلى يحيى الدمشقي، ابن وزير معاوية، فقد كان يعتبر الإسلام « بدعة نصرانية » . وهذه شهادة قيمة تظهر لنا سهولة استسلام أهل الشام للفتح العربي، وتعاون الأمويين والمسيحيين في الحكم. وتجددت النظرة في العصر الحديث، مع المستشرق الكبير فلهوزن[٤] وزميله وِنْسِنك[٢]. وبلغت ذروتها في دراسات الأستاذ (تور أندره[٥]) الشهيرة الذي يعتبر ثقافة محمد مسيحية « نسطورية » وهذا أيضاً تفريط لا مبرر له في القرآن والسيرة. وهذه النظرية لها سند من القرآن في مثل قوله: « وآمنوا بالنبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلمته » (أعراف ١٥٧) ولكنها لا تفسر القرآن كله.

قيل: إسلام القرآن هو إسلام اليهودية والمسيحية مؤتلفا.

ويسلك المستشرقان العظيمان نلدكه وجولدتسيهر طريقاً وسطاً، فهما يعتبران إسلام القرآن تعريب اليهودية والمسيحية معاً على الطريقة الحنيفية القومية، في وحدة مؤتلفة بلسان عربي مبين. وهذه النظرية أقرب إلى معطيات القرآن والسيرة، وإلى تصريح القرآن بأن الإسلام « أمة وسط » (بقرة ١٤٣) بين المسيحية واليهودية. ولكنه فاتهما ما في هذه النظريات الجزئية من تعارض تبقى معه مشكلة المصادر قائمة؛ ما في الدعوة القرآنيّة من أطوار، وما في شخصية النبي من استقلال.

*

فليس في القرآن من مصادر، بالمعنى العلمي، أَي « اقتباسات » .

---

(٢) Dans Revue Der Islam 1911 t II p. 286- 291.
(٣) L'Islam, entreprise Juive, 1955 par Hanna Zakarias.
(٤) Reste Arabischen Heidentums.
(٥) Tor Andræ: Les Origines de I'Islam et le Christianisme. Mahomet, sat vie et sa Doctrine.

إنما في الدعوة القرآنيّة أطوار تطورت فيها بتأثير تجارب دينية متتابعة، حتى أخذت صيغتها النهائية في العهد الأخير بالمدينة.

يظهر أن اتصال محمد بالكتاب، كان بالكتب « المنحولة » المفسّرة للعهد العتيق والجديد، عند اليهود والنصارى أكثر منه بالكتاب المقدس الرسمي، بسبب شعبيتها. وكان اتصاله غالباً بواسطة البيئة وعن طريق السماع. والاتصال عن طريق البيئة أبلغ من الاتصال الفردي.

وهذا يعود إلى شخصية محمد الفذة المستقلة، ونشوئها على الحنيفية العربية المستقلة. يظهر لنا ذلك من السيرة والقرآن. فلو كان محمد شديد التأثر ببيئته لكان تبع نسيبه ورقة بن نوفل، مترجم الإنجيل إلى العربية، في نصرانيته. لقد اهتدى محمد في جوار ورقة إلى التوحيد الكتابي الإنجيلي لكنه لم يصر مسيحيّاً مثل ورقة. والقرآن يطري السيد المسيح وأمه إطراءً بالغاً فوق الأنبياء والمرسلين، لكنه ليس مسيحيّاً. وقد اتجه محمد إلى التوحيد التوراتي حيناً، فكان كتاب موسى إمامه « ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمةً » ولكنه لم يتهوّد في مكة، وقاوم اليهود في المدينة. وكان قبل مبعثه حنيفاً، ثم اهتدى إلى التوحيد الكتابي « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » (شورى ١٥). وفي المدينة دَمَج التوحيد الحنيفي بالكتابي، فكان حنيفاً كتابيّاً. وقد تطوّر النبي في تجاربه الدينية واستقل بالإسلام على « أمة وسط » ؛ وهذا الاستقلال في العقيدة والشريعة، دليل الاستقلال في الشخصية، بقطع النظر عن الوحي والتنزيل.

لذلك نقول ليس للقرآن مصادر بالمعنى العلمي. إنما هي تجارب دينية متعدّدة مرّ بها النبي الأمي وهو يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته؛ وقد رسب منها في وجدانه الحي أشياء وأشياء صهرتها وطوّرتها عبقريته الفذّة في التنزيل القرآني.

وقد مرّت اختبارات النبي الدينية ودعوته القرآنية بأطوار خمسة تظهر واضحة في القرآن الكريم، بحسب ترتيبه التاريخي الإسلامي.

*

سبق الدعوة القرآنية عهد تمهيدي حنفي، في جوار الحنيف المسيحي الكبير ورقة بن نوفل مدة خمسة عشر عاماً، اهتدى فيها النبي إلى التوحيد الكتابي. وقام بدعوته القرآنية مدفوعاً من نفسه ومن علُ، بعد اعتكافات طويلة.

فكان العهد الأول من الدعوة القرآنية ((مسيحياً)) ينذر فيه النبي آل بيته وقومه بيوم الدين، في معرض الإصلاح الاجتماعي، بأسلوب الأقسام القومية الغربية.

وكان العهد الثاني من الدعوة القرآنية ((إسرائيلياً)) ، بعد هجرة جماعته الصغيرة إلى الحبشة المسيحية. في هذا العهد يدعو النبي إلى التوحيد الخالص بأسلوب القصص القرآني، حيث يصوّر موقف الحاضرين، بأحوال الغابرين.

وكان العهد الثالث من الدعوة القرآنية ((كتابياً)) أي إسرائيلياً مسيحياً معاً، يدعو فيه النبي، بعد الهجرة الشخصية إلى الطائف، إلى الإيمان بالله واليوم الآخر معاً، في ((أمة واحدة)) مع أهل الكتاب، وهو يتطلَّع إلى الاستقلال عنهم.

وتمّ الاستقلال فالانفصال في الانقلاب العميق الذي طرأ على الرسول والرسالة بالهجرة الكبرى إلى المدينة.

فكان العهد الرابع من الدعوة القرآنية، **وهو المدني الأول، عهد تأسيس التوحيد الكتابي ((أمة وسطاً)) بين الموسوية والمسيحية،** على الحنيفية الكتابية، في دولة دينية، مع الدفاع عنها بالسلاح حتى فشل غزوة الخندق.

وكان العهد الخامس والأخير من الدعوة القرآنية، وهو المدني الثاني ((العهد الإسلامي)) ، الذي انتهى إليه النبي في تجاربه الدينية، ورست عليه الدعوة القرآنية، منذ صلح الحديبية مع أهل مكة. فصارت ((الأمة الوسط)) الإسلام حصراً. وقد فرضه النبي على الحجاز والجزيرة ((بالحديد الذي فيه بأس شديد)) حيث لم تنجع الدعوة ((بالحكمة والموعظة الحسنة)) .

وكانت وصية القرآن الأخيرة لأمته في صدر سورة براءة: قاتلوا المشركين من العرب كافة حتى يدينوا بالإسلام؛ وقاتلوا أهل الكتاب من العرب حتى يخضعوا لسلطان الإسلام، وهم على دينهم، حتى يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وكانت وصية النبي لصحابته على فراش الموت: ((لا يُترك في جزيرة العرب دينان)) فالسيادة فيها لإسلام القرآن.

فإن ((الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيُقتلون ويَقتلون، وعداً عليه حقاً، في التوراة والإنجيل والقرآن)) (توبة ١١٢).

بهذا الجهاد السلمي والحربي بعث النبي العربي القومية العربية، وحرر العرب من

الاستعمار الشرقي والغربي، الفارسي والرومي، ووحّد العرب، ووطّد الإسلام دولة دينية قومية جعلت العرب أهلاً لأن يكونوا سادة العالم مدى أجيال.

وفي الأطوار الخمسة التي مرت بها الدعوة القرآنية، أنشأ النبي العربي، بالقرآن والسيف، أمة وديناً ودولة، كان لها تحت الشمس محلاً فسيحاً مجيداً.

*

* *

[Blank Page]

ثالثاً : شخصية النبي العربي

كانت شخصية محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي، النبي العربي، مجموعة عبقريات، مكّنته من تأسيس أمة ودين ودولة من لا شيء. وهذا لم يجتمع لأحد من عظماء البشرية.

كان محمد عبقرية دينية. يميل إلى الدين بالفطرة. وما بين تجارته ومعيشته ينفرد إلى التحنّف والاعتكاف والتأمل في الدين والتوحيد، والوجود ورب الوجود. ويدعو ثلاث عشرة سنة إلى إصلاح الدين والدينا، وسط السخرية والاضطهاد ومحاولات الاغتيال. ثم يفرض دينه بالجهاد الذي لا يقنط ولا يكلّ مدة عشر سنوات، تقوم فيها جزيرة العرب كأنها على فوهة بركان. ويتوج حياته الدينية بتأسيس دين التوحيد الخالص الذي يُرضي عقلاء البشرية جمعاء، فالتوحيد فطرة الله التي فطر الناس عليها.

*

وكان محمد عبقرية سياسية. يعرف كيف يجمع المؤيدين والأنصار، ويداور المنافقين والأشرار. ويعرف كيف يساوم ويقاوم، وكيف يماطل ويقاتل، وكيف ينكسر وينتصر. وأجلى مظاهر عبقريته السياسية: تطوير الدين إلى دولة دينية تناسب البيئة البدائية البدوية التي يريد أن يسيطر عليها ديناً ودولة. وتلك الهجرة البارعة الباهرة من عاصمة الشرك العربي، وبلد الاضطهاد، إلى المدينة ليحتل منها وبها البلد الذي يحاول اغتياله. وتحويل قبلة الصلاة من بيت المقدس إلى البيت الحرام ليوجه أنظار جماعته إلى مكة. وتجديد حج العرب إلى مكة، وفرضُه على أتباعه ليجعل من فتح مكة واجب المسلمين الأول. وتشريع يوم الجمعة، يوم العروبة الذي اعتاد العرب أن يعقدوا فيه نواديهم وأسواقهم، يوم الصلاة الرسمي ليجمع الدين على الدنيا في الحياة القومية. وقراره بعد

فتح مكة، العودة مع الأنصار إلى المدينة، اتقاء فتنة التنافس والشقاق. وهكذا توّج سياسته الدينية الفذة بحجة الوداع التي جمع بها العرب جميعاً حول شخصه.

*

وكان محمد عبقرية دبلوماسية. وقد تجلّت بعهد الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وعهد الموادعة بين المسلمين واليهود، وعهد المودة بين المسلمين والمسيحيين. وبرعت في مهادنة المنافقين في المدينة حتى النهاية، وفي المعاهدات والأحلاف مع الأعراب بعد الغزوات الناجحة؛ وفي العفو العام عن بني قومه وألد خصومه أهل مكة بعد الفتح؛ وفي تأليف قلوب زعماء مكة بعد فتحها بتوزيع غنائم أخصامهم قبائل هوازن عليهم. وفازت في تفكيك التضامن بين اليهود والأحزاب في حملة الخندق الحاسمة ببعث الشكوك فيما بينهم والتخاذل والانسحاب؛ وتفضيل معاهدة عدم اعتداء مع قريش في الحديبيّة على قتال غير مكفول وفتح غير مأمون. وانتصرت في تحقيق فتح سهل، بعد فشل طارئ كإجلاء بني النضير بعد هزيمة أُحُد، والقضاء على قريظة بعد حصار المدينة المخيف يوم الخندق، وغزو خيبر وقرى الشمال اليهودية بعد صلح الحديبية الذي اعتبره عمر وجماعته مشيناً؛ والحملة الجبارة على مشارف الشام بعد حصار الطائف الفاشل. وتوّج دبلوماسيته الظافرة بمبايعة وفود العرب العامة.

*

وكان محمد عبقرية عسكرية. ومن أعظم قواد العالم العسكريين، في التصميم والتنفيذ. فقد جعل الجهاد المقدس أساس الدولة الدينية التي يبنيها. وبما أن المال عصب الحروب، ترى القرآن مشحوناً بالتحريض على الجهاد بالمال كما على الجهاد بالنفس. وبما أن أهداف الحرب هي نفْسُها نَفَسُها، فقد جمع الفوز بالجنة في الآخرة، إلى الفوز بالغنائم في الدنيا، ترهيباً وترغيباً. وأعطى العرب بصوفية الحرب المقدسة في سبيل الله، شهادةً أو استشهاداً، حماسة قد لا نجد لها مثيلاً. وهو يقود الغزوات والحملات بذاته، يعرف كيف يهيئ الحملة، وكيف يقودها؛ وكيف يعود منها غالباً وكيف ينقلب مغلوباً؛ والتصرّف في حال الهزيمة أبرع من نشوة الظفر. يتوسع بالجهاد كلما ازداد قوة، ولا يعلن عن أهدافه، إلا متى حان وقتها. يعرف كيف يستشير، وكيف يأخذ برأي صائب، وكيف يفرض رأيه في الظرف الحاسم ولو خالف رأي زعماء الصحابة كما حدث في أسرى بدر، وصلح الحديبية، وغزو تبوك. ويكون هو بذاته الأسوة الحسنة في المعركة. فلولا موقفه البطولي في هزيمة أحد

وحصار المدينة لقضي على الإسلام؛ ولولا موقفه الجريء في معركة حنين لَخَسِر فتح مكة، ونَصْرَ الإسلام.

*

وكان محمد عبقرية إدارية، في تنظيم شؤون الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية والحربية. تظهر مرونته الدينية في (أسباب نزول) الآيات القرآنية؛ وفي تكييف تقوى جماعته على ظروف حياتهم من القيام في الليل للصلاة، إلى دقائق معدودات في النهار، ومن الزهد العميق إلى تحليل الطيبات. وتظهر حنكته السياسية في تشريع نظام الشورى في الحكم، وإشراك « أولي الأمر » معه في حكم الجماعة لتهيئتهم لخلافته. وبما أن المال قوام الحياة الاجتماعية الكريمة فقد فرض الصدقات على الجميع، والزكاة على المسلمين والجزية على الكتابيين. وهكذا يصير يوماً بعد يوم الحاكم بأمر الله في جماعته: عليهم أن يخاطبوه بما يستحق مركز النبوة (الحجرات ٢ نور ٦٣)؛ وعليهم أن يستأذنوه بالدخول عليه والخروج (أحزاب ٥٣ نور ٦٢). وحاول مرة أن يفرض عليهم صدقة لزيارته فاستثقلوها فنسخها للحال (المجادلة ١٣). ويجعل دائماً الطاعة له من الطاعة لله (آل عمران ٣١ ـ ٣٢) ومن يعص الرسول عليه أن يستغفر الله (نساء ٦٣) حتى أنه لا يكمل إيمان أحدهم حتى يحكّم النبي في كل أمر (نساء ٦٤)، وليحذروا الله ورسوله إن تولّوا عن طاعته (المائدة ٩٤ ـ ٩٥) فليس لهم من سبيل إلاّ في طاعة الرسول: « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا! وأولئك هم المفلحون » (نور ٥١). فقد قرن الإيمان به بالإيمان بالله، والطاعة له بالطاعة لله والصلاة عليه بالصلاة لله، وذكره في الشهادة والآذان للصلاة يذكر الله: « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعزّروه وتوقّروه، وتسبّحوه بكرة وأصيلاً (الفتح ٨ ـ ٩). والله وجبريل والملائكة وصالح المؤمنين في حمايته ومظاهرته: « فإن الله مولاه وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهيراً » (تحريم ٤). ويطلب من المسلمين أن يصلّوا على النبي ويسلّموا عليه كما يسلّم ويصلّي عليه الله وملائكته: « إن الله وملائكته يصلون على النبي! يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً » (أحزاب ٥٦).

*

وكان محمد عبقرية تشريعية. لا بدّ للدين والدولة اللذين يبنيهما الإسلام من شريعة جامعة لنواحي الحياة الدينية والقومية. فاتبع في مكة شرع الكتاب: « شرع لكم من

الذين ما وصى به نوحاً ـ والذي أوحينا إليك ـ وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » (شورى ١٣). وفي المدينة يُطوّر شريعته بتلقيحها بعوائد قومه لإيلافهم، فجاءَت شريعة القرآن الأخيرة مناسبة لبيئته « شرعاً وسطاً » بين التوراة والإنجيل. وفي ذلك يتجلّى نظر الشارع الثاقب. ويمتاز تشريعه بالمرونة، فلم يكن النبي جامداً في تشريعه بل كان يطوّره على حسب الظروف كما توحيه (أسباب النزول)، ولذلك كثر فيه (الناسخ والمنسوخ) الباقي، بعد الكثير الكثير الذي كان يسقطه كل عام في (معارضة جبريل للقرآن) غير الذي أسقطه عثمان في جمع القرآن بعد أن جمعه عليّ في مصحفه الذي أهملوه. قد لا يكون في توحيد القرآن غير التوحيد الكتابي، ولكن القرآن امتاز بشريعته الوسط « للأمة الوسط » .

*

أخيراً كان محمد عبقرية أَدبية. لم يحفظ العرب قبله من آدابهم إلا الشعر. ولكن لمّا فتح محمد بنظم القرآن فتحاً مبيناً، جعلوه معجزة له، وإن وضع القرآن إعجازه في الهدى أكثر منه في البيان. فقد كان النبي خطيباً أدبياً، وخطيباً شعبياً لم يشهد العرب له مثيلاً. وتجد القرآن كل أنواع البيان والأدب، يكتفي منها بما يؤيد أغراض دعوته. تجد الشعر المنثور في أوصاف الكون واليوم الآخر؛ وتجد الأدب الرفيع في الأمثال والقصص، قصص الأمم الخوالي، وقصص الأحوال الشخصية؛ وتجد الخطابة الدينية والسياسية والاجتماعية والشعبية في الدعوة لله والجهاد في سبيله؛ وتجد لُمَحاً من الملاحم في وصف الغزوات الناجحة والفاشلة؛ وتجد لمحاً من نوع « الدرامه » في الحوار المبثوث هنا وهناك. وكل ذلك في دعوة متواصلة للإيمان بالله واليوم الآخر، وتأسيس الإسلام ديناً ودولة في « أمة وسط » .

فقد كان النبي العربي رجل دين ورجل دولة ورجل أَدب قلّما عرف العالم له مثيلاً.

رابعاً : أخلاق النبي العربي

ولا يضير النبي العربي ما يأخذونه عليه في سيرته، مما تقتضيه النبوة من **قداسة خارقة**، في حياته الجهادية الحافلة، كما يزعمون، بالاغتيالات السياسية حتى نقلوا عنه الحديث: ((غضب الله على رجل يقتله رسول الله في سبيل الله)) ؛ وفي حياته الشخصية الملأى، كما يدّعون، بالمغامرات النسائية حتى كانت عائشة تقول له: ((أرى ربك يُسارع لك في هواك)) !

ونسوا من جهة تقريرات القرآن المتواترة عن ((**بشرية**)) النبي، فلا يستحي أن يسميه ((الرسول البشر)) الذي لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الله، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؛ ولا يستحي أن يردّ على تحديات المشركين والكتابيين الذين يتحدّونه بمعجزة كالأنبياء الأولين، في شخصه أو في الطبيعة، فيعجز ويقول بسموّ وتسامٍ: ((قل سبحان ربي، هل كنت إلا بشراً رسولاً)) . وتلك اللهجة الصادقة التي ينقل بها القرآن أمجّاد النبي، وظلال ((بشريته)) دليل قائم على صحة ما وصل إلينا من القرآن.

ومن جهة أخرى ليس من العدل أن يقارنوا شخصية النبي العربي وقداسته بالسيد المسيح. فإن عيسى ابن مريم عندهم مسيح الله وكلمة الله وروح الله، فهو من عالم غير عالمنا، أقرب إلى السماء منه إلى الأرض، في أحواله وأعماله.

والقرآن يضعنا على الصراط المستقيم في فهم قداسة سيرة النبي. كان محمد يقتفي في مكة آثار رهبان عيسى في دعوته وزهده وصوفيته. ثم عدل في المدينة إلى الإقتداء بالأنبياء الملوك، داود وسليمان: ((أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، فقد آتينا آل داود الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً)) (نساء ٥٣). ونرى من القرآن والسيرة أن محمداً صورة مكبّرة عن صاحب الزبور: تشابه في الشخصية، وتشابه في السيرة. فمن العدل أن نقارن قداسة محمد بقداسة داود، لا بقداسة السيد المسيح.

من يقرأ سفر الملوك الأول (أو صموئيل الأول) يجد بين داود ومحمد شبهاً كاملاً في الشخصية، فكلاهما النبي الملك؛ وفي سيرتهما، فكلاهما بدأ شريداً طريداً، ثم تمكّن بمعونة الأنصار من فتح أورشليم أو فتح مكة والسيادة عليها في ملك عظيم ودولة دينية قومية يحكمها بأمر الله؛ وفي كتابيهما: فسور القرآن المنجّمة أشبه شيء بمزامير داود المفصّلة. فلا يضير شخصية « النبي الأمي » كثرة الغزوات وعدد النساء، كما لم يطعن في نبوة داود وقداسته كثرة العصابات والحروب، وكثرة الإماء والنساء. فالذي قال عنه الكتاب: « واجتمع إلى داود كل صاحب ضيق، وكل من كان عليه دين، وكل من كان في مرارة نفس، فقام عليهم رئيساً؛ وعاش داود سنين **حرب العصابات** دفاعاً عن النفس » (١ ملوك ٢٢ ـ ٢٣)؛ « وكان داود يضرب في البلاد فلا يُبقي على رجل ولا امرأة، ويأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب ويرجع » (١ ملوك ٢٧)؛ يقول عنه الكتاب أيضاً: « وقد غفر الله خطاياه، وأعلى قرنه إلى الأبد، عاهده على الملك وعرش المجد » (ابن سيراخ ٤٧ : ١٣)؛ « وشهد له الله قائلاً: إني وجدت داود بن يسّى رجلاً على حسب قلبي. وهو سيعمل بمشيئتي كلها » (أعمال ١٣ : ٢٢). فالقرآن أيضاً يقول عن محمد: « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ؛ « إن الله وملائكته يصلون على النبي » ! فقداسة نبي صورة لشريعته، والقرآن عود إلى « ملة إبراهيم » .

قداسة محمد صورة كاملة لصوفية، فهي « بين الروحية والمادية: هل يدعو القرآن إلى روحية مطلقة مجردة عن المصلحة الدنيوية، أم يدعو إلى مادية مطلقة مجردة من صفاء الروحية وشفافيّتها؟ ـ إن أجمل ما في الإسلام هو ذلك **القدر الوسط**، أو تلك الحال « القوام » بين طرفين، فلا طغيان لطرف على طرف، ولا رجحان لحالة على حالة، وإنما العبرة باستواء القصد، واعتدال الحد. وحين يدعو الإسلام إلى ابتغاء الآخرة، فإنه يحتم على المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا. قال تعالى: « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا » . **وهذا التوفيق بين طرفين قد يكونان على النقيض**، هو سرّ القوة الكامنة في الإسلام[1] » وفي نبي الإسلام.

فكما أن إسلام القرآن « أمة وسط » بين التوراة والإنجيل، لا استغراق في المادية ولا استغراق في الروحانية، بل « قدر وسط بين الروحية والمادية » ، لا ينسى حق الروح والآخرة ولا ينسى حق الجسد والدنيا؛ فكذلك نبي القرآن « أسوة حسنة » بين أنبياء الكتاب الملوك، وبين مسيح الإنجيل.

---

(١) محمد عبد الغني حسن : الإسلام بين الإنصاف والجحود ص ٤١ .

خامساً : القرآن العربي، « وحي الفطرة »

يشهد القرآن العربي عن نفسه أنه نسخة عربية عن التوحيد الكتابي: « وانه لفي زبُر الأولين » أي « كتبهم كالتوراة والإنجيل » (الجلالان: شعراء ١٩٦)، نزل تصديقاً وتفصيلاً (يونس ٣٧) للكتاب « الإمام » (هود ١٧ أحقاف ١٢) إلى العرب « الأميين » (جمعة ١)، « بلسان عربي مبين » (فصلت، زخرف).

فالقرآن رسالة تدعو إلى التوحيد المنزل في التوراة والإنجيل (آل عمران ١ ـ ٣) لا عن طريق المعجزة والخوارق، بل عن طريق الفطرة ومظاهر الكون: « إن في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء، فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخّر بين السماء والأرض، لآيات لقوم يعقلون » (بقرة ١٦٤). تلك طريقة القرآن وإعجازه ومعجزته: « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق » .

قال حسين هيكل معقباً[١]: « فالإيمان بالله وحده لا شريك له، لا يحتاج إلى معجزة، ولا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله. والشهادة برسالة محمد الذي دعا الناس بأمر الله إلى هذا الإيمان، وجنّبهم ما يزيغ قلوبهم عنه، لا تحتاج إلى معجزة غير القرآن، ولا تحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله ». فهو التوحيد الفطري « فطرة الله التي فطر الناس عليها » .

---

(١) حياة محمد ٥٥ .

وقال أيضاً[٢]: « ولقد كان ص. حريصاً على أن يقدّر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه، حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن ويصارح أصحابه بذلك » . فالقرآن يقف من كل معجزة « موقفاً سلبيّاً[٣] » .

وأجمع القوم اليوم على أن « القرآن هو وحده معجزة محمد[٢] » . فهو كتاب الله في شؤون الدنيا والآخرة، ومشاكل الدين والدولة، وحاجات الروح والجسد. فيه مبادئ علوم الدين والسياسة والاجتماع وفلسفة التاريخ والحياة. هو كتاب القراءة الأول، ومختصر دروس الأشياء، وموجز التشريع الديني والقومي، وقانون العقائد الدينية والأحكام العملية. هو كتاب الصلاة، والأناشيد الدينية، وكتاب التأمل في الدين والحياة، والكون والآخرة. فهو الكتاب المعجز في البيان والهدى.

والإعجاز القرآني الصحيح. بشهادة القرآن نفسه، هو في الهدى أكثر منه في البيان، على مثال الكتاب « الإمام » : « قل فأتوا بكتاب من عند الله أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين » . فالإعجاز الذي يذكره القرآن في سور (الإسراء وهود ويونس والبقرة) ليس في البيان: الكلام إنشاء وخبر؛ وتقرير القرآن مبدأ النسخ فيه (بقرة ١٠٦) يلقي شبهة على الإعجاز البياني في أحكامه؛ وتقرير القرآن مبدأ المتشابه فيه (آل عمران ٧) يلقي أيضاً شبهة على الإعجاز البياني في أخباره وأوصافه. والإعجاز في البيان، مع النسخ والمتشابه فيه لا يجتمعان ـ إعجاز القرآن في التوحيد الخالص. فالألفاظ أجساد، والمعاني أرواح لها؛ والروح أفضل من الجسد، والجسد أفضل من اللباس. والحرف يقتل والروح يحيي. ويشهد القرآن لنفسه أن الكتاب « إمامه » في الهدى والتوحيد، كما هو إمامه في الوحي والتنزيل « نزّل عليك الكتاب بالحق، مصدقاً لما بين يديه، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس » (آل عمران ١ ـ ٣).

*

* *

---

(٢) حياة محمد ٤٤ .

(٣) دروزة : سيرة الرسول ١ : ٢١٥ ـ ٢٢٦ راجع هنا ص ٦٦٤ .

سادساً : إسلام القرآن

إسلام القرآن هو في جوهره إسلام الكتاب: هذه هي شهادة القرآن المتواترة. فالكتاب المنزل عنده واحد: « يا أيها الذين آمنوا، آمِنوا بالله ورسوله، والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أُنزل من قبل: ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » (نساء ١٣٥). والتوحيد المنزل في التوراة والإنجيل والقرآن عنده واحد: « قل آمنا بالله وبما أُنزل علينا، وما أُنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى والنبيّون من ربهم: لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » (آل عمران ٨٥ كذلك البقرة ١٣٦ نساء ١٦٣) والإسلام عنده واحد في الكتب الثلاثة مهما اختلفت طرق العبادة: « ليس البرَّ أن تولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب؛ ولكن البرَّ مَن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّين » (بقرة ١٧٧).

ولكن بسبب البيئة التي نزل فيها القرآن، وإليها قبل غيرها، امتاز الإسلام القرآني بخصائص ذاتية عن الإسلام التوراتي والإنجيلي.

*

الميزة الذاتية الأولى في إسلام القرآن التي تعرّفه تعريفاً شاملاً كاملاً وتحدّه تحديداً جامعاً مانعاً: أنه « دين وسط » بين إسلام التوراة وإسلام الإنجيل: « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » (بقرة ١٤٣).

فالإسلام « دين وسط » في عقيدته بين الموسوية والمسيحية.

والإسلام « دين وسط » في شريعته بين التوراة والإنجيل.

والإسلام ((دين وسط)) في صوفيته بين اليهود والنصارى.

*

والميزة الذاتية الثانية في إسلام القرآن أنه دين ودولة معاً، أو دولة دينية لا يقوم فيها الدين بدون الدولة، ولا تقوم الدولة بدون الدين؛ فلا مجال فيه لفكرة (فصل الدين عن الدولة). وقد أوجز الإمام حسن البنّا[١] وأحسن: ((الإسلام دين ودولة ... وإنه تعرّض لشؤون الحياة الدنيوية بأكثر مما تعرّض به للأعمال التعبدية. إن الدين جزء من نظام الإسلام، والإسلام ينظمه كما ينظم الدنيا تماماً. ومَن ظن أن الإسلام لا يعرض للسياسة، أو أن السياسة ليست من مباحثه، فقد ظلم نفسه، وظلم عمله بهذا الإسلام)) .

*

والميزة الذاتية الثالثة في إسلام القرآن هي تأسيسه ونشره بالجهاد. ولِمَ الحياء، أو المراءُ في ذلك؟ وقد كانت البيئة الحجازية، البدائية البدوية تقتضيه. حاول النبي الدعوة في مكة ((بالحكمة والموعظة الحسنة)) ففشلت، ((مع أن ثلثي القرآن قد نزلا في هذا العهد، وأن الأسلوب القرآني المكّي هو أقوى وأنفذ من حيث النظم والإنذار والتبشير والترغيب والترهيب والحجاج والإفحام والإلزام[٢])) . ونجحت الدعوة القرآنية في المدينة ((بالحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس)) (الحديد ٢٥). فكان الجهاد صفة المسلم والإسلام أبد الدهر، كما جاء في (مجلة الأزهر[٣]): ((الجهاد فضيلة في العرب وفريضة في الدين: المسلم المؤمن لا يزال على ذكر من أن **دينه قرآن وسيف**، وتاريخه فتح وحضارة، وشرعه دين ودنيا، وحربه جهاد وشهادة، وحكومته خلافة وقيادة: فهو مجاهد أبداً)) .

*

* *

---

(١) مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي . الاقتباس من كتاب (دين ودولة) لأحمد محمد جمال : المقدمة .
(٢) دروزة : القرآن المجيد ٣٤ .
(٣) مجلة الأزهر : صفر ١٣٧٩ = أغسطس ١٩٥٩ في المقال الافتتاحي لأحمد حسن الزيات .

سابعاً : القرآن كتاب التوحيد الخالص

تلك الميزات الخاصة في إسلام القرآن، لا تمنع القرآن من أن يكون كتاب التوحيد الخالص. هذه في الحقيقة معجزته وإعجازه: فإعجازه في توحيده، ومعجزته في دعوة التوحيد. وهذا فخره، ويكفيه فخراً، أبد الدهر. فالقرآن الكريم كتاب عظيم في التوحيد، لا يضارعه في دعوة التوحيد سوى سفر التثنية في التوراة حيث كلمة (الإخلاص) في التوحيد واحدة: « يهوه إِحِد » = « قل هو الله أحد » ؛ وأشعيا الثاني في الأنبياء، حيث هتاف « لا إله إلا الله » يدوي في روعة وحماس، نشيداً بعد نشيد (٤٣ : ١٠ ؛ ٤٤ : ٦ و٨ ؛ ٤٥ : ٥ و١٤ و١٨ وخصوصاً ٥ : ٢١ ـ ٢٢)؛ وبعض المزامير في الزبور، التي تصف وحدانية الله وعظمته في خلقه (١٠٣) وإنه الرحمان الرحيم الذي يهدي إلى الصراط المستقيم (١٠٢ و١٤٢). لا نذكر الإنجيل، لأنه يفترض التوحيد في أمة التوحيد، وغايته أن يكشف في التوحيد الإنجيلي عن حياة الحيّ القيوم في تفاعل ذاته السرمدية، وعلاقتها وصلتها بالإنسان.

*

أمّا غاية القرآن فمحاربة الشرك العربي على هدى التوحيد الكتابي. لذلك جاء توحيده سلبيّاً « لا إله إلا الله » وفي هذا التوحيد الخارجي يحصر القرآن إسلامه كله: « قلْ إنما يُوحى إليّ أنما إلهكم واحد: فهل أنتم مسلمون؟ » (الأنبياء ١٠٨). وما كانت البيئة الحجازية لتستسيغ أكثر من هذا « العلم القليل » في تعليم التوحيد: « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » (الإسراء ٨٥). وهذا التوحيد البسيط الخالص، ما كانت البشرية لتقبله بسهولة إلى اليوم. واليوم تتكالب لتخنقه وتبيده من العالم. فلا بدّ للموحّدين، من أن يتّحدوا لينصروا دين الله.

وعلى جميع المؤمنين بالله واليوم الآخر أن يعتزوا بالدعوة القرآنية للتوحيد الخالص، لأنهما هي التي تجمع ما بين أهل الكتاب وأهل القرآن، في عقيدة واحدة جوهرية، التوحيد المنزل، الذي لا دين ولا شرع ولا نظام ولا كيان ولا وجود معقولاً ومقبولاً بدونه.

وهذه الوحدة الأساسية في التوحيد المنزل يجب أن لا يتناساها أهل التوحيد في تنافسهم. ويجب أن يذكروا على الدوام أن المادية والإلحاد، لهم كل حين بالمرصاد، ليقضيا على الدين والتوحيد في العالم.

فالقرآن هو بوق التوحيد الصارخ!

القرآن هو نشيد التوحيد الرائع !

القرآن هو بلاغ التوحيد البليغ !

والنبي العربي هو ((النبي الأمي)) الكتابي.

النبي العربي ((يقتدي بهدى الكتاب)) والكتاب ((إمامه)) .

النبي العربي ((خاتم النبيين)) بتصديق الكتاب وتفصيله للعرب.

وإسلام القرآن هو إسلام الكتاب في مصدره.

إسلام القرآن هو إسلام الكتاب في جوهره.

إسلام القرآن هو إسلام الكتاب في ((أطوار دعوته)) .

*